مرکز القائمیة اصبهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

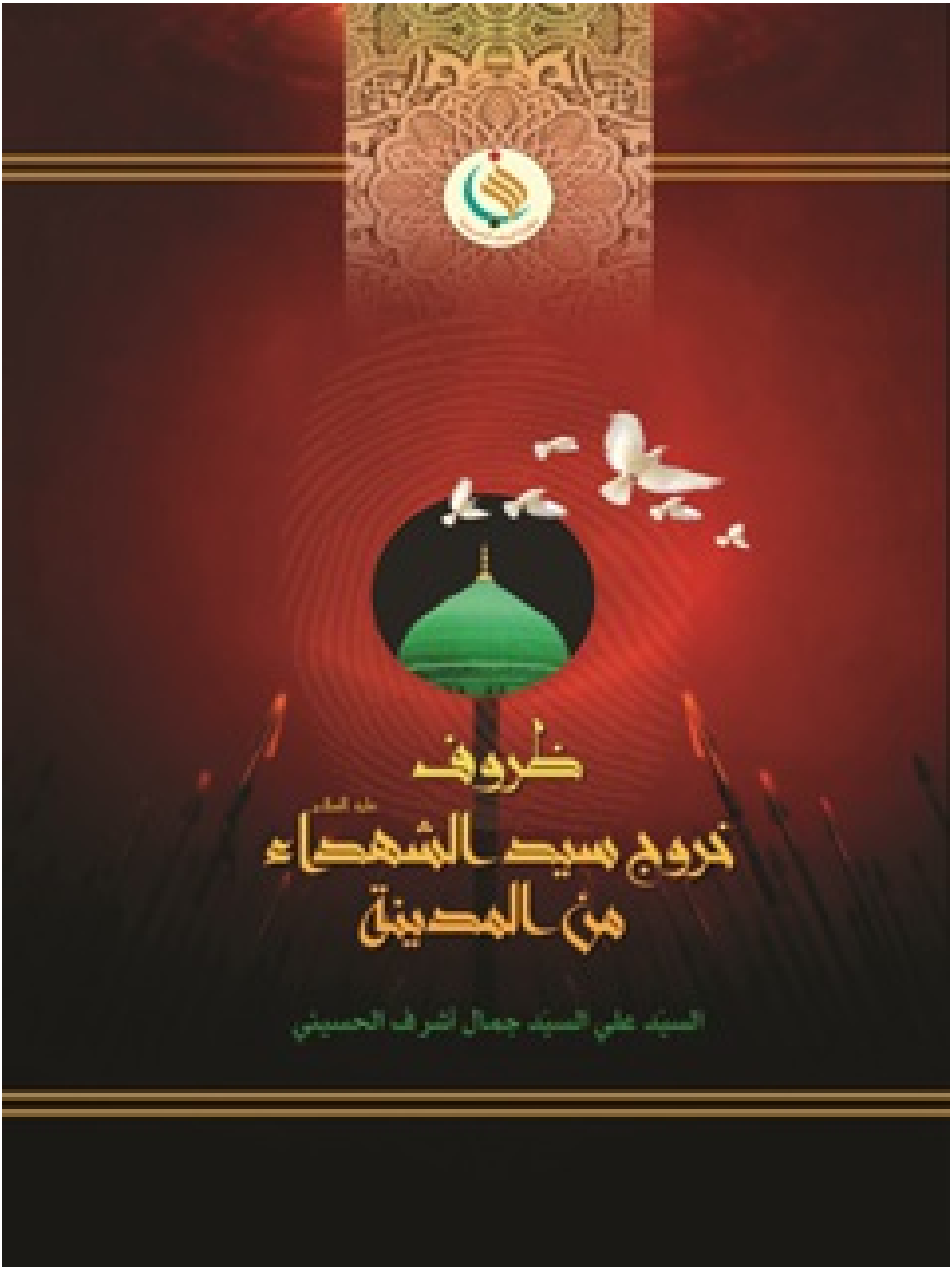
ظروف
خروج سيد الشهداء
من المدينة
السيد علي السيد جمال أشرف الحسيني

بسم الله الرحمن الرحیم

ظروف خروج سيد الشهداء عليه السلام من المدينه المنوره

كاتب:

سيد علي جمال أشرف

نشرت في الطباعة:

مولف

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ---- 5

ظروف خروج سيد الشهداء عليه السلام من المدينه المنوره ---- 16

اشارة ---- 16

اشارة ---- 16

الديباجة ---- 18

المقدّمة ---- 28

اشارة ---- 28

الأول: القراءة بمعزلٍ عن السوابق ---- 29

الثاني: اجتناب العجَلة ---- 30

الثالث: ليس هذا كلّ البحث ---- 30

الرابع: توثيقات الكتاب ---- 31

الخامس: هدف البحث ---- 31

السادس: إضافة بعض المطالب ---- 32

مقدّمات ضروريّة ---- 34

اشارة ---- 34

المقدّمة الأُولي: علم الإمام (عليه السلام) بعاقبة القيام ---- 36

اشارة ---- 36

الفرض الأوّل: علم الإمام (عليه السلام) ---- 37

الفرض الثاني: من خلال الإخبار الغيبيّ ---- 37

الفرض الثالث: مُجريات الأحداث ووضوحها للجميع ---- 38

المقدّمة الثانية: صفات المعصومين (عليهم السلام) وتكاليفهم الربّانيّة ---- 39

المقدّمة الثالثة: تعريف الثورة ---- 45

اشارة ---- 45

معني الثورة في اللغة العربيّة 55

تعريف الشيخ شمس الدين (رحمة الله) 59

اشارة 59

الوقفة الأولي: الاحتجاج 61

الوقفة الثانية: النهائيّ الحاسم 62

الوقفة الثالثة: الحاسم 63

الوقفة الرابعة: حتميّة الثورة 66

الوقفة الخامسة: الأكثريّة المأسورة بالواقع 70

الوقفة السادسة: الثورة قدر النخبة الصحيحة 72

الوقفة السابعة: الأخلاق الجديدة من مقوّمات وجود الثورة 76

الوقفة الثامنة: كلمةٌ موجَزة 78

موازين دراسة الثورات 78

أهمّ الوسائل في الغزو الثقافيّ 81

مقوّمات الثورة 84

دواعي خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة 86

اشارة 86

القسم الأوّل: دواعي بعيدة المدي 86

اشارة 86

المدي الأوّل: منذ صدر الإسلام 86

اشارة 86

النموذج الأوّل: وجود الحقّ بوجود حامله 88

النموذج الثاني: استمرار سيّد الشهداء (عليه السلام) في قيامه رغم انعدام المقوّمات 90

المدي الثاني: قُبيل القيام 91

إعداد معاوية وأخذه البيعة لنغله يزيد 91

تبييت معاوية قتل سيّد الشهداء (عليه السلام) 94

القسم الثاني: الدواعي الآنيّة ---------- 96
وصيّة سيّد الشهداء (عليه السلام) لأخيه محمّد ابن الحنفيّة ---------- 98
اشارة ---------- 98
المستوي الأوّل: البحث في السند والاعتبار ---------- 98
أوّل مَن حكي الوصيّة: ---------- 98
حكاية ابن شهرآشوب: ---------- 99
اشارة ---------- 99
الملاحظة الأُولي: التلفيق ---------- 100
الملاحظة الثانية: حكايته عن ابن أعثم والخوارزميّ ---------- 100
الملاحظة الثالثة: ترميم النصّ ---------- 100
حكاية ابن أبي طالب ومَن بعده ---------- 101
غريبةٌ جدّاً ---------- 102
إغفال السند ---------- 103
المستوي الثاني: حوار ابن الحنفيّة وسيّد الشهداء (عليه السلام) عند المؤرّخين ---------- 103
اشارة ---------- 103
نموذج متقدّم: البلاذري (ت 279) ---------- 104
نموذج معاصر الطبري (ت 310) ---------- 104
نموذج متأخّر: المفيد، المجلسي، البحراني، وغيرهم ---------- 105
المستوي الثالث: البحث في الدلالات ---------- 109
اشارة ---------- 109
النكتة الأُولي: النصّ وصيّة ---------- 109
اشارة ---------- 109
الشاهد الأوّل: دعا بدواةٍ وكتب فيه ---------- 110
الشاهد الثاني: التصريح بالوصيّة ---------- 110
الشاهد الثالث: صياغة المقدّمة ---------- 110

الشاهد الرابع: ختمها 111
النكتة الثانية: المخاطَب بالوصيّة 113
اشارة 113
المخاطَب الأوّل: محمّد ابن الحنفيّة 113
المخاطَب الثاني: مَن اتّبع الهدي 113
النكتة الثالثة: مكان صدور الوصيّة 115
النكتة الرابعة: زمان كتابة الوصيّة 116
النكتة الخامسة: المطلوب في الوصيّة 119
النكتة السادسة: ظروف صدور الوصيّة 120
الظرف الأوّل: مشهد خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) 120
الظرف الثاني: دم الإمام مطلوبٌ علي كلّ حال 126
الظرف الثالث: محاصرة الإمام والتضييق عليه للبيعة 132
الظرف الرابع: سيّد الشهداء (عليه السلام) مطلوبٌ عند الخروج من المدينة! 135
الظرف الخامس: دعوات الكوفيّين 136
الظرف السادس: خذلان الناس وبيعة أهل المدينة جميعاً 138
النكتة السابعة: سبب الخروج في تصريحات سيّد الشهداء (عليه السلام) 142
اشارة 142
التصريح الأوّل: خرج منها خائفاً يترقّب 142
التصريح الثاني: التمثّل بشعر ابن المفرّغ 144
التصريح الثالث: أبياتٌ لسيّد الشهداء (عليه السلام) 145
التصريح الرابع: لمّا وافي مكّة 146
التصريح الخامس: جوابه لأبي هرم (أبي هرّة) 147
التصريح السادس: هيهات منّا الذلة 148
النكتة الثامنة: سبب الخروج من المدينة في فهم المؤرّخين 150
النكتة التاسعة: تصوّرات الأقرباء والمقرّبين 153

النكتة العاشرة: فهم الشيعة في الكوفة 154
النكتة الخاتمة: الاستنهاض والاستنصار! 157
نكات تتعلّق بالوصيّة مباشرة 158
اشارة 158
النكتة الأُولي: ملاحظة اتّحاد الصدر والذيل في النصّ 159
النكتة الثانية: أُحبّ المعروف وأُنكِر المنكر 159
اشارة 159
الإشارة الأُولي: الشكوي للنبيّ (صلي الله عليه و آله) 161
الإشارة الثانية: المبيت عند النبيّ (صلي الله عليه و آله) حتّي الصباح 163
الإشارة الثالثة: البكاء حتّي الصباح 164
الإشارة الرابعة: الاستخارة 165
الإشارة الخامسة: حبّ المعروف وإنكار المنكر 166
الإشارة السادسة: مؤدّي الرؤيا 167
الإشارة السابعة: حزن أهل البيت (عليهم السلام) وبكاؤهم 169
النكتة الثالثة: الوصيّة برواية أهل البيت (عليهم السلام) 170
النص 175
اشارة 175
الجزء الأوّل: الحوار 175
اشارة 175
فقرات الجزء الأوّل: 177
اشارة 177
الفقرة الأولي: المقدّمة 177
كلام ابن الحنفيّة: 177
اشارة 177
الوقفة الأُولي: مجيء ابن الحنفيّة 178

الوقفة الثانية: تقديمٌ قبل الإشارة 179
جواب سيّد الشهداء (عليه السلام) 182
الفقرة الثانية: إبداء الرأي! 182
اشارة 182
كلام ابن الحنفيّة 182
اشارة 182
المادّة الأُولي: التنحّي عن يزيد وعن الأمصار 183
المادّة الثانية: الدعوة للبيعة 184
اشارة 184
تنبيه مهمّ: 186
المادّة الثالثة: فرض حصول البيعة 190
اشارة 190
وقفات: 190
المادّة الرابعة: فرض عدم حصول البيعة 201
اشارة 201
الملاحظة الأُولي: الإمامة فرضٌ وليست اختيار 201
الملاحظة الثانية: سكوت الإمام (عليه السلام) في المدينة 202
الملاحظة الثالثة: إجماع الناس علي بيعة غيره 204
الملاحظة الرابعة: لو لزم الإمام منزله وسكت! 205
الملاحظة الخامسة: مطالبة الإمام بالبيعة الذليلة 207
الملاحظة السادسة: لو بايع الإمام (عليه السلام) ! 208
المادّة السابعة: نتيجة ترك العمل بالرأي 214
اشارة 214
المفاد الأوّل: التعليل والتحذير 214
المفاد الثاني: ضرورة الأخذ برأيه 215

المفاد الثالث: افتراض الافتراق 215

جواب سيّد الشهداء (عليه السلام) 218

الفقرة الثالثة: إلي مكّة أو اليمن أو.. 220

كلام ابن الحنفيّة: 220

اشارة 220

الخيار الأوّل: مكّة 220

الخيار الثاني: اليمن 222

الخيار الثالث: اللحاق بالجبال والرمال والترحّل 239

جواب سيّد الشهداء (عليه السلام) 242

اشارة 242

الإيعاز الأوّل: الخطاب «يا أخي» 243

الإيعاز الثاني: خيارات الإمام (عليه السلام) 244

الفقرة الرابعة: بكاؤهما معاً 247

الفقرة الخامسة: تتمّة كلام سيّد الشهداء (عليه السلام) 248

اشارة 248

المجال الأوّل: التعليق علي موقف أخيه 248

اشارة 248

الشقّ الأوّل: الدعاء والشكر للموقف 249

الشقّ الثاني: النصح والإشارة بالصواب 249

المجال الثاني: بيان عزمه والإعلان عن وُجهته 251

اشارة 251

التنويه الأوّل: عزمه علي الخروج إلي مكّة 251

التنويه الثاني: ذكر مَن يخرج معه 252

التنويه الثالث: صفة مَن يخرج معه 253

التنويه الرابع: معني الخروج 254

المجال الثالث: بيان تكليف ابن الحنفيّة 254
اشارة 254
الأوّل: المعارض 256
الثاني: الصعوبة 258
الجزء الثاني: متن الوصيّة 258
اشارة 258
البند الأوّل: إطلالة الوصيّة ومقدّمتها 260
اشارة 260
المحتوي الأوّل: المخاطَب بالوصيّة 260
المحتوي الثاني: إطلالة الوصيّة 261
البند الثاني: متن الوصيّة 261
اشارة 261
التلويح الأوّل: ترابط النصّ 262
التلويح الثاني: العطف بعد المقدّمة 264
التلويح الثالث: معني الخروج 266
اشارة 266
المعني الأوّل: اللغويّ 266
المعني الثاني: المعني الاصطلاحيّ 268
اشارة 268
المانع الأوّل: الإمام هو الشرعيّة 269
المانع الثاني: لم يكن حديث «الخروج الاصطلاحيّ!!!» قد بانت لوائحه يومها 270
المانع الثالث: الخروج فرية الأعداء 271
المانع الرابع: التعدّي ب-- (علي) 273
التلويح الرابع: ترابط الجملة 273
التلويح الخامس: التفهيم والتفسير ومعالجة الشبهة 274

التلويح السادس: معاني بعض المفردات المهمّة 277
اشارة 277
المفردة الأُولي: الأشَر 277
المفردة الثانية: البطَر 277
المفردة الثالثة: الفساد 278
المفردة الرابعة: الظلم 278
المفردة الخامسة: الطلب 278
المفردة السادسة: النجاح 279
المفردة السابعة: الصلاح 279
التلويح السابع: موارد الاتّهام المردودة في الوصيّة 282
التلويح الثامن: الحصر تفسيرٌ للنفي 285
اشارة 285
الوجه الأوّل: 286
الوجه الثاني: 286
الوجه الثالث: 286
التلويح التاسع: التقابل بين النفي والحصر 286
التلويح العاشر: معني عبارة الحصر 288
اشارة 288
التلميح الأوّل: اتّحاد الخروج 288
التلميح الثاني: اتّصاف نفس الخروج بالخصال المذكورة 289
التلميح الثالث: خرج ليحقّق الغرض 291
التلميح الرابع: الخروج بمعني الحركة المعارضة 291
التلويح الحادي عشر: الخيارات علي فرض القبول والردّ 292
اشارة 292
الصنف الأوّل: مَن يقبل 293

اشارة 293
الإشارة الأُولي: مَن قبلني 293
الإشارة الثانية: الإمام هو الحقّ 293
الإشارة الثالثة: الله أَولي بالحقّ 294
الصنف الثاني: مَن لم يقبل 295
اشارة 295
الضوء الأوّل: تقابل القبول والردّ 295
الضوء الثاني: ارتباط الصدر والذيل 295
الضوء الثالث: معني الصبر 296
الضوء الرابع: تقابل الردّ والصبر 297
الضوء الخامس: أمد الصبر 298
الضوء السادس: الصبر بمعني القتل! 299
الضوء السابع: جامع الأضواء 300
البند الثالث: خاتمة الوصيّة 301
اشارة 301
النكتة الأُولي: عودٌ علي بدء 301
النكتة الثانية: الخطاب بالأُخوّة 302
النكتة الثالثة: وما توفيقي إلّا بالله! 303
النكتة الرابعة: سلام الختام 303
النكتة الخامسة: ختام الخاتمة 305
النكتة السادسة: حياة ابن الحنفيّة 305
لماذا لم يوصِ الإمامُ لولده زين العابدين (عليهما السلام) ؟ 307
هل نفّذ ابن الحنفيّة الوصيّة؟ 311
اشارة 311
موقف ابن الحنفيّة مع يزيد المخمور حسب رواية ابن أعثم 312

ابن الحنفيّة لا يأذن لأبنائه بالخروج مع الإمام؟ (عليه السلام) 318
اشارة 318
النقطة الأُولي: مَن هو أوّل مَن روي هذا المتن؟ 319
اشارة 319
الإيراد الأوّل: أوّل مَن روي 320
الإيراد الثاني: ملاحظة منهجيّة 320
النقطة الثانية: النقض بالآثار 321
اشارة 321
التوقّف الأوّل: كرم أهل البيت (عليهم السلام) وسموّ أخلاقهم 322
التوقّف الثاني: اعتذار القوم 322
التوقّف الثالث: كان لمحمّد أولاد 323
التوقّف الرابع: الإشكال في المنع أو في الحضور 324
الخاتمة 325
اشارة 325
الإشارة الأُولي: الأخذ عن الإمام نفسه 331
الإشارة الثانية: دور الناس والأُمّة 333
محتويات الكتاب 337
تعريف مركز 341

ظروف خروج سيد الشهداء عليه السلام من المدينه المنوره

اشارة

ظروف خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة المنوّرة

تأليف: السيّد علي السيّد جمال أشرف الحسيني

زبان : عربي

صفحات: 324 ص

موضوع: امام حسين عليه السلام

خيرانديش ديجيتالي : بيادبود مرحوم حاج سيد مصطفي سيد حنايي

ص: 1

اشارة

الديباجة

الحمد لله الّذي لا إله إلّا هو الملك الحقّ المبين، المدبِّر بلا وزير، ولا خلقٌ مِن عباده يستشير، الأوّل غير موصوف، والباقي بعد فناء الخلق، العظيم الربوبيّة، نور السـماوات والأرضين وفاطرهما ومبتدعهما، بغير عمَدٍ خلقهما، فاستقرّت الأرضون بأوتادها فوق الماء، ثمّ علا ربُّنا في السَّماواتِ الْعُلي، الرَّحْمنُ عَلَي الْعَرْشِ اسْـ تَوي، لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّري، فأنا أشهد بأنّك أنتَ الله، لا رافع لما وضعت، ولا واضعَ لما رفعت، ولا معزَّ لمَن أذلَلت، ولا مذلّ لمَن أعزَزْت، ولا مانع لما أعطيت، ولا معطيَ لما منعت ((1)).

اللّهُمَّ واجْعَلْ شَـ رَائِفَ صَـ لَوَاتِك، وَنَوَامِيَ بَرَكَاتك، عَلَي محمّد عَبْدِك وَرَسُولك، الْخَاتِمِ لِمَا سَـ بَقَ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالدَّافِعِ جَيْشَاتِ الأَبَاطِيلِ، وَالدَّامِغِ صَوْلاتِ الأَضَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ، فَاضْطَلَعَ قَائِماً بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِك، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ، وَلا وَاهٍ فِي عَزْمٍ، وَاعِياً لِوَحْيِك، حَافِظاً لِعَهْدِكَ، مَاضِياً عَلَي نَفَاذِ أَمْرِكَ، حَتَّي أَوْرَي قَبَسَ الْقَابِسِ، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ

1- بحار الأنوار: 83 / 332 باب 45.

خَوْضَ اتِ الْفِتَنِ وَالآثَ امِ، وَأَقَ امَ بِمُوضِ حَاتِ الأَعْلامِ وَنَيِّرَاتِ الأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَشَ هِيدُكَ يَوْمَ الـدِّينِ، وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ، وَرَسُولُكَ إِلَي الْخَلْقِ((1)).

اللّهم وضاعِفْ صـلواتِكَ ورحمتَك وبركاتِكَ علي عِترة نبيِّك، العترةِ الضائعة الخائفة المسـتذَلَّة، بقيّةِ الشجرة الطيّبة الزاكية المباركة، وأعلِ _ اللّهـمّ _ كلمتَهُم، وأفلِـجْ حجّتَهم، واكشِفِ البلاءَ واللأْواءَ، وحَنادِسَ الأباطيل والعمي عنهم، وثبّتْ قلوبَ شـيعتهم وحزبَكَ علي طاعتهم وولايتهم ونصـرتهم وموالاتهم، وأَعِنْهم، وامنحهم الصبرَ علي الأذي فيك، واجعل لهم أيّاماً مشهودة، وأوقاتاً محمودةً مسعودة، توشِكُ فيها فَرَجَهم، وتُوجِبُ فيها تمكينهم ونصرهم، كما ضمِنتَ لأوليائك في كتابك المنزَل، فإنّك قلتَ _ وقولك الحقّ _: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضي لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) ((2)).

والعـن اللّهـم أوّلَ ظـالمٍ ظلَمَ حـقَّ محمّـد وآلِ محمّـد، وآخرَ تـابعٍ له علي ذلـك، اللّهم وأهلِـك مَن جعـل يـومَ قتـلِ ابنِ نـبيِّك وخيرتك عيـداً،واسـتهَلَّ به فَرَحـاً ومَرَحـاً، وخُذْ آخرَهم كما أخـذتَ أوّلهم، وأضـعِفِ اللّهمّ العـذابَ والتنكيل علي ظالمي أهل بيت نبيّك، وأهلِكْ أشياعَهُم

ص: 4

1- نهج البلاغة: 101 خ 72.

2- مصباح المتهجّد: 785.

وقادتَهم، وأَبِر حماتهم وجماعتهم ((1)).

وصلّ اللّهمّ علي حبيبي ومالك رقّي وسيّدي وإمامي، الشهيد السعيد، والسبط الثاني، والإمام الثالث، والمبارك، والتابع لمرضاة الله، المتحقّق بصفات الله، والدليل علي ذات الله، أفضلِ ثقات الله، المشغول ليلاً ونهاراً بطاعة الله، الناصر لأولياء الله، المنتقِم من أعداء الله، الإمام المظلوم، الأسير المحروم، الشهيد المرحوم، القتيل المرجوم، الإمام الشهيد، الوليّ الرشيد، الوصيّ السديد، الطريد الفريد، البطل الشديد، الطيّب الوفيّ، الإمام الرضيّ، ذو النسب العلي، المنفِق الملي، أبو عبد الله الحسين بن علي (عليهما السلام) .

منبع الأئمة، شافع الأُمّة، سيّد شباب أهل الجنّة، وعَبرة كلّ مؤمنٍ ومؤمنة، صاحب المحنة الكبري، والواقعة العظمي، وعَبرة المؤمنين في دار البلوي، ومَن كان بالإمامة أحقّ وأولي، المقتول بكربلاء، ثاني السيّد الحصور يحيي ابن النبيّ الشهيد زكريا (عليه السلام) ، الحسين بن عليّ المرتضي.

زين المجتهدين، وسراج المتوكّلين، مفخر أئمّة المهتدين، وبضعة كبد سيّد المرسلين (صلي الله عليه و آله) ، نور العترة الفاطميّة، وسراج الأنساب العلويّة،وشرف غرس الأحساب الرضويّة، المقتول بأيدي شرّ البريّة، سبط الأسباط، وطالب الثأر يوم الصراط، أكرم العِتَر، وأجلّ الأُسَر، وأثمر الشجر، وأزهر البدر، معظّمٌ مكرّمٌ موقّر، منظّفٌ مطهَّر..

أكبر الخلائق في زمانه في النفس، وأعزّهم في الجنس، أذكاهم في

1- مصباح المتهجّد: 785.

العرف، وأوفاهم في العرف، أطيب العرق، وأجمل الخلق، وأحسن الخلق، قطعة النور، ولقلب النبيّ (صلي الله عليه و آله) سرور، المنزَّه عن الإفك والزور، وعلي تحمّل المحن والأذي صبور، مع القلب المشروح حسور، مجتبي الملك الغالب، الحسين بن عليّ بن أبي طالب ((1)).

الّذي حمَلَه ميكائيل، وناغاه في المهد جبرائيل، الإمام القتيل، الّذي اسمه مكتوبٌ علي سرادق عرش الجليل: «الحسين مصباح الهدي وسفينة النجاة»، الشافع في يوم الجزاء، سيّدنا ومولانا سيّد الشهداء (عليه السلام) ((2)).

الّذي ذكره الله في اللوح الأخضر، فقال: «... وجعلتُ حسيناً خازنَ وحيي، وأكرمتُه بالشهادة، وختمتُ له بالسعادة، فهو أفضل مَن استُشهِد، وأرفعُ الشهداء درجة، جعلتُ كلمتي التامّة معه، والحجّةَ البالغةَ عنده، وبعترته أُثيبُ وأعاقِب» ((3)).الّذي قال فيه جدُّه المبعوث رحمةً للعالمين (صلي الله عليه و آله) : «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله مَن أحبّ حسيناً» ((4)).

وقال رسول الله (صلي الله عليه و آله) _ وهو الصادق الأمين _ : «إنّ حُبّ عليٍّ قُذِف في قلوب المؤمنين، فلا يحبُّه إلّا مؤمن، ولا يبغضه إلّا منافق، وإنّ حُبَّ الحسن والحسين قُذِف في قلوب المؤمنين والمنافقين والكافرين، فلا تري لهم

1- مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب: 10 / 113 -- تحقيق: السيّد علي أشرف الحسيني.
2- معالي السبطين: 61.
3- كمال الدين: 2 / 290 ح 1.
4- بحار الأنوار: 45 / 314.

ذامّاً» ((1)).

فمِن أيِّ المخلوقات كان أُولئك المردة العتاة، وأبناء البغايا الرخيصات، الّذين قاتلوه بغضاً لأبيه، وسبوا الفاطميّات، ولم يحفظوا النبيّ (صلي الله عليه و آله) في ذراريه؟!!

قال الإمام سيّد الساجدين (عليه السلام) : «.. أيّها الناس، أصبحنا مطرّدين مشرّدين شاسعين عن الأمصار، كأنّا أولاد ترك وكابل، مِن غير جُرمٍ اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين، (إِنْ هذا إلّا اخْتِلاقٌ). فوَالله لو أنّ النبيّ (صلي الله عليه و آله) تقدّم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوِصاية بنا لَما ازدادوا علي ما فعلوا بنا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، مِن مصيبةٍ ما أعظمها، وأوجعها، وأفجعها، وأكظّها، وأقطعها، وأمرّها، وأفدحها، فعند الله نحتسبه فيما أصابنا وما بلغنا، إنّه عزيزٌ ذو انتقام» ((2)).

ولكنّ الله لهم بالمرصاد، فإنّ دمه الزاكي الّذي سكن في الخُلد، واقشعرّت له أظلّة العرش، وبكي له جميع الخلائق، وبكت له السماوات السبع، والأرضون السبع، وما فيهن، وما بينهنّ، ومَن يتقلّب في الجنّة والنار مِن خلقِ ربّنا، وما يُري وما لا يُري، سوف لا ولم ولن يسكن، لأنّه قتيل الله وابنُ قتيله، وثارُ الله وابنُ ثاره، ووِترُ الله الموتور في السماوات والأرض ((3))، حتّي «يبعث الله قائماً، يفرّج عنها الهمّ والكربات».

1- مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب: 9 / 47، بحار الأنوار: 43 / 281 باب 12.

2- بحار الأنوار: 45 / 147.

3- أُنظر: بحار الأنوار: 98 / 151 باب 18.

قال الحسين (عليه السلام) : «يا ولدي يا علي، والله لا يسكن دمي حتّي يبعث الله المهدي» ((1)).

فذلك قائم آل محمّد (عجل الله تعالي فرجه الشريف) يخرج، فيقتل بدم الحسين بن علي (عليهما السلام) .. «وإذا قام _ قائمنا _ انتقم لله ولرسوله ولنا أجمعين» ((2)).

وقد بشّر بذلك رسول ربّ العالمين (صلي الله عليه و آله) ، فقال: «لمّا أُسري بي إلي السماء أوحي إليّ ربّي (جلّ جلاله) فقال: يا محمّد، إنّي اطلعت علي الأرض اطلاعة فاخترتُك منها، فجعلتك نبيّاً، وشققتُ لك من اسمي اسماً، فأنا المحمود وأنت محمّد، ثمّ اطلعت الثانية فاخترتُ منها عليّاً،وجعلتُه وصيّك وخليفتك، وزوج ابنتك، وأبا ذريّتك، وشققتُ له اسماً من أسمائي، فأنا العليّ الأعلي وهو علي، وخلقت فاطمة والحسن والحسين من نوركما، ثمّ عرضت ولايتهم علي الملائكة، فمَن قَبِلها كان عندي من المقرَّبين.

يا محمّد، لو أنّ عبداً عبدني حتّي ينقطع، ويصير كالشنّ البالي، ثمّ أتاني جاحداً لولايتهم، فما أسكنتُه جنّتي، ولا أظللته تحت عرشي.

يا محمد، تحبّ أن تراهم؟

قلت: نعم يا ربّ.

فقال (عزّ وجلّ): إرفَعْ رأسك. فرفعتُ رأسي، وإذا أنا بأنوار علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، وعليّ بن الحسين، ومحمّد بن علي، وجعفر ابن محمّد، وموسي بن جعفر، وعليّ بن موسي، ومحمّد بن علي، وعليّ بن محمّد، والحسن

1- مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب: 10 / 134.
2- بحار الأنوار: 52 / 376.

ابن علي، و(م ح م د) بن الحسن القائم في وسطهم كأنّه كوكبٌ درّي.

قلت: يا ربّ، ومَن هؤلاء؟

قال: هؤلاء الأئمة، وهذا القائم الذي يحلّل حلالي، ويحرّم حرامي، وبه أنتقم من أعدائي، وهو راحةٌ لأوليائي، وهو الذي يشفي قلوب شيعتك من الظالمين والجاحدين والكافرين، فيُخرِج اللّات والعُزّي طريّين فيحرقهما، فلَفِتنَةُ الناس _ يومئذٍ _ بهما أشدّ من فتنة العجل والسامري» ((1)).وروي عبد الله بن سنان قال: دخلتُ علي سيّدي أبي عبد الله جعفر ابن محمّدٍ (عليهما السلام) في يوم عاشوراء، فألفيتُه كاسفَ اللّون، ظاهر الحزن، ودموعه تنحدر من عينيه كاللؤلؤ المتساقط، فقلت: يا ابن رسول الله، ممّ بكاؤك؟ لا أبكي الله عينيك.

فقال لي: «أوَ في غفلةٍ أنت؟! أما علمتَ أنّ الحسين بن علي أُصيبَ في مثل هذا اليوم؟!».

فقلت: يا سيّدي، فما قولك في صومه؟

فقال لي: «صُمْه من غير تبييت، وأفطره من غير تشميت، ولا تجعله يوم صوم كملاً، وليكن إفطارك بعد صلاة العصر بساعة علي شربة من ماء، فإنّه في مثل ذلك الوقت من ذلك اليوم تجلّت الهيجاء عن آل رسول الله، وانكشفت الملحمة عنهم، وفي الأرض منهم ثلاثون صريعاً في مواليهم، يعزّ علي رسول الله (صلي الله عليه و آله) مصرعهم، ولو كان في الدنيا _ يومئذٍ _ حيّاً لكان (صلي الله عليه و آله) هو المعزّي بهم».

1- كمال الدين: 1 / 252 باب 23 ح 2، بحار الأنوار: 52 / 379 ح 185.

قال: وبكي أبو عبد الله (عليه السلام) حتّي اخضلّت لحيته بدموعه..

ثمّ علّمه آداب يوم عاشوراء، وآداب الزيارة في ذلك اليوم، إلي أن قال: ثمّ قل:

«اللّهم عذّب الفجرة الذين شاقّوا رسولك، وحاربوا أولياءك، وعبدوا غيرك، واستحلّوا محارمك، والعن القادة والأتباع، ومن كان منهم فخب وأوضع معهم أو رضي بفعلهم، لعناً كثيراً.اللّهم وعجّل فرج آل محمّد (صلي الله عليه و آله) ، واجعل صلواتك عليه وعليهم، واستنقذهم من أيدي المنافقين المضلّين، والكفرة الجاحدين، وافتح لهم فتحاً يسيراً، وأتح لهم روحاً وفرجاً قريباً، واجعل لهم من لدنك علي عدوّك وعدوّهم سلطاناً نصيراً..

اللّهم إنّ كثيراً من الأمّة ناصبت المستحفظين من الأئمّة، وكفرت بالكلمة، وعكفت علي القادة الظلمة، وهجرت الكتاب والسنّة، وعدلت عن الحبلين اللّذَين أمرتَ بطاعتهما والتمسّكِ بهما، فأماتت الحقّ، وجارت عن القصد، ومالأت الأحزاب، وحرّفت الكتاب، وكفرت بالحقّ لمّا جاءها، وتمسّكت بالباطل لمّا اعترضها، وضيّعت حقّك، وأضلّت خلقك، وقتلت أولاد نبيّك، وخيرةَ عبادك، وحمَلَةَ علمك، وورثة حكمتك ووحيك.

اللّهم فزلزل أقدام أعدائك، وأعداء رسولك، وأهل بيت رسولك.

اللّهم وأخرب ديارهم، وافلل سلاحهم، وخالف بين كلمتهم، وفتّ في أعضادهم، وأوهن كيدهم، واضربهم بسيفك القاطع، وارمهم بحجرك الدامغ، وطمّهم بالبلاء طمّاً، وقمّهم بالعذاب قمّاً، وعذّبهم عذاباً نكراً، وخذهم بالسنين والمثلات التي أهلكتَ بها أعداءك، إنّك ذو نقمةٍ من

المجرمين.

اللّهم إنّ سنّتك ضائعة، وأحكامك معطّلة، وعترة نبيك في الأرض هائمة، اللّهم فأعن الحقّ وأهله، واقمع الباطل وأهله، ومُنّ علينا بالنجاة، واهدنا إلي الإيمان، وعجّل فرجنا، وانظمه بفرج أوليائك، واجعلهم لناودّاً، واجعلنا لهم وفداً» ((1)).

والصلاة والسلام علي أصحاب الحسين (عليهم السلام) الّذين كشف لهم سيّد الشهداء (عليه السلام) «الغطاء، حتّي رأوا منازلهم من الجنّة، فكان الرجل منهم يقدم علي القتل ليبادر إلي حوراء يعانقها، وإلي مكانه من الجنّة» ((2))، ووعدهم ربُّ العزّة أن يعيد لهم الكرّة علي أعدائهم، فقال: (ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ)، يخاطب بذلك أصحاب الحسين ((3)).

اللّهم صلّ علي محمّد وآل محمّد، وتوفّنا علي الإيمان بك والتصديق برسولك والولاية لعليّ بن أبي طالب (صلوات الله عليه) والأئمّةِ من وُلده والبراءة من أعدائهم.. ((4)).

1- مصباح المتهجّد: 784، بحار الأنوار: 98 / 305 باب 24.
2- علل الشرائع: 1 / 229 باب 163 ح 1، بحار الأنوار: 44 / 297 باب 35 ح 1.
3- تأويل الآيات الظاهرة: 272.
4- أُنظر: المزار لابن المشهدي: 177، بحار الأنوار للمجلسيّ: 97 / 428، زيارة المولي مسلم بن عقيل (عليهما السلام) .

المقدّمة

اشارة

الحمد للّه ربّ العالمين، والصلاة والسلام علي محمّدٍ وآله الطاهرين، واللعن الدائم علي أعدائهم أجمعين.

أمّا بعد..

هـذه مجموعة (المجالس) الّتي قُرئت في العامين 1435 و 1436 هجريّة في العشـرة الثانية والثالثة من شهر محرّم الحرام، في بيت أخوَين حبيبين عزيزين، هما الحاج مصطفي إبراهيم السليمان والحاج حسين حميد الخزاعي.

وإنّي وإن لم أكن خطيباً بالمعني الاصـطلاحيّ للكلمة، فإنّي أسـعي بجدٍّ أن أحشـر نفسي ـ «متطفّلاً »ـ علي المنبر بالمقدار الّذي تصدق علَيّ كلمـة النـاعي، فلعلّي أقوم يوم يقوم النـاس لربّ العـالمين وينادي المنادي: أين النعاة علي حبيب الله وحبيب رسوله وحبيب الزهراء؟ فأقوم مع مَن يقوم، فتشملني الوعود الّتي وردت في الأحاديث الصحيحة الصريحة المتظافرة في «مَن بكي، ومَن أبكي»..

فطرحتُ هـذا البحث كموضوعٍ للمنـبر، من دون ملاحظـةٍ لِمـا يحتـاجه البحث من مقـدّماتٍ أساسـيّةٍ وأفكـارٍ تحتـاج إلي بيـانٍ وتوضـيحٍ واستدلال، معتمّداً في ذلك علي الحضور المحصور وعلي التعليقات

والاسترسال بعد المنبر مع الحاضرين.

ثمّ طلب منّي بعضُ إخواني أن أطبع البحث ـ ولو علي شكل مسودّة ـ ليناقشه ذوو الاختصاص، فتردّدتُ كثيراً، ثمّ استخرت الله وعزمت علي الاستجابة.

والبحث أساساً يعتمد علي نظرةٍ جديدة، أو ما يُعبَّر عنها بالمفردات العصريّة: «قراءة» لقيام سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وهي تحتاج إلي بيانٍ طويلٍ عريضٍ مفصَّل، يستدرج ذهن القارئ إلي النتائج، بَيْد أنّ ازدحام الأفكار وتشتّت البال وصعوبة الظروف وسعة المشروع الّتي لا تسعها طاقة الفرد الواحد كلّها عوامل كانت تمنعني من الإقدام.

وما أتمنّاه علي القارئ الكريم أن يتفضّل علَيّ ويتكرّم، فيشملني بلطفه وصبره وتحمّله، ويلتفت إلي التنويهات التالية:

الأول: القراءة بمعزلٍ عن السوابق

أن يقرأ البحث مع إغفال جميع السوابق الذهنيّة العالقة في أعماقه منذ أن نشأ وهو يقرأ عن قيام سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فإنّ البحث فيه ظرافةٌ وتدقيقٌ أحياناً، وهو مُبتنٍ علي الاستدلال التاريخيّ، مع التسليم بالعامل الغيبيّ والدوافع الغيبيّة، والتسليم بعصمة سيّد الشهداء وإمامته، وأنّه الناطق عن الله المفترض الطاعة، والتسليم بما تؤدّي إليه الاعتقادات الحقّة الضروريّة، والتسليم لنتائج الاعتقاد بالعامل الغيبيّ، غاية ما فيالأمر أنّ البحث يُحاول أن يُثبت أنّ الدراسة التاريخيّة بالقراءة المتأنّية تؤدّي إلي نفس مؤدّي التفسير بالعامل الغيبيّ للقيام الحسيني.

فلْيتفضّل القارئ بانتزاع السوابق الذهنيّة والمسلّمات غير الاعتقاديّة، إلي حين ينتهي من قراءة هذه الوُريقات.

الثاني: اجتناب العجَلة

من الضـروريّ أن لا يستعجل القارئ الكريم بإصدار الحكم علي ما يقرأ حتّي ينتهي من الكتاب، فإنّ أصل البحث طُرح بعنوان مجالس في أيّام محرّم الحرام، فربّما تأخّر فيه بحثٌ كان يقتضـي التأليفُ تقديمه أو تقدّم ما يقتضـي تأخيره، أو تداخلت فيه بعض الأفكار حيناً وتفكّكت حينـاً آخر، وكيف كان فإنّ إتمام الكتاب قـد يولّـد صورةً أقرب إلي ما نريـد التنويه إليه، فقـد اسـتعجلنا في كتابته، فلْيكن تأنّي القارئ جابراً لعجلتنا.

الثالث: ليس هذا كلّ البحث

إنّنا لم نسـتوفِ البحث برُمّته في هذه الأوراق، وإنّما استعرضـنا جانباً واحداً وتناولنا فترةً وجيزةً لا تتعدّي الأيّام الثلاثة أو الأربعة علي الأكثر من الأيّام التي سـبقَت خروجَ سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة، والبحث طويلٌ والاستدلال عليه يستمرّ إلي ما بعد الشهادة، ويحتاج إلي استدلال بما قبل الخروج من المدينة أيضاً.

وعليه، فإنّ أصل البحث وإثبات أصل الفكرة الّتي تتلخّص بكلمة «إنّقيام الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) كان كلّه من أوله إلي آخره دفاعاً محضاً مقابل هجوم العدوّ وعزمه وإقدامه علي قتله، كما قُتل جدُّه وأُمّه وأبوه وأخوه وأولاده المعصومين (عليهم السـلام) »، وهذا ما يتطلّب دراسةً كاملةً

شاملة، وإثباتاتٍ قويّةً متوفّرةً في التاريخ بكثرة حسب فحصنا، وسوف نتابعها ـ إن شاء الله تعالي ـ إن بقيَ في العُمر بقيّة.

الرابع: توثيقات الكتاب

إلتزمنا أن لا نذكر متناً إلّا أنّ يلحقه التوثيق وذكر المصادر، وربّما كرّرنا ذكر المصادر تحت كلّ فقرةٍ كلّما اقتضت الضرورة ذكرها والاستشهاد بها، واعتمدنا المصادر التاريخيّة القديمة، واعتمدنا في تخريجها وتوثيقها علي موسوعة الإمام الحسين (عليه السلام) (تاريخ إمام حسين (عليه السلام)) الموقّقة، مع مراجعة النصوص في المتون والكتب الأصليّة في الغالب.

فالرجاء أن يتفضّل القارئ بملاحظة ذلك، إذ أنّ توثيق البحث يساعد علي تسهيل القبول والاقتناع به.

الخامس: هدف البحث

كلّ ما جاء في هذا البحث إنّما هو دراسةٌ وقراءةٌ للأحداث التاريخيّة، ومحاولةٌ لفهم قيام سيّد الشهداء (عليه السلام) وأسراره وفق نصوص التاريخ، وقد أشرنا في مواضع ـ منها مقدّمة ترجمة رسالة العلّامة المجلسي (رحمة الله) فيبيان حكمة قيام سيّد الشهداء (عليه السلام) ـ إلي النظريّات الّتي حاولَت تفسير قيام الإمام المظلوم (عليه السلام) ، فلا نعيد هنا، ولعلّنا نُوفَّق لتناولها بشكل مفصّل..

فالغرض لا يعدو كونه بحثاً لفهم وتفسير القيام المقدّس وفق نظرةٍ خاصّة، منتزعة في الإساس من الأحاديث الشريفة والنصوص المقدّسة، بَيد أنّها تحاول هنا الوصول إلي نفس النتائج من خلال

المتون التاريخيّة ليس إلّا، وبالتالي سيعرف المؤمن الحسينيّ مظلوميّة إمامه ومظلوميّة أهل البيت، ويعرف قدر دمعته وبكائه وتوجّعه لِما نزل بهم، ويُدرك شيئاً من شهقة سيّدة النساء فاطمة الّتي لا تفتر في كلّ يومٍ ودمعتها الّتي لا ترقأ أبداً، والله من وراء القصد.

السادس: إضافة بعض المطالب

توجد بعض المطالب لم تكن ضمن مواضيع المجالس الّتي تُليَت في شهر محرّم الحرام، وإنّما أُضيفَت بعد أنّ أُعدّ البحث ككتاب، من قبيل: «تعريف الثورة» في البداية، و«موقف المولي محمّد ابن الحنفيّة مع يزيد إلي آخر الخاتمة» في النهاية.

وربّما استخدمنا لفظ (القيام) في ثنايا البحث، ونقصد به (القيام بأمر الله)، فإنّ الإمام قائمٌ بأمر الله تعالي في كلّ حالاته وحركاته وسكناته، وكلّ واحدٍ من الأئمّة هو قائمٌ بأمر الله، وهم جميعاً القوّامون بأمره.

*****لقد تحرّينا الاحتياط، وتقدّمنا في البحث خطوةً خطوة، كمن يمشي في منطقةٍ ملغومةٍ مظلمة، وقصدنا خدمة أهل البيت (عليهم السلام) ، وعزمنا الدفاع عن حريمهم وقداستهم وكلِّ ما يُنسَب إليهم، فإذا وقعنا بين خيارين: خيار التزام قداسة التاريخ والمؤرّخ، وخيار التزام قداسة الأولياء والأصفياء، فإنّنا اخترنا الخيار الثاني، طلباً لرضي الله ورسوله والأئمّة المعصومين (عليهم السلام) ..

فإن وُفّقنا في ذلك فهو فضلهم ومَنّهم وفيضهم وبركاتهم، وإلّا

فنستغفر الله، ونسأله أن يُعطينا أجر مَن أحسن عملاً، إنّه عفوٌّ جوادٌ كريم، وهو نِعم المولي ونعم النصير.

ونرجو من الله السميع العليم أن يتقبّل منّا هذا القليل، وينفعنا به ووالدينا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنونٌ ولا خليل، ولا يحرمنا وأزواجنا وذرّياتنا خدمة زَين السماوات والأرضين سيّد الشهداء الحسين (عليه السلام) في الدنيا والآخرة، ويحشرنا في مماليك مولانا الغريب وعبيده المرضيّين، ويجعل عملنا وحبّنا واعتقادنا فيما يُرضيه ويُرضي النبيَّ الأمين (صلي الله عليه و آله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) وذرّيّته الطاهرين المعصومين (عليهم السلام) ، بحقّ مولانا مُهيّج أحزان يوم الطفوف وأُخته الطيّبة فاطمة المعصومة (عليها السلام) .

اللّهمّ اغفر لنا ولوالدينا ولأزواجنا وذرّيّاتنا و إخواننا المؤمنين، وعجّل فرج وليّ أمرنا، الطالب بدم الإمام المظلوم غريب الغرباء (عليه السلام) ، آمين ربّ العالمين.السيّد علي السيّد جمال أشرف الحسيني

قم المقدّسة

12 / شعبان المعظّم / 1437 هـ

ص: 18

مقدّمات ضروريّة

اشارة

لقيام سيّد الشهداء (عليه السلام) تاريخٌ طويل، وطويلٌ جدّاً قبل خروجه من المدينة المنوّرة، وربّما لا يبالغ الإنسان إذا قال: إنّ تاريخ ما قبل القيام يمتدّ بامتداد التاريخ صعوداً إلي بداية الخِلقة وهبوط آدم (عليه السلام) إلي الأرض، وانطلاقِ التاريخ البشريّ منذ أن قتل قابيلُ هابيل، بل قبل ذلك بكثير، إذ أنّ شواهده وأحداثه تمتدّ إلي عالم الذرّ، وتسبق عالم الذرّ إلي عالم الأنوار قبل أن يخلق الله الأرض ومَن عليها، يوم كان سيّد الشهداء (عليه السلام) نوراً خلقه الله مع باقي الأنوار الخمسة قبل أن يخلق الخلق بآلاف السنين، فمنذ ذلك الحين وقبله بدأت آثار وأحداث ووقائع ومصائب الطفّ تتلي، وما سيجري في كربلاء يتجلّي، وسالت الدموع وانحدرت، وارتفع البكاء يهزّ الأرجاء قبل أن تُخلَق الأرض والسماء..

ونحن لسنا بصدد الخوض في هذا الموضوع الآن، فلا ضرورة لذكر أدلّته وشواهده، وهو من الضروريّات الواضحة لكلّ مَن جاس خلال ديار كلام الأنبياء والأوصياء والمعصومين، وما وصلنا منهم عن الله ربّ العالمين.

ولمّا كان الباحث والمتابع لا يستغني عن الملاحظة الخارجيّة والوقائع الّتي جرت علي الأرض وسجّلها التاريخ ضمن تسجيله لحركة البشريّة

ممّا شاهـده الراوي وأخبر به أو سـمعه المؤرّخ وحدّث به، ولاحق ما شاهدَته العيونُ وسـمعته الآذان وما وعته القلوب أحياناً، فدوّنه أو رواه فأسمعه من دوّنه أو نقله من صدره إلي الصدور..

وقد سجّل لنا التاريخ انطلاقة سيّد الشهداء (عليه السلام) من مدينة الرسول (صلي الله عليه و آله) إلي مكّة، ثمّ إلي كربلاء، حيث أرض المصرع الموعودة منذ أن خلق الله سيّد الشهداء (عليه السلام) وتباهي بخلقه.. فتبارك الله أحسن الخالقين!

فلا يمكن للمتابع والباحث أن يسبر أغوار القيام الحسيني، ويتعقّب مجرياته ويدركها، ويدرسها دراسةً وافيةً حسب ما آتاه الله من قدرات وفتح عليه من آيات ذلك القيام المقدّس، إلّا إذا توقّف طويلاً عند المنطلق، وتأمّل في دواعي التحرّك والأسباب الّتي أزعجت أفراخ الرسول وجعجعت ((1)) بهم في وطنهم ومستقرّهم ومسقط رؤوسهم فأخرجتهم..

وإلي أين كانت وجهتهم يوم خروجهم من المدينة؟ من المدينة! وهل كانت الوجهة معلنة ضمن مقتضيات مجريات الأحداث، أو أنّها كانت غير معلنة، بيد أنّها محدّدة لمن يهمّه الأمر، أو أنّها كانت غير معلومة إلّا للإمام نفسه وبعض مقرّبيه؟ أو ما شاكل من الاحتمالات الأُخري.وكيف كان، فإنّ خواتيم القيام وما يلازمه ويقتضيه من حركات لا تُدرَك إلّا بمعرفة البدايات والمنطلقات، ولا تتماسك قمم الجبال والبنيان إلّا علي السفوح والأُسس والدعائم والأركان.

1- جعجع: ضيّق عليهم المكان (انظر: النهاية: مادّة جعجع).

ولكي نستطلع الظروف، ينبغي أوّلاً تقديم بعض المقدّمات والتمهيد ببعض الممهّدات الضروريّة جدّاً، الّتي لا يتسنّي استخلاص أيّ نتيجةٍ ولا استلهام أيّ فهمٍ له علاقة بالقيام الحسينيّ إلّا إذا جُعلَت هذه الأُمور كمقدّماتٍ ضروريّة يعتمد عليها الارتكاز، وينطلق منها القلب والذهن والفهم، وإنّما نذكر هنا شيئاً منها علي عجل، ولاستقصائها موضعٌ آخَر:

المقدّمة الأُولي: علم الإمام (عليه السلام) بعاقبة القيام

اشارة

إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) كان عالماً بمآل خروجه من المدينة المنوّرة علي كلّ حال، وفي كلّ فرض، وهذا الأمر في غاية الأهمّيّة، وربما كان هو الأصل الأوّل الّذي ينبغي ملاحظته وأخذه بنظر الاعتبار في كلّ دراسةٍ جزئيّةٍ كانت أو كلّيّة، شاملةٍ كانت أو مقطعيّة؛ إذ لا يمكن افتراض ما لم يكن في الحسبان، ولا في المدي المنظور ولا غير المنظور، ولم يلحظ بتاتاً في القيام، لأيّ جهةٍ من جهات الحركة..

ونحن لا نريد الدخول في تفاصيل الموضوع عقائديّاً، ولا نريد التركيز علي البُعد الغيبيّ في القيام المقدّس، فإنّ لذلك موضعاً آخر..

بَيد أنّنا سنقتصر علي بيان هذه الحقيقة باختصار، باعتبار أنّها ربّمااتّضحت من خلال ما نعرفه من كلام المعصومين (عليهم السلام) سابقاً ولاحقاً.

ويمكن ملاحظة ذلك من خلال افتراض إحدي الحالات التالية، بعد الاعتذار من مقام سيّد الكائنات وحبيب الله وسيّد شباب أهل الجنّة، مليكنا الإمام الحسين (عليه السلام) ، إذ سنفترض بعض الفرضيّات لاستيعاب جميع الفروض :

ص: 21

الفرض الأوّل: علم الإمام (عليه السلام)

لقد ثبت من خلال أحاديث أهل البيت (عليهم السـلام) أنّ الإمام يعلم بما كان وما يكون وما هو كائنٌ بإذن الله وبفضـله ومَنّه علي الإمام (عليه السـلام) ، وعلي المخلوقـات طُرّاً الّتي تحتاج ذلك، فلا حاجـة لإثبات ذلك في هـذا الموضع، وإنّما نـذكره كأصل موضوع، وعقيـدةٍ مسلَّمة بديهيّة شبّ عليها الصغير وورثها الكبير..

فهو (عليه السلام) يري المستقبل كما يري الحاضر والماضي، وكما يري كفّ يده المقدّسة، ويخبر عن كلّ شيءٍ إذا شاء بأمر الله تعالي.

وقد أخبر سـيّد الشـهداء (عليه السلام) _ في مواطن عديدة ومواقف كثيرة _ تفاصيل ما سيجري عليهم في الطريق من المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمـة وطريق الفتح بالشـهادة إلي كربلاء، وما سـيجري فيها من مصائب وفجائع بجميع التفاصـيل والجزئيّات، ولا يخفي ذلك علي من تصفّح _ علي عجلٍ _ كتب التاريخ والحديث.

الفرض الثاني: من خلال الإخبار الغيبيّ

لقـد تظافرت الإخبارات الغيبيّـة في بيان مجريات الأحـداث مفصّـلةً بكلّ الأبعاد والجزئيّات، عن سـيّد المرسـلين (صـلي الله عليه و آله) محمّدٍ المصـطفي، وسـيّد الوصـيّين عليٍّ المرتضـي، وسـيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، وسـيّد شـباب أهل الجنّة السبط الأكبر الحسن المجتبي، وسيّد شباب أهل الجنّة خامس أصحاب الكساء (عليهم السلام) .. وغيرها من الإخبارات الّتي

ملأت الكتب والأسفار من لدن آدم (عليه السلام) إلي النبيّ الخاتم (صلي الله عليه و آله) ، وقد أخبر بها الكهنة وأصحاب الكتب، وفي إخبار النبيّ (صلي الله عليه و آله) الأمين المتكثّر المتكرّر كفاية.

وقد تظافرت جميع طوائف الأُمّة علي روايتها، فولّدت تواتراً معنويّاً لا يشكّ فيه مُكابر.

وهنا نعتذر من ساحة قدس مولانا ومليكنا سيّد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) ، لنفرض فرضاً لا يسع الخيال افتراضه لولا ضرورة البحث!

فلو أغمضنا النظر عن إمامة سيّد الشهداء (عليه السلام) _ وهو فرضٌ لا يكون حتّي من باب (فرض المحال ليس محالاً) _ وأغمضنا النظر عن كونه ابن رسول الله (صلي الله عليه و آله) وابن أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي ظلّله بالكساء وعاش معهم في نفس البيت، ولو فرضناه كواحدٍ من المسلمين _ فرضاً أبعد من المحال، ونعوذ بالله من هذا الفرض ومن الفرض الّذي سبقه _، فإنّه ومَن معه من أهل بيته قد سمعوا هذه الأخبار المتداولة المشهورةالمعروفة عند جميع المسلمين، برّهم وفاجرهم..

وقد أخبر النبيّ (صلي الله عليه و آله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) بتفاصيل الواقعة وجزئيّات المصائب الّتي ستشهدها أرض كربلاء، ولا يخفي ذلك علي مَن راجع التاريخ والحديث.

الفرض الثالث: مُجريات الأحداث ووضوحها للجميع

لقد سمعنا في التاريخ أنّ مجريات الأحداث كانت تدلّ بوضوحٍ أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) مقتولٌ لا محالة، ولا نريد هنا إطالة الكلام، ونكتفي

بالقول أنّ مثل عبـد الله بن عمر وعبـد الله بن عبّاس والفرزدق الشاعر وعبد الله بن مطيع وغيرهـم من الناس قد علموا وعرفوا أنّ أهل الكوفة مَردوا علي النفاق والخيانة والغدر بالطيّبين، وتعلّقوا بأغصان الشـجرة الملعونة، وقطعوا أغصان شـجرة طوبي، وقتلوا أمير المؤمنين والحسـن المجتبي الأمين (عليهما السلام) ، ولم يلحظ ذلك سيّد الشهداء (عليه السلام) ؟! إنّ هذا لهو البهتان العظيم!

وبناءً علي هذا المختصـر المضـغوط الّذي لا يحتاج إلي كثير بيانٍ واستدلالٍ وإثبات؛ لبداهته ووضوحه، فإنّ أيّ فهمٍ للقيام الحسينيّ ينبغي أن يكون ضمن هذه المعلومة القطعيّة الجزميّة المسلَّمة الّتي لا يمكن الحياد عنها وتجاهلها أو الالتفاف عليها.

المقدّمة الثانية: صفات المعصومين (عليهم السلام) وتكاليفهم الربّانيّة

وردت صفاتٌ لسيّد الشهداء (عليه السلام) في أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) توصيفاً في الأحاديث الشريفة أو في الزيارات المقدّسة المنصوصة مـن المعصـومين وأئمّـة الـدين (عليهـم السـلام) ، وفهمهـا الـكثيرون وإن لـم يصـرّحوا بـذلك، ولكنّهـا واضـحةٌ من خلالـ استخلاصاتهم واستنتاجاتهم وتعبيراتهم عن أهداف ونتائج وآثار القيام الحسينيّ، أو ما يسمّونه ب- «ثورة الحسين (عليه السلام) »!

وهذه الصـفات ثابتةٌ لسيّد الشهداء (عليه السلام) بلا ريب ولا أدني ترديد، بيد أنّها ليست خاصّة به، وإنّما هي عامّة شاملة تنتشر علي جميع المعصومين الأربعة عشـر (عليهم السـلام) بلا اسـتثناء، وهي سواءٌ وردت في زياراتهم أو لم ترد، فإنّ الأحاديث الشـريفة قد أبانت الحقيقة فيهم، فلا ينبغي

التوقّف في الاعتقاد بشمولها للأئمّة المعصومين (عليهم السلام) جميعاً بلا استثناء.

وهذا لا يعني أن لا نقول بوجود خصوصيّاتٍ خاصّةٍ بسيّد الشهداء (عليه السلام) من بين المعصومين (عليهم السلام)، كما لا يُنكَر وجود خصوصيّاتٍ لكلّ واحدٍ منهم سوي الإمام الحسين (عليه السلام) ..

فما ورد في سيّد الشهداء (عليه السلام) من إقامة الدِّين، وإحياء شريعة سيّد المرسلين، وحفظ الدين وحفظ الشريعة، وإبقاء الدين المحمّديّ الخالص، وتخليد الإسلام وإبقائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وما شابه ذلك.. فإنّه جارٍ في كلّ فردٍ فردٍ من الأئمّة المعصومين (عليهم السلام)؛ لأنّ الدين وحفظه _ في واقع الأمر _ قائمٌ أساساً بوجود شخص المعصوم، محفوظٌ بحفظه، وهو الوجود المقدّس الّذي بوجوده لا تسيخ الأرض بأهلها ولا يتهرّأ نظام الكون ولا ينفرط..

فالدين كان قبل سيّد الشهداء (عليه السلام) قائماً بالنبيّ وأمير المؤمنين والإمام الحسن الأمين (عليهم السلام)، وبقيَ بعد سيّد الشهداء (عليه السلام) قائماً في وَلده زين العابدين وسيّد الساجدين (عليه السلام)، وهو أسيرٌ مكبَّلٌ مصفَّدٌ محمولٌ إلي القرد الخليع المجدور، وبقيَ بعده بولديه الباقر والصادق (عليهما السلام)، وهكذا إلي يومنا هذا، فإنّ الدين باقٍ ببقاء صاحب الأمر والزمان وليّ دم الحسين (عليه السلام) ..

فإنّ كلّ واحدٍ من الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) يصدق عليه تماماً أنّه:

«الفائز بكرامتك، أكرمتَه بكتابك، وخصصته وائتمنته علي وحيك، وأعطيته مواريث الأنبياء، وجعلته حجّةً علي خلقك

من الأصـفياء _ فأعذر في الدعاء وبذل مهجته فيك _ ليسـتنقذ عبادك من الضـلالة والجهالة والعمي والشكّ والارتياب إلي باب الهُدي من الردي» ((1))..

ويصدق تماماً قولك:

«اللّهمّ إنّي أشـهد أنّه وليُّك وابن وليّك، وصـفيُّك وابنصـفيّك، الفائز بكرامتك، أكرمتَه بالشـهادة، وحبوته بالسـعادة، واجتبيته بطيب الولادة، وجعلته سـيّداً من السادة، وقائداً من القادة، وذائداً من الذادة، وأعطيتَه مواريث الأنبياء، وجعلته حُجّةً علي خلقك من الأوصـياء _ فأعذر في الدعاء ومنح النصح (النصحية) وبذل مهجته فيك _ ليستنقذ عبادك من الجهالة وحَيرة الضلالة» ((2))..

وهـل ثمّـة مَن يزعم أنّ أحـد الأئمّـة المعصومين (عليهم السـلام) ليس كـذلك _ والعيـاذ بالله _؟ سـيّما إذا لاحظنا أنّ اسـتنقاذ العباد في الزيارتين متمّمٌ ومتعلّقٌ بجعله حجّةً من الحجج الأصـفياء والأوصياء، أي: جعلتَه حجّةً ليستنقذ عبادك.. فالاستنقاذ إنّما يكون بجعله حجّة، فبعـد أن يجعله الله حجّـةً للعباد ليسـتنقذهم يعـذر الإمام في الـدعاء ويمنح النصـيحة ويبذل مهجته في الله خاصّة، لا في العباد، ولا من أجلهم، ولا لهم.. «فيك»!

ويؤيّد هذا المضمون ما ورد في زيارة الجامعة عامّة، وخصوصاً في

1- أُنظر: كامل الزيارات لابن قولويه: 228 ح 17.

2- التهذيب للطوسي: 6/113 ح 17 زيارة الأربعين.

قوله (عليه السلام) :

«وبذلتُم أنفسَكم في مرضاته، وصبرتم علي ما أصابكم في جنبه، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم في الله حقّ جهاده، حتّي أعلنتم دعوته، وبيّنتم فرائضه، وأقمتم حدوده، ونشرتم شرائع أحكامه،وسننتم سنّته، وصرتم في ذلك منه إلي الرضي، وسلّمتم له القضاء، وصدّقتم من رسله من مضي» ((1)).

فجميعهم قد بذل نفسه ومهجته في الله، ليستنقذ العباد من الضلالة وحيرة الجهالة..

وقد ورد في زيارة النبيّ (صلي الله عليه و آله) :

«واستأصلتَ الكفر، وهدمت الشرك، ومحقت الضلالة، ونفيت الجهالة، وكشف الله عنهم بك البلاء، وردّ عن ديارهم بك الأعداء، ورفع من بينهم العداوة والبغضاء، وألّف بين قلوبهم، وأعاد الرحمة إلي صدورهم، وفتح الله عليهم أبواب النعم، وألبسهم حُلل العزّ والكرم» ((2)).

وورد في وصف النبيّ (صلي الله عليه و آله) علي لسان صنوه وشقيقه أمير المؤمنين (عليه السلام) :

«فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة» ((3)).

1- عيون أخبار الرضا (عليه السلام) للصدوق: 2 / 274.
2- المزار لابن المشهدي: 65 زيارة رسول الله (صلي الله عليه و آله) (صلي الله عليه و آله) .
3- نهج البلاغة: 44.

وقال (عليه السلام) :

«فقد أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة والجهالة الغالبة» ((1)).

وقال (عليه السلام) :

«وأنّ محمّداً عبدُه ورسوله، بعثه بالحقّ نبيّاً، دالّاً عليه وهادياًإليه، فهدي به من الضـلالة، واسـتنقذنا به من الجهالة، من يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ونال ثواباً جزيلاً، ومن يعصِ الله ورسوله فقد خسر خسراناً مبيناً» ((2)).

وورد في وصف القرآن الكريم:

«وجعلتَه نوراً نهتدي من ظلم الضلالة والجهالة باتّباعه» ((3)).

وورد في وصف الإمام الجواد محمّد بن علي الرضا (عليه السلام) في الصلوات المرويّة:

«فكما هديتَ به من الضلالة، واستنقذتَ به من الجهالة» ((4)).

وكذا يلاحظ في الصلاة علي باقي الأئمّة (عليهم السلام) ..

وورد في زيارة الصاحب (عجل الله تعالي فرجه الشريف) :

«فافعل ذلك بي وبجميع المؤمنين، حتّي ننظر إلي وليّك

1- نهج البلاغة: 210 خ 151.
2- الكافي: 1 / 142 ح 70 من خطبةٍ لأمير المؤمنين (عليه السلام) .
3- الصحيفة السجّادية: 176 دعاء 46 عند ختم القرآن.
4- جمال الأُسبوع لابن طاووس: 491 الصلاة علي الإمام الجواد (عليه السلام) .

صلوات الله عليه، ظاهر المقالة، واضح الدلالة، هادياً من الضلالة، شافياً من الجهالة» ((1)).

فهذه الصفات وغيرها ممّا جعلها في أوليائه الّذين اختارهم أئمّةً لعباده جميعها تجري فيهم، ويمكن لمن أراد الزيادة أن يراجع الأحاديث والزيارات، ليعلم أنّ كلّ واحدٍ من الأئمّة (عليهم السلام) قد أعذر بالدعاء والنصيحة، وحفظ الدين، وأقام شريعة سيّد المرسلين، وبذلمهجته في الله لاستنقاذ العباد، من النبيّ الخاتم (صلي الله عليه و آله) إلي الوليّ الخاتم (عليه السلام) .. نعم، قد يتميّز بعضُهم عن بعضٍ في بعض الخصائص الّتي شاءها الله له، وذلك بحثٌ آخر ليس هذا موضعه.

وبكلمة: فإنّ استنقاذ العباد إنّما يكون بالحجّة المنصوب من الله، لا بنوع القتلة الّتي يُقتَل بها الحجّة، وسيّد الشهداء (عليه السلام) كان مستنقذاً للعباد، سواءً قُتل في كربلاء بتلك القتلة مع أهل بيته وأصحابه أم لم يُقتَل، لأنّ الاستنقاذ يكون بشخصه لا بصفة قتله.

بل تتمّ به الحجّة ويتحقّق الاستنقاذ سواءً قام أو قعد، وسواءً قُتِل أو مات علي فراشه، بغضّ النظر عن اعتقادنا أنّ «ما منهم إلّا مقتولٌ أو مسموم»، فإنّ الحجّة المنصوب من الله لا يُشترَط فيه نوع الميتة، فإنّ الإمام الحسين سيّد الشهداء إمامٌ منصوبٌ من الله، سواءً قُتِل أو لم يُقتَل، وسواءً خرج إلي العراق أم لم يخرج، ولو عمّر الإمام الحسين مئات السنين في أرغد عيشٍ وفي مكانٍ أمينٍ ولم يُقتَل أبداً لا مسموماً ولا

1- كمال الدين للصدوق: 2 / 512 ح 43.

مذبوحاً، لَكان هو الإمام الحسين المفروض الطاعة من الله، وبه يقوم الدين وتقوم الدنيا بإذن ربّ العالمين.

فالإمام إمام، قام أو قعد، كان في السجن أو خارجه، قُتِل بالسيف أو مسموماً، كان مصفَّداً بالحديد علي أقتاب المطيّات تصهره ومَن معه مِن آل رسول الله حرّ الهاجرات مُقاداً أسيراً إلي أرذل الخلق، أو كان حاكماً ظاهراً وسلطاناً مبسوط اليد، لا أثر لهذه الأُمور ولا مدخليّة لها بحالٍ فيكونه إماماً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مقيماً لحدود الله مبيِّناً لأحكامه مفسِّراً لقرآنه مطبّقاً لشرائعه، وغيرها من الأُمور الّتي نعتقدها في الإمام ونقرؤها في الزيارات ونشهد بها لله في جميع المواطن والمواضع والمواقع.

فيكون قوله حينئذٍ: «فأعذر في الدعاء، وبذل مهجته فيك»، جملةً اعتراضيّة، ويكون الاستنقاذ بجعل الحجّة علي الخلق من الأصفياء.

وهذه المقدّمة في غاية الأهمّيّة في فهم القيام المقدّس، كما سيتّضح من خلال البحث إن شاء الله.

المقدّمة الثالثة: تعريف الثورة

اشارة

لا شكّ أنّ مصطلح (الثورة) يُعدّ مصطلحاً محدثاً بما يحمله من معنيً انفعاليّ وسياسيّ واجتماعي، بالرغم من أنّ معناه كان منذ أقدم العصور، وكانت محاولات الفلاسفة والمؤرّخين حثيثةٌ لتقديم تعريفٍ لهذا المصطلح وبيان أبعاده وأمثلته ونماذجه، وتفسير ما يمكن أن ينطبق عليه من حالاتٍ ضمن المفاهيم المتصوّرة أو المقرّرة.

وربّما يلاحَظ أنّ أرسطو رسم صورةً للمجتمع ونظام الحكم، وما يمكن أن يقع بينهما من أنواع الصراعات والنزاعات الّتي تؤدّي إلي تغييراتٍ كلّيّةٍ أو جزئيّةٍ في المجتمع أو النظام الاجتماعيّ أو الحكم أو نظام الحكم.فالثورة في التاريخ الرومانيّ القديم هي: الخصام الأهليّ الّذي سبّب الاضطراب في الدولة المدنيّة الإغريقيّة.

وهي عند أرسطو: التحوّل شبه الطبيعيّ في شكلٍ من أشكال الحكومة إلي شكلٍ آخَر.

وهو يري أنّ هناك عدّة عوامل لقيام الثورات، ويري أنّ أسباب قيام الثورة بصفةٍ عامّة يعود إلي الشعور بالرغبة في المساواة، أو الرغبة بعدم المساواة، ذلك الشعور الّذي يولّد آثاراً نفسيّةً كبيرةً، ويذكي الوعي عند البعض ممّا يدفعه إلي القيام بالثورة وتحريض الآخرين علي القيام بها.

ويقول: إنّ المذاهب والاتّجاهات السياسيّة المختلفة تعترف بحقوق الأفراد في المساواة، إلّا أنّ الواقع يوضّح أنّها عند التطبيق تحيد عن هذه المساواة. ويري أنّ الطبقة الأدني قد تثور في محاولةٍ للحصول علي مساواتها بالطبقة الأعلي، والطبقة الأعلي قد تثور إذا أحسّت بأنّها لم تعُد مميّزة، فتثور للمحافظة علي تفوّقها وتميّزها.

لذا فإنّ أرسطو يُرجع أسباب الثورات إلي عنصرٍ أساسيّ، وهو عدم الرضي والرغبة في المساواة الكلّيّة أو الجزئيّة، وقد اعتبر ذلك العلّة العامّة التي تهيّئ النفوس للثورة ((1)).

1- أُنظر: علم الاجتماع السياسيّ لمولود زايد الطبيب: 100، الفكر السياسيّ لحوريّة توفيق مجاهد: 101.

وعرّفها بوليبيوس (المؤرّخ اليونانيّ 118 _ 200 ق.م) أنّها: الدورةالمحـدّدة المتكرّرة الّتي تحكم الشؤون الإنسانيّة، لأنّها مدفوعةٌ دائماً نحو الحدود القصوي.

وقـد قرّر الكتّاب والمتخصّـصون بآداب الإغريق والرومان أنّ كلمة (الثورة) الّتي نسـتعملها لا تعني تماماً معني الكلمات الّتي اسـتخدمها المؤرّخون القدامي ((1)).

بيد أنّ هذا المصطلح بما يحمل من شحنات سياسيّة واجتماعيّة، يفهمها المخاطَب والمتكلّم اليوم ضمن التصوّرات المؤسَّسة في الأذهان، له معنيً يكاد يكون مفهوماً رغم الاختلاف الشديد في تفسـيره وتحديد أبعاده والمرادات منه، والمساحات الشاسعة أو الضيّقة من الحركات والتغيّرات الاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة، بل والعلميّة الّتي يمكن أن يحتويها هذا الاصطلاح.

ويلاحظ أنّ لفظ (الثورة) قد تداوله علماء التاريخ والاجتماع الغربيّين بشكلٍ واسع، وراحوا يقدّمون له التفسير، وأَوغلوا في البحث عن أبعاده وحيثيّاته وأسبابه ونتائجه بشكل مطّردٍ وحثيثٍ بعد الثورة الفرنسيّة، وازداد التركيز عليه بعد الثورة الروسيّة «البلشفيّة».

ثمّ جعلوا يستعملون المصطلح الّذي نحتوه علي غرار معطيات الثورة الفرنسيّة، وحاولوا تحديد معالمه علي أساس الثورة الروسيّة، وجعلوا

1- أُنظر: في الثورة لحنة ارندت: 28 ترجمة: عطا عبد الوهّاب.

يطبّقونه علي بعض الحركات الاجتماعيّة والسياسيّة في تاريخ أوربّا،فأطلقوا علي الحرب الأهليّة في إنجلترا الّتي سبقت الثورة الفرنسيّة لملاحظة النتائج الّتي أسفرت عنها من التغيير الاجتماعيّ والتغيّرات في نظام الحكم والنظم الحاكمة، وهكذا..

وكيف كان، فإنّ مصطلح (الثورة) محدَثٌ بما يتضمّنه من معنيً خاصّ، كما سنلاحظ من خلال ما ذكروه له من تعاريف علي اختلاف المذاهب والمشارب والاتّجاهات في تعريفه، انطلاقاً من الأيدلوجيّات والمتبنّيات الفكريّة والعقائديّة، والمعالجات التاريخيّة أو الميدانيّة لتتبّع العيّنات والشرائح والشواهد الخاضعة للدراسة.

ففسّر لفظ (الثورة) كلٌّ حسب أيدلوجيّته ومتبنّياته، فتفاوتوا في نظراتهم حسب تفاوتهم في أيدلوجيّاتهم، فالماركسيّون _ مثلاً _ نظروا لها بمنظار الأدبيّات الماركسيّة في تحليل التطوّر الاجتماعيّ والصراع الحاكم بين الطبقات، فقالوا:

إنّ معني الثورة الاجتماعيّة ووظيفتها لا يمكن فهمها إلّا حينما ننظر إلي تاريخ المجتمع علي حقيقته، كسلسلةٍ متّصلةٍ من التشكيلات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، والثورة شكلٌ من أشكال الانتقال من تشكيلٍ إلي آخر، كما أنّها قفزةٌ من التشكيل الاقتصاديّ والاجتماعيّ البالي إلي تشكيلٍ أكثر تقدّماً، تكون الخاصيّة المميّزة السائدة له ومضمونه السياسيّ هو انتقال السلطة إلي الطبقات الثوريّة ((1)).

1- أُنظر: علم الثورة في النظرية الماركسية: 41 ترجمة: سمير كرم.

وعرّفها صاحب موسوعة علم الاجتماع أنّها:

التغيّرات الجذريّة في البُني المؤسّسيّة للمجتمع، تلك التغيّرات الّتي تعمل علي تبديل المجتمع ظاهريّاً وجوهريّاً من نمطٍ سائدٍ إلي نمطٍ جديدٍ يتوافق مع مبادئ وقيم وأيدلوجيّة وأهداف الثورة، وقد تكون الثورة عنيفة دمويّة، كما قد تكون سلميّة، وتكون فجائيّة سريعة أو بطيئة تدريجيّة.

وقالوا عن الثورة أنّها ضرورةٌ اجتماعيّةٌ سياسيّة، وظاهرةٌ مجتمعيّةٌ يعبّر بها الأفراد في المجتمع عن سخطهم وعدم رضاهم عن أوضاع اجتماعيّة وسياسيّة واقتصاديّة متدنّية، وبذلك يصبح من حقّهم هدم الواقع المريض من أجل بناء مجتمعٍ سليمٍ تتجسّد فيه الحرّيّة والعدالة والمساواة، لذلك فإنّ الثورة عمليّة تغيير جذريّ يهدف إلي إعادة التكامل والتوازن الاجتماعيّ والنظم الاجتماعيّة السليمة، وقد أشار رادكليف براون إلي أنّ ذلك يعني أنّه ينبغي أن نميّز بين البناء الاجتماعيّ في حالة تفكّكه واضطرابه وبين رجوع المجتمع ثانيةً إلي حالة الملائمة والتكامل ((1)).

وعرّفها البروفسور هاري ايكشتاين أنّها محاولات التغيير بالعنف أنّ التهديد باستخدامه ضدّ سياسات في الحكم أو ضدّ حكّام أو ضدّ منظّمة.

1- أُنظر: علم الاجتماع السياسيّ لمولود زايد الطبيب: 100، علم الاجتماع السياسيّ للدكتور السيّد الحسيني: 355.

ويعرّفها برنتون أنّها تغييرٌ في الحكومة القائمة، يتجاوز الحدّ القانونيّ يكون عنيفاً عادة.

ويقول بيترأمان أنّها انكسارٌ موقّتٌ أو طويل الأمد لاحتكار الدولة للسلطة، يكون مصحوباً بانخفاض الطاعة ((1)).

والكلام في تعريف الثورة يطول، ولا يكاد يرسو علي موضعٍ تجمع عليه جميع الاتّجاهات بكلّ تفاصيله وتفاسيره.

وهكذا اختلفوا في المداخل المفسّرة للثورة حسب اختلافهم في الزوايا الّتي يتناولونها منها..

فمنهم: مَن يركّز علي دراسة النتائج الرئيسيّة للأعمال والأفعال الّتي تحلّل مصادر التذمّر والعنف، من قبيل جورج بيتي وكرين برنتون.

ومنهم: مَن فسّرها معتمّداً العوامل النفسيّة الّتي تدفع بالشخص للمشاركة في الحركات الثوريّة.

قال جوستاف لوبون في تعريف الثورة: إنّها مجموعةٌ من التحوّلات الفجائيّة في المعتقدات والأفكار والمذاهب. ويقول: إنّ المشاعر والعواطف هي دعائم المعتقدات السياسيّة والرئيسيّة ((2)).

ويذهب بعض علماء النفس إلي أنّ الثورة تعبيرٌ عن سيكلوجيّة الحشد، ويقارنونها مع الارتدادات إلي العقليّة البدائيّة الّتي يمكن ملاحظتها في حالات الانهيار العصبيّ ((3)).

1- أُنظر: علم الاجتماع السياسي لمولود زايد الطيب: 99.
2- الموسوعة السياسيّة للكيالي: 870.
3- الموسوعة السياسيّة للكيالي: 871.

واختلف مفكّرو اليسار في النظريّة الماديّة التاريخيّة، فمنهم مَن جعل المساواتيّة هي العلامة الأبرز علي التقدّم في الثورات، ومنهم من تبنّيالنظرة الليبراليّة، فقال: لا تكون الانتفاضات الجماهيريّة تقدّميّة أصلاً إلّا عندما تكون موجَّهةً ضدّ الحكّام المستبدّين وهادفةً لإقامة حكمٍ حُرّ.

وظهر خلال فترة الثورة الفرنسيّة وما بعدها اتّجاهٌ أطلقوا عليه: «التفسير المحافظ _ التشاؤميّ»، أفرز مفكّرين من قبيل نيتشه، وهؤلاء عرّفوا الثورة أنّها انفجاراتٌ شبه بربريّةً خارجةً عن السيطرة وانفعالات جماهيريّة مدمّرة.

واشتهرت نظريّة الحقّ الطبيعيّ الّذي يُعدّ تجسيداً للمفهوم البرجوازيّ للثورة، ويعتقد أنصارها أنّ الثورة ضروريّةٌ لتوطيد الحرّيّة والإخاء والمساواة، وتؤكّد هذه النظريّة أنّ الأفعال الثوريّة نتاجٌ طبيعيٌّ لحقوقٍ طبيعيّةٍ معيّنةٍ للإنسان وبعض المبادئ الخالدة كالعدالة، وليس بسبب الحاجات الماديّة.

ثمّ انقلب أصحاب هذه النظريّة فيما بعد، واعتبروا الثورات عارضاً غير طبيعيّ في المجتمعات، وقد تعرّضت هذه النظريّة للنقد الشديد من قِبل جماعة، منهم سان سيمون وكونت وكارل ماركس الّذي وصفها بأنّها ليست علميّة، وأكّد علي الطابع الحتميّ للثورات الّتي تحدث نتيجة ضروراتٍ اقتصاديّة ((1)).

1- أُنظر: علم الثورة في النظريّة الماركسيّة ليوري كرازين: 90.

وذهب كلٌّ من بروديون وكروبوتكين وغيرهما من مفكّري المذهب الفوضويّ في تفسير الثورات، إلي أنّ الثورة تحاول تحقيق العدالةبواسطة القوّة، ولكنّ الحاصـل فعليّـاً إنّما هو أن يحلّ اسـتبدادٌ محلّ آخَر، ومع ذلك فإنّ الثورة مهما تآكلت وتراجعت فإنّها تُـدخل قـدراً معيّناً من العدالة علي المجتمع، ومن شأن هذه الإنجازات الجزئيّة المتناثرة أن تفضي إلي انتصار العدالة في النهاية ((1)).

وذهب تالكوت بارسونز إلي أنّ الثورة انحرافاً مَرَضـيّاً يؤدّي إلي خلخلة التوازن في بناء السـلطة ((2))، وقال أصحاب هذه النظرية أنّ النسق الاجتماعيّ يتعرّض لصـعوباتٍ حينما لا تسـتطيع القيَم القائمة تفسير التغييرات في الجوانب البيئيّة المحيطة، فيتطلّب الأمر إلي قيَمٍ جديدةٍ تكون قادرةً علي تفسير احتياج البيئة المحيطة، وهذا ما يتمّ عن طريق التطوّر والثورة ((3)).

ويري روبرت مرتون أنّ الاختلالات الوظيفيّة يمكن أن تؤدّي إلي حالةٍ من عدم الاستقرار، وأنّ التمرّد هو استجابةٌ لهذه الحالة ((4)).

ص: 37

1- أُنظر: الموسوعة السياسيّة للكيالي: 871.

2- أُنظر: علم اجتماع الثورة وخصائص المجتمع الثوريّ، فوزيّـة العطيّـة، مجلّة كلّية الآداب العراقية، العدد الرابع والعشـرين، 1979: ص 456.

3- أُنظر: علم الاجتماع السياسيّ قضايا العنف السياسيّ والثورة لشعبان الطاهر الأسود: 46.

4- أُنظر: علم الثورة في النظريّة الماركسية ليوري كرازين: 41.

وهذه الاختلالات الوظيفيّة الّتي يتعرّض لها المجتمع توجب التعديل والتغيير، فإذا قاومَت السلطة هذا التغيير فإنّ التغييرات تكتسب طابعاً ثوريّاً، ويدعي هذا الاتّجاه ب-- «البنائيّة الوظيفيّة».

وقد واجه هذا المذهب انتقاداتٍ عديدة.

واشـتهر التفسـير المـادّي للتاريخ القـائم علي أسـاس القـول بـأنّ التنـاقض هـو سـبب التطـوّر، ويري مـاركس أنّ الصـراع الطبقيّ هو الموضوعالأصـليّ للتاريـخ، ولاـ يمكن أن ينتهي إلّا بالثورة، وأنّ سـير التاريـخ يفسّـره التناقض بين مكوّنات الجانب المادّي للمجتمع، وأنّ الصراع بين المصالح المختلفة والمتعارضة أحياناً داخل النسق السيسيولوجيّ ضرورةٌ لازمةٌ للتغيير الاجتماعي ((1)).

ويري مـاركس أنّ القوي الإنتاجيّـة في المجتمع تـدخل في مرحلـةٍ من تطوّرهـا في صـراعٍ مع علاقـات الملكيّـة ومع الإطـار الاجتمـاعيّ والسياسـيّ القائم، وعنـدما تصـبح معوّقة للإنتاج تحدث أزمة، وتبدأ حُقبةٌ من الثورات الاجتماعيّة، ولا تسـتطيع الطبقات الحاكمة ولا تريد الطبقات المستغلّة أن تعيشا معاً في ظلّ الشروط القائمة، وهذا التناقض بين الطبقات هو الّذي يُفضي إلي ثورةٍ عنيفة ((2)).

وهذه النظريّة تركّز في تفسير الثورة علي الحتميّة الثوريّة الناتجة عن

1- أُنظر: علم الاجتماع السياسيّ قضايا العنف السياسيّ والثورة لشعبان الطاهر الأسود: 81.

2- أُنظر: الموسوعة السياسيّة للكيالي: 871.

العامل الاقتصاديّ فقط، وتنفي بالمطلق أيّ سببٍ آخر.

وظهرت نظريّةٌ أطلقوا عليها اسم «نظريّة تعبئة الموارد»، قدّمها كلٌّ من زالد ومكارثي في صورتها التأليفيّة المقرّرة، وهي تري أنّ التنظيمات الوسيطة هي عصب الفعل الجماعيّ، وأنّ التنظيمات هي السبب الأساس في ظهور التعبئات الاجتماعيّة الّتي تعيشها المجتمعات المعاصرة.

وتقول هذه النظريّة أنّ الفاعلين الجماعيّين أُناسٌ عقلانيّون ويتصرّفون انطلاقاً من حساباتٍ دقيقة.ويشبّه كلٌّ من زالد وماكرثي منظّمات الحركات الاجتماعيّة بمديري المؤسّسات، حيث يتصرّفون في عددٍ معيّن من الموارد، مثل العمل والموظّفين والتمويل وغيرها، فهم يعتمدون في اختيار استراتيجيّات حركتهم علي مفهومَي الربح والخسارة.

وشكّكت نظريّة التعبئة في وجود علاقةٍ سببيّةٍ وثيقةٍ تربط بين التحوّلات الاقتصاديّة والاجتماعيّة وظهور الكبت والحرمان اللذان يؤدّيان إلي الفعل الجماعيّ، إذ يعتقد زالد وماكرثي أنّ التنظيمات هي الّتي تخلق الحاجات المطلبيّة والاعتراضات المعبّئة، ويقولان: الاعتراضات والاستياءات يمكن تحديدها وخلقها والتلاعب بها من قِبل المديرين (القادة) والتنظيمات، فالأزمة تُعدّ فرصةً ومورداً مهمّاً تستغلّه التنظيمات للحركات الاجتماعيّة ((1)).

1- أُنظر: مقال سيسيولوجيا الثورة لقادري سميّة شنين محمّد المهدي.

*****

وقد قسّموا الثورات فيما بعد إلي ثورةٍ سلميّةٍ وثورةٍ دمويّة عنيفة، وثورةٍ اجتماعيّة، وثورةٍ سياسيّة، وهكذا ذكروا لها أقساماً، وركّزوا في دراساتهم علي أسباب الثورات ونتائجها، ووسائلها، ومراحلها، ومسمّياتها، ونجاحها وفشلها..

ونحن لا نريد الخوض في ذلك، ونكتفي بهذا القدر المشوَّش من المعلومات الّتي قد ترسم صورةً لمعني الثورة عند مَن درسها ونظّر لهاكظاهرةٍ اجتماعيّةٍ أو سياسيّة، ضمن إطار اهتمامات السيولوجيا في الثقافة الغربيّة.

وكما أشرنا سابقاً، فإنّك لا تكاد تعثر علي تعريفٍ أو تعليلٍ أو تحليلٍ موحَّدٍ يُجمِع عليه المختصّون، وسيأتي بعد تعريف سماحة الشيخ محمّد مهدي شمس الدين (رحمة الله) وحشره مع سيّد الشهداء (عليه السلام) .

معني الثورة في اللغة العربيّة

الثَّور: الهيجان. ثار الشي ء: هاج، ويُقال للغضبان أهيج ما يكون: قد ثار ثائره وفار فائره، إذا هاج غضبه.

والثور: الوثب، وقد ثار إليه، إذا وثب. وثار به الناس، أي: وثبوا عليه.

والثور: السطوع. وثار الغبار: سطع وظهر، وكذا الدخان، وغيرهما، وهو مجاز. والثور: نهوض القطا من مجاثمه.

وثار الجراد ثوراً، وانثار: ظهر.

ص: 40

والثور: ظهور الدم، يقال: ثار به الدم ثوراً.

وأثاره هو، وأثره، علي القلب، وثوره، واستثاره غيره، كما يُستثار الأسد والصيد، أي: هيّجه.

والثور: الذكر من البقر، والثور: ذكر البقر يُقدَّم للشرب ليتبعه إناث البقر، قاله أبو منصور.والثور: السيّد.

والثور: ما علا الماء من الطحلب والعرمض والغلفق ونحوه.

والثور: البياض الّذي في أصل الظفر، ظفر الإنسان.

والثور: كلّ ما علا الماء من القماش، ويقال: ثورت كدورة الماء فثار.

والثور: المجنون، وفي بعض النسخ: الجنون، وهو الصواب، كأنّه لهيجانه.

ومن المجاز: الثور: حمرة الشـفق النائرة فيه، وهو انتشار الشفق، وثورانه: حمرته ومعظمه، ويقال: قد ثار يثور ثوراً وثوراناً، إذا انتشر في الأُفق وارتفع.

والثور: الأحمق، يقال للرجل البليد الفهم: ما هو إلّا ثور.

وفي التهذيب: ثورة من رجال، وثورة من مال، للكثير. وقال ابن الأعرابيّ: ثورةٌ من رجال، وثروة، يعني: عدد كثير، وثروة من مال لا غير.

والثوارة: الخوران، وفي الحديث: «فرأيت الماء يثور من بين أصابعه»، أي: ينبع بقوّةٍ وشدّة.

والثائر من المجاز: ثار ثائره وفار فائره، يقال ذلك إذا هاج الغضب.

وثور الغضب: حدّته.

والثائر أيضاً: الغضبان.

وأثار الأرض : قلبها علي الحبّ بعد ما فتحت مرّة، وقال الله (عزّ وجلّ): (وَأَثَارُوا الأَرْضَ)، أي: حرثوها وزرعوها، واستخرجوا منهابركاتها، وأنزال زرعها.

وثاوره مثاورةً وثواراً ـ بالكسر ـ، عن اللحيانيّ: واثبه وساوره.

وثور الأمر تثويراً: بحثه.

وممّا يُستدرك عليه:

يقال: انتظرْ حتّي تسكن هذه الثورة، وهي الهيج.

وقال الأصمعيّ: رأيتُ فلاناً ثائر الرأس، أي: منتشر شعر الرأس قائمه، وفي آخر: «يقوم إلي أخيه ثائراً فريصته»، أي: منتفخ الفريصة قائمها غضباً، وهو مجاز، وأراد بالفريصة هنا عصب الرقبة وعروقها، لأنّها هي الّتي تثور عند الغضب.

ومن المجاز: ثارت نفسه: جشأت، أي: ارتفعت، وجاشت، أي: فارت.

ويقال: مررتُ بأرانب فأثرتُها.

ويقال: كيف الدبي؟ فيقال: ثائرٌ وناقر، فالثائر: ساعة ما يخرج من التراب، والناقر: حين ينقر من الأرض، أي: يثب.

وثور البرك واستثارها، أي: أزعجها وأنهضها.

ومن المجاز أيضاً: ثور عليهم الشرّ، إذا هيّجه وأظهره، وثارت بينهم

فتنةٌ وشرّ، وثار الدم في وجهه.

وأثرت البعير أثيره إثـارة، فثار يثور، وتثوّر تثوّراً، إذا كان باركاً فبعثه فانبعث، وأثار التراب بقوائمه إثارة: بحثه.وفلان في ثُوار شـرّ، كغراب، وهو الكثير.

والثائر: لقب جماعةٍ من العلويّين ((1)).

وقـد ذهب البعض إلي أنّ تعريف الثورة في اللّغـة العربيّـة إنّمـا هو وصفٌ للتمرّد الفرديّ أو الجمعيّ الانفعـاليّ اليـائس، غير الحامـل لأيّ مشروع مجتمعيّ ولا لأيّ أملٍ في مستقبل أفضل ((2)).

ومَن يدقّق في ما ذكره صاحب لسان العرب وتاج العروس وغيرهما في كتب اللغة، يجد أنّ ثمّة تلائمٌ وانسـجامٌ مع بعض المعاني المذكورة للثورة في الثقافـة الغربيّـة، بـالخصوص إذا تجاوزنا الاقتصار علي حاقّ اللفظ كما يـذكره اللغويّ، إذ أنّها تضـمّنت معاني الهيـج والغضـب والوثوب والاستثارة والتحشيد والكثرة من الرجال والغليان والتحريض، وما شاكل..

بيـد أنّها تبقي جميعها تتحـّدث عن انفعالاتٍ غير مدروسةٍ وغير مخطّطٍ لها وغير هادفة، ولا تحمل المعني الاصـطلاحيّ الّذي حدّدَته لها الثقافة الغربيّة، بعد أن استخدمتها في هذه الظواهر السيسيولوجيّة.

ص: 43

1- أُنظر: تاج العروس: مادة ثور.
2- أُنظر: مقال معجم المفاهيم الضـروريّة: مفهومم الثورة فلسـفيّاً وتاريخيّاً للعفيف الأخضر، مجلّة إيلاف، صدرت من لندن في 21 مايو 2001 م.

ولا يبـدو تعريف لفظ الثورة في اللغـة العربيّـة غريباً في المعاجم اللغويّـة المتقدّمة، لأنّ اللغويّ إنّما يتتبّع موارد اسـتعمال اللفظ فيسـجّله ويستشهد له بالشواهد الّتي يعثر عليها ويتصيّدها في كلام العرب.

والثورة بالمعني المصطلح لم تُستخدَم سابقاً في كلمات العرب ولاثقافتهم وأدبيّاتهم، وهذا ما سنسمعه بعد قليل، وفي هذا شاهدٌ قويٌّ يرقي إلي مسـتوي الدليل أنّ لفظ الثورة بالمعني المصطلَح لفظٌ حادثٌ في الأدبيّات العربيّة، لا يرجع إلي تاريخ استعمال ما قبل الثورة الفرنسيّة، حيث اشتهر في العالم الغربي، وبعد حركة الاستشراق والغزو الثقافيّ المدمّر الذي بدأه المستعمرون والمستشرقون.

تعريف الشيخ شمس الدين (رحمة الله)

اشارة

قال الشيخ محمّد مهدي شمس الدين رحمه الله وحشره مع سيّد الشهداء (عليه السلام) في كتابه (ثورة الحسين (عليه السلام)):

الثورة الصحيحة: هي الاحتجاج النهائيّ الحاسم علي الواقع المعاش، فبعد أن تخفق جميع الوسائل الأُخري في تطوير الواقع تصبح الثورة قدَراً حتميّاً لابدّ منه.

وقال:

والقائمون بالثورة الصـحيحة هم دائماً أصـحّ أجزاء الأُمّـة، هم الطليعة، هم النُّخبة الّتي لم يأسـرها الواقع المعاش، وإنّما بقيَت في مسـتوي أعلي منه، وإن كانت تدركه وتعيه وترصده وتنفعل به وتتعذّب بسببه.

ص: 44

تصبح الثورة قدر هذه النخبة ومصيرها المحتوم، حيث تخفق جميعُ وسائل الإصلاح الأخري، وإلّا فإنّ هذه النخبة تفقدمبرّرات وجودها إذا لم تثر، ولا يمكن أن يقال عنها أنّها نخبة، إنّها تكون نخبة حين يكون لها دورٌ تاريخيّ، وحين تقوم بهذا الدور.

ولابدّ أن تبشّر بأخلاقٍ جديدةٍ إذا حدثت في مجتمعٍ ليس له تراثٌ دينيّ وإنسانيّ يضمن لأفراده _ لو اتُّبع _ حياةً إنسانيّةً متكاملة، أو تُحيي المبادئ والقيَم الّتي هجرها المجتمع، أو حرّفها إذا كان للمجتمع مثل هذا التراث، كما هو الحال في المجتمع الإسلاميّ الّذي كانت سياسة الأمويّين المجافية للإسلام تحمله علي هجر القيم الإسلاميّة واستلهام الأخلاق الجاهليّة في الحياة، وتوفُّر هذا الهدف في الثورة الصحيحة من جملة مقوّمات وجودها، لأنّ العلاقات الإنسانيّة في الواقع علاقاتٌ منحطّةٌ وفاسدة، وموقف الإنسان من الحياة موقفٌ متخاذل، أو موسومٌ بالانحطاط والانهيار، ولذلك انتهي الواقع إلي حدٍّ من السوء بحيث غدت الثورة علاجه الوحيد ((1)).

*****

حاولنا الابتعاد عن مناقشة ما ذكرناه من تعاريف للثورة فيما سبق،

1- أُنظر: ثورة الحسين (عليه السلام) لمحمّد مهدي شمس الدين: 21.

باعتبار أنّنا لا ننوي الخوض في هذا الموضوع، وإنّما أردنا تقديم صورةٍ مجمَلةٍ عن الأَسس الّتي رسمَت الآفاق في الثقافة المعاصرةوالمباني الّتي قامت علي أساسها الدراسات بعد عصر الاستشراق، ونكتفي هنا بالوقوف بكلّ خضوع وأدب بين يدي سماحة الشيخ شمس الدين (رحمة الله) ، باعتباره سجّل تعريفاً للثورة ككاتبٍ ومفكّرٍ إسلاميٍّ ملتزم، فيمكن أن يُناقش علي أساس البديهيّات الدينيّة والضرورات الاعتقاديّة والنصوص الشرعيّة، ولا نريد الإطالة ونقتصر علي وقفات عجلي.

الوقفة الأولي: الاحتجاج

اِحتجّ: احتجّ احتجاجاً (فعل).

احتجّ عليه: عارضه مستنكِراً فعْلَه.

احتجّ عليه: أقام الحُجّة.

احتجّ بالشيء: اتّخذه حُجّة.

احتجّ المكان المقدّس: حجّه، قصده.

احتجّ: (فعل: خماسي لازم متعدٍّ بحرف). اِحْتَجَجْتُ، أَحْتَجُّ، اِحْتَجَّ، مصدر احْتِجَاجٌ.

اِحْتَجَّ بكلامِهِ:اِتَّخَذَهُ حُجَّة.

ظَلَّ الْمُتَّهَمُ يَحْتَجُّ بِحُجَجِهِ علي بَراءتِه: يُقَدِّمُ حُجَجاً.

اِحْتَجَّ العُمَّالُ عَلي سُوءِ الْمُعَامَلَةِ وَنَقْصِ الأُجُورِ: رَفَعُوا احْتِجَاجاً مُسْتَنْكِرِينَ سُوءَ الْمُعَامَلَة.

ص: 46

احتجَّ البَيْتَ الحَرامَ: حَجَّهُ، قَصَدَهُ ((1)).

وعرّفوا الاحتجاج أيضاً في الاستعمالات الحديثة:

هو طريقةٌ للتعبير عن رأي جماعةٍ أو حزبٍ سياسيٍّ أو شخص، ويكون عادةً في منطقةٍ ذاتِ شُهرةٍ واسعة، لتوصيل الصوت إلي أغلب شرائح المجتمع ((2)).

يبدو من تعريف الاحتجاج أنّه المقارعة والمخاصمة بالدليل والبرهان، وربّما أفاد بوضوحٍ أكثر في الاستعمالات الحديثة معني الاستنكار.

فهو لا يفيد معني الحرب والقتال، وإذا ما أدّي الاحتجاج الي صِدامٍ مسلّحٍ وقتالٍ يخرج عن كونه احتجاجاً حينئذ!

الوقفة الثانية: النهائيّ الحاسم

يبدو أنّ الشيخ (رحمة الله) عرّف بنفسه المراد من النهائيّ الحاسم، فقال:

فبعد أن تُخفِق جميع الوسائل الأُخري في تطوير الواقع، تصبح الثورة قدَراً حتميّاً لابدّ منه.

فهو ـ علي ما يبدو من كلامه ـ عبّر بقوله: «بعد أن تُخفِق جميع الوسائل الأُخري في تطوير الواقع» عن المراد بالنهائيّ، وبقوله: «تصبح الثورة قدَراً حتميّاً لابدّ منه» بالحاسم.

ص: 47

1- أُنظر: معجم المعاني: مادّة احتجاج.

2- أُنظر: الاحتجاجات وأشكالها / بوّابة الأهرام.

وبهذا كرّس الشيخ (رحمة الله) توظيف جميع الوسائل واستخدامها منأجل تغيير الواقع قبل الانطلاق بالثورة كشرطٍ مسبَق، أي: أنّ الثورة لا تكون حتماً ما دامت الوسائل الأُخري غيرها غير مستخدمة.

فالثورة هي العلاج الأخير والنهائيّ بعد أن تتقطّع بقيّة السبل وتعجز الوسائل، باعتبارها ستحسم الموقف وتحقّق المطلوب.

ويمكن إن يُلاحظ علي هذا التصوير، فيقال:

لقد بدأ تعريف (الثورة) بأنّها احتجاج، والاحتجاج لا يعدو كونه مقارعة الحُجّة بالحجّة أو المناضلة بالدليل والبرهان، وفي التعريف الحديث هي الاستنكار، والاستنكار هو إعلان الرفض والشجب ليس إلّا.

ولا يمكن توظيف أيّ وسيلةٍ من وسائل السعي لتغيير الواقع قبل استنكار ذلك الواقع ورفضه وشجبه.

فستكون الثورة وفق أوّل التعريف هي الخطوة الأُولي والوسيلة الأُولي، وهي في آخر التعريف الوسيلة الأخيرة الضروريّة الّتي تأتي بحكم الحتميّة كنتيجةٍ لعجز الوسائل السابقة.

ويمكن أن يكون مراد الشيخ (رحمة الله) من النهائيّ الحاسم أنّه الموقف الحاسم الّذي يُنهي المعاناة ويُغيّر الواقع، لولا أنّه فسّر بنفسه مراده فأغلق الباب أمام التظنّي والاحتمالات.

الوقفة الثالثة: الحاسم

حَسَمَ: (فعل)، حسم الشيء: قطعه (حسم بينهما الخلاف).

ص: 48

حسم الداء: أزاله بالدواء.

حسم العِرق: قطعه، ثمّ كواه لئلّا يسيل دمُه.

حسم عليه الشيء: منعه إيّاه.

حسمَت الأُمُّ طفلَها: منعَتْه الرضاع.

حسم القوم: أفناهم.

حَسَمَ: (فعلٌ ثلاثيٌّ متعدٍّ بحرف). حَسَمْتُ، أحْسِمُ، اِحْسِمْ، مصدر حَسْمٌ.

حَسَمَ العِرْقَ: قَطَعَهُ وَكَوَاهُ.

حَسَمَ الدَّاءَ: أزَالَهُ بِالدَّواءِ، حَسَمَ الطَّبِيبُ دَاءَ الْمَرِيضِ إذْ وَجَدَ الدَّوَاءَ الْمُلائِمَ.

حَسَمَ الأمْرَ مَعَهُ: أنْهَاهُ بِصِفَةٍ جِذْرِيَّةٍ، حَسَمَ أُمُورَهُ: حَسَمَ الخِلاَفَ بَيْنَهُمَا.

حَسَمَ الدَّيْنَ: أَسْقَطَ جُزْءاً مِنْهُ.

حَسَمَ عَنْهُ الأَمْرَ: أبْعَدَهُ لِيَسْتَرِيحَ مِنْهُ.

حَسَمَ عَلَيْهِ الخُرُوجَ: مَنَعَهُ إيَّاهُ.

والحاسِمُ: يقال: رأيٌ حاسم: قاطعٌ للجدل.

حاسم: (اسم). قاطع، بات، نافذ، صارم: (قرارٌ حاسم).

حاسِم: جمع: ـ ون ـ ات، (فاعلٌ مِنْ حَسَمَ).

أَصْدَرَ قَراراً حاسِماً: فاصِلاً.

خاضَ الجُنودُ مَعْرَكَتَهُمُ الحاسِمَةَ: النِّهائيَّةَ، الفاصِلَةَ.

ص: 49

أَمْرُهُ حاسِمٌ: قاطِعٌ ((1)).

فالحسم هو القطع والبتّ والفصل والإنهاء، فالثورة ستكون هي الاحتجاج الّذي يبتّ في الوضع القائم ويفصله وينهيه ويقطعه ويمنعه، فإذا لم يتحقّق ذلك لا يصدق عليها التعريف، فالثورة إنّما تكون ثورةً حينما تكون فاصلةً بين عهدين، ومقوّضةً للوضع القائم، فإذا فشلَت في تحقيق ذلك فلا يُطلَق عليها ثورة، وربّما أُطلق عليها تمرّدٌ أو انتفاضةٌ أو تململ، أو أيّ عنوان آخر سوي الثورة.

والحسم في الاحتجاج بالمعني الرائج يعني مقارعة الحجّة بالحجّة، وبالتالي تعني الثورة غلَبة الحجّة الثائرة علي الحجّة القائمة وحسمها وقطعها واستئصالها وإبادتها والقضاء عليها وإقامة الحجّة الثائرة مقامها، سواءً كان الحسم عسكريّاً، أو كان الحسم معنوياً بمعني استبدال القيَم والمُثل من خلال إبادة القيم الحاكمة وإقامة قيمٍ جديدة..

فإذا استمرّ الوضع القائم ما قبل الثورة ولم يتغيّر، وانتهي الحسم العسكريّ لصالح النظام الحاكم، فلا يصدق علي التحرّك قبل أن يُسحَق عنوان الثورة، لأنّ الثورة لابدّ أن تُحدِث تغييراً حاسماً، أمّا إذا عجزَت عن ذلك لأيّ سببٍ كان فلا تُسمّي ثورة.

هذا هو حاصل التعريف الّذي نحن بصدد مناقشته، وغيرِه من التعاريف التي مرّ ذكرها.

1- أُنظر: معجم المعاني.

وربّما كان هذا التصوّر من وراء الحكم علي حركة المولي الغريب مسـلم بن عقيل (عليهما السلام) في الكوفة بالفشل وتكرار تعبيرهـم عنها ب– «فشل الثورة»، إذ أنّ حركته لم تُحقّق التغيير الحاسم المطلوب، سواءً كان عسـكريّاً أو أخلاقيّاً وفكريّاً وعقائديّاً وغيرها من القيَم، بل تمّ الحسم لصالح العدوّ علي كلّ صـعيدٍ ملحوظ، وبقيَ العدوّ قويّاً عسـكريّاً، وقد انصاع له المجتمع طوعاً أو كرهاً، وبقيت قيَمُه هي الحاكمة، ومن هنـا حكموا علي حركته الّتي افترضوها «ثورة» بالفشل، والحال أنّه لم يكن يسـتهدف ذلك في حركته، ولم يفكّر به، ولم يخطّط له، ولم يكُ سوي سـفيرٍ أدّي تكاليف السفارة بحذافيرها تماماً كما جاء في نصّ المرسوم الّذي وجّهه به سيّد الشهداء (عليه السلام) إلي محلّ إنجاز مهمّته، وقد أتينا علي تفصيل ذلك في الجزء الأوّل من وقائع السفارة تحت عنوان: مسلم بن عقيل (عليهما السلام) ثائرٌ أم سفير؟

الوقفة الرابعة: حتميّة الثورة

ربمـا اقتضت هـذه الملاحظـة الوقوف طويلاً بيـد أنّنـا لا نفعل ذلك؛ لأنّنا إنّما نـذكرها هنا كمقدّمـةٍ عجلي للـدخول في أصل الموضوع، وللبحث المفصّل موضعٌ آخر سنأتي عليه في محلّه إن شاء الله تعالي.

وسنوجز الإشارة إلي الموضوع، فنقول:

يبـدو أنّ الحتميّـة الّـتي يقصـدونها إنّمـا هي نتيجـة التفاعلات الاجتماعيّـة والحركـة السسـيولوجيّة الّـتي تحكم المجتمع، فتولّـد إفرازاتٍ كنتائججزميّةٍ حتميّةٍ للصراع الاجتماعيّ، واختلفوا في تفسير عوامل

الصراع، لكنّهم اتّفقوا أنّه حاصلٌ بسبب التناقضات والصراعات المتولّدة في المجتمع.

وهذه الحتميّة الّتي أقرّتها المذاهب والإيدلوجيّات الوضعيّة الأرضيّة الّتي تدرس المجتمع بالمناظير الأرضيّة، سواءً كانت غربيّةً أو شرقيّة، كالحتميّة الّتي نادت بها المدرسة الماركسيّة، كلّها مبتنيةٌ علي التخمين والدراسات المحصورة في ملاحظة الحركة الاجتماعيّة.

ولا يبدو أنّها تتحدّث عن سُنن إلهيّةٍ ثابتةٍ حاكمةٍ في المسيرة البشريّة، لا تقبل التحويل والتبديل والتغيير.

فهي تبقي علي مستوي الملاحظة والاستقراء لحالةٍ أو حالاتٍ حاصلةٍ سابقاً، فتدرس الثورات وتحاول التحليل والتعليل واستكشاف العوامل والعلل المشتركة، وتعميمها علي الحركات الحاضرة أو المستقبلة.

وبالتالي، فإنّها تفترض مقدّماتٍ هي ليست حتميّة، وإنّما متغيّرة وفق الواقع تحت حكم الزمان والمكان والشخصيّة والخصائص الاجتماعيّة والفرديّة والظروف السياسيّة، وغيرها من المؤثّرات المتغيّرة، ثمّ تفترض لها نتائج حاصلة من تلك المقدّمات بالضرورة، والحال أنّ المقدّمات نفسها ليست حتميّة ولا جزم بصحّتها ومقدّميّتها، ولا النتائج حتميّة بحكم تغيّر المقدّمات وعدم حتميّتها والجزم بها.

أمّا في البُعد الدينيّ فالبحث طويل، ويمكن اختزاله في كلمات:إنّ الحركة التغييريّة الدينيّة المنطلِقة من الأمر الإلهيّ، والتزام العمل بالتكليف الشرعيّ، وتحقيق الغرض والمراد الدينيّ، والسعي من أجل

تحقيق الهدف الربّانيّ، لا تحكمه الحتميّات الأرضيّة، ولا تفسّره وتعلّله النظريّة الوضعيّة، ولا ترقي إلي تحديد التكليف والمقدّمات والنتائج فيه نزعات النفس البشريّة..

فالنبيّ والوصيّ لا ينطلق في حركته التغييريّة نتيجة الانحلال الأخلاقيّ وما يبتلي به المجتمع من حالاتٍ وظروف، ويصل إليه الإنسان من انحدارٍ وانحطاطٍ أو رُقيٍّ وتطوّر، وطالما مرّت علي المسيرة البشريّة فتراتٌ مظلمةٌ انغمَس فيها البشر في أعماق الضلال والانحطاط والتخلّف والوحشيّة، وربّما طالت بهم النكسة مئات السنين، كالفترات الّتي وقعَت بين النبوّات، من قبيل الفترة بين نبوّة عيسي ونبوّة النبيّ الخاتم (صلي الله عليه و آله) ، وهكذا الأمر لو تابعنا مسيرة التاريخ البشريّ منذ هبوط آدم إلي يوم الناس هذا.

أجل! يمكن أن يقال: إنّ المحرّك الأوّل والباعث الأصليّ لحركة النبوّات والوصايات الإلهيّة تنحصر في التكليف السماويّ الّذي يبعث في الناس الرسل، ويخلّف فيهم الأوصياء بعد الأنبياء، والنبيّ والوصيّ إنّما يتحرّك حينما يأمره الله، ويكمن ويلبد إذا أمره الله بذلك، فقد عاش نبيّنا محمّد (صلي الله عليه و آله) _ وهو أكمل البشر وسيّد الكائنات وأشرف الخلق _ أربعين عاماً من عُمره الشريف، يري ما يري ويلحظ الانحطاطوالتخلّف ووأْد البنات والأخلاقَ الذميمة الّتي غمست المجتمع البشريّ في حضيض الانتكاس والوحشيّة القاسية والانغماس في أوحال اللذّات الهابطة والاستغلال والجهل والضلال والحَيرة والتّيه في مستنقع

الرذيلة والتعيّش علي الغارة والسلب والنهب والسبي، وغيرها ممّا ورد في التاريخ والنصوص الدينيّة كوصفٍ وتقييمٍ لفترات طويلة سبقت البعثة المباركة، فقد عاشها النبيّ (صلي الله عليه و آله) ورآها بعينه، وتأذّي منها، وهو كمال الكمال البشريّ، ولم يتحرّك حركةً اجتماعيّةً إلّا حينما بعثه الله بالنبوّة، ثمّ أمره أن يصدع بما يُؤمَر بعد فترةٍ من بعثته.

وهنا تتهاوي النظريّات الوضعيّة الّتي تفترض حتميّة الثورة نتيجةً للتفاعلات والأواصر الحاكمة في الحركة الاجتماعيّة، إذ أنّ الحتميّة الدينيّة تقتضيها الأوامر الإلهيّة لا الظروف الاجتماعيّة، والأوامر الإلهيّة قائمةٌ علي الحِكمة الإلهيّة لا علي الحركة البشريّة، لأنّ الحركة البشريّة لا تكون إلّا ضمن الإرادة الربّانيّة المرسومة لحركة البشر منذ نبوّة آدم (عليه السلام) إلي هيمنة الوليّ الخاتم (عليه السلام) علي الكون، وما يليه من حركةٍ تفضي إلي نهاية الدنيا وبداية الآخرة.

والّذي يبدو واضحاً من تعريف الشيخ _ رحمه الله وحشره مع الحسين (عليه السلام) _ كما هو دأب غيره من الكتّاب والمفكّرين أنّ مقصودهم من الحتميّة إنّما هي الحتميّة الأرضيّة المقصودة في النظريات الوضعيّة، إذ أنّ الحتميّة الدينيّة _ إن وُجِدَت _ فهي حتميّةٌ قائمةٌ علي الأمروالتكليف الإلهيّ والمصالح والمفاسد، الّتي تتكشّف من الحكمة الربّانيّة والسلوك النبويّ، فربّما ابتلي الله قوماً بالسقوط، وسلّط عليهم طاغياً، عقوبةً لهم أو ابتلاءاً، أو خيّم عليهم بظرفٍ شديدٍ ليفتنهم ويمحّصهم ويرفعهم ويهيّأ أجيالهم لما هو أرقي، وهكذا..

ص: 54

فربّما كانت الحكمة الإلهيّة تقتضي أن يصمت الأحرار ويلبدوا، ويكونوا أحلاس بيوتهم، ولا يعدو حالهم أن يكونوا نَوَمة، وغيرها من المصطلحات الواردة في الأحاديث الشريفة، تماماً كما فعل النبيّ (صلي الله عليه و آله) في الفترة الّتي سبقَت أمره بأن يصدع بالأمر، وفي الفترة الّتي جلس فيها أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين وخليفة رسول ربّ العالمين عليّ بن أبي طالب (عليهما السلام) في داره وأغلق عليه بابه خلال سنوات النكبة، وصبره علي خمسٍ وعشرين سنة من سنين المحنة العجاف، وكذا صبر الإمام المجتبي ودفع الحكم الظاهريّ إلي الطاغوت المتسلّط الجبّار العنيد المتهوّر معاوية، وكذا فعل الأئمّة المعصومون من عليّ بن الحسين السجّاد إلي صاحب الأمر (عليهم السلام) ، وقد كانت أُمور المجتمع بعد سيّد الشهداء (عليه السلام) إلي سفال، وكانت كلّ حتميّات التاريخ المفروض حاكمة، بيد أنّ الإمام السجّاد (عليه السلام) الذي أنضج نحور القوم بكلامه، ومَن تلاه من أولاده المعصومين (عليهم السلام) قد اختاروا ترك التحرّك، فأبطلوا مفعول الحتميّة تحت طائلة الأمر الإلهيّ والتزام التكليف الشرعيّ وتنفيذ الإرادة السماويّة والعمل بالحكمة الربّانيّة.والظاهر أنّ السنن الإلهيّة الّتي تقوم عليها المجتمعات ـ بل وحركة الأفراد ـ هي شيءٌ غير الحتميّة الّتي أرسوا عليها قواعد الثورات.

الوقفة الخامسة: الأكثريّة المأسورة بالواقع

يبدو من التعريف المذكور أنّ الثورة إنّما هي من فعل النخب الّتي لم يأسرها الواقع، أمّا الأكثريّة العامّة فإنّها سيأسرها الواقع المعاش، فهي

تعيشه راضيةً به، قد اعتادته واستسلمت له أو اقتنعت به، ولا تري فيه ما يلزم التغيير.

فربما استطاعت النخب أن تُقنِع الأكثريّة بما هي فيه من واقعٍ متدنٍّ وحياةٍ تعيسة، أو أنّ النخب إذا ثارت وحقّقت الأهداف ستقدّم البديل للأكثريّة فتُقنعها بالوضع الجديد، أو أيّ فرضٍ آخر.

المهمّ! أنّ الثورة في هذا التعريف من فعل النخب ليس إلّا، فستكون أشبه _ نقول: أشبه! _ ما تكون بالانقلاب، وليس للأكثريّة وجماهير الناس فيها دخل، وهو خلاف التعريفات المذكورة في المقام، حيث تفترض جميعاً أن يكون الشعب والأكثريّة ركناً مهمّاً من أركان الثورة.

ولا يبعد أن يكون الشيخ (رحمة الله) إنّما افترض الثورة من فعل «النخب»؛ ليتخلّص من الإشكال المقدَّر، إذ أنّ «ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) » لم يكن فيها للأكثريّة أيّ دورٍ إيجابيٍّ يّذكر، بل كانت الأكثريّة ضدّه وعليه، وخرجَت لقتاله لصالح الحكم القائم والنظام الحاكم في السلطةوالمجتمع، بل لم ينضمّ إليها نخب الأُمّة جميعاً.

وبالرغم من نسبة الثورة للنخب في المجتمع وتجاهل الأكثريّة، فإنّ هذا التعريف ربّما يبقي قاصراً عن استيعاب النخب أيضاً، فلا يمكن تطبيقه علي «ثورة الحسين (عليه السلام) »، إذ أنّ النخب الّتي شاركت في «الثورة» كانت نخباً من نوعٍ خاصّ، ولونٍ خاصّ، ومستويً خاصٍّ من البشر ومن الأُمّة، أمّا «النخب» الّتي يمكن أن تشمل الكثير من وجوه الأُمّة ورجالاها وشخصيّاتها، من قبيل: «ابن عباس، ابن عمر،

ابن الحنفيّة»، وعشرات عشرات النخب الأخري من الصحابة والتابعين والقرّاء والعلماء والفقهاء، وغيرهم ممّن كان يستشعر السقم والظلم والانتكاس المستشري في الأُمّة ويعاني منها ويتضوّر ويُعلن ذلك، لم ينضمّ إلي «الثورة»، وحينئذٍ ينبغي أن نجعل الثورة من فعل «نخب النخب» والنمط الخاصّ من البشر الّذين يعيشون في الأُمّة، وغيرها من التعاريف، كلّ ذلك علي فرض التعريف المذكور.

الوقفة السادسة: الثورة قدر النخبة الصحيحة

بناءاً علي ما ذكره من حتميّة الثورة أصبحت الثورة:

قدر هذه النخبة ومصيرها المحتوم، حيث تخفق جميعُ وسائل الإصلاح الأُخري، وإلّا فإنّ هذه النخبة تفقد مبرّرات وجودها إذا لم تثُر، ولا يمكن أن يقال عنها أنّها نُخبة، إنّها تكون نخبةً حين يكون لها دورٌ تاريخيّ، وحين تقوم بهذا الدور.وقد ناقشنا حتميّة الثورة، وتبيّن لنا أنّ الحتميّة في الفكر والعقيدة الدينيّة شيءٌ غير الحتميّة الّتي يذكرها المفكّرون الغربيّون، إذ أنّ الحتميّة عند الغربيّين هي عبارةٌ عن ترتّب مقدّماتٍ ضروريّة في مجتمعٍ ما تُنتج الثورة لا محالة، فالحتميّة ناشئةٌ من التفاعلات الاجتماعيّة والسياقات السسيولوجيّة، أمّا الحتميّة في الشريعة الدينيّة إنّما تنشئ من الأوامر الإلهيّة، فإن كان الأمر الإلهيّ يستدعي الثورة ثار المؤمن، وإن كان الأمر الإلهيّ يقتضي الصمت والصبر والتحمّل كمُنَ المؤمن ولبد امتثالاً لأمر الله.

ص: 57

فكيف يمكن أن تكون الثورة قدر النخبة ومصيرها المحتوم، وهي إن لم تثر فقدت مبرّرات وجودها وانسلخ عنها اسم «النخبة»، ولا تكون نخبة إلّا حين يكون لها دورٌ تاريخيٌّ فتقوم به؟ وهل ينحصر الدور التاريخيّ بالثورة؟

أجل، ربّما كان هذا التعريف صادقاً علي النخب علي الإطلاق في أيّ مجتمع أو أيّ أُمّة، بغضّ النظر عن التزامها الدينيّ وعلي الأخصّ التزامها الإسلاميّ، وأخصّ من ذلك التزامها وفق العقيدة الإماميّة الحقّة، ففي أيّ مجتمعٍ يعيش الوضع السيّء الذي تعيشه النخب وتتضوّر وتتأذّي منه وتفكّر في الأُمّة، فإنّها قد تتحرّك لإنقاذ بني البشر الّذين يعيشون تلك الظروف بدوافع شتّي لا نريد الدخول فيها، بل حتّي لو سلّمنا جدلاً، فإنّهم سيتحرّكون بمقتضي الحتميّة _ ونحن لا نعتقد بذلك _،أمّا تحرّك الإنسان تحت مظلّة الأمر الإلهيّ والتكليف الشرعيّ، فإنّ دوره التاريخيّ سينحصر فيما أطاع أو عصي، فإن أطاع الربّ والإمام فقد أدّي دوره التاريخيّ، وإذا عصي فقد انحسر وانكسر وتخلّف وتقاعس وتقاعد، بغضّ النظر عن الوضع الاجتماعيّ، فالمؤمن يتحرّك وفق الأوامر المعصومة، لا وفق التشخيصات الشخصيّة أو الذاتيّة أو الذوقيّة أو الاستنتاجات والفهوم ومجارات الظروف وتحيّن الفرص، فإذا ورد الأمر الشرعيّ بالقيام والثورة ثار المؤمن، سواءً كانت له مبرّراتٌ ظاهريّة ملحوظة للجميع أو لم تكن، وسواءً كانت الظروف مواتيةً أو كانت معاكسة، وسواءً كانت النخب معه أو ضدّه، وسواءً

اسـتجابت له الأكثريّة أو خالَفته، فالحتميّة في سلوكيّات المجتمع والفرد المؤمن تنبع من الكتاب والسنّة وسيرة المعصوم، لا من التفاعلات والتناقضات الاجتماعيّة!

ثمّ إنّ المؤمن يسـتمدّ مبرّرات وجوده من التزامه المنهج الحقّ، ولا يضرّه وحشة الطريق وإن قلّ سالكوه، ويستمدّ مبرّرات وجوده من التزامه بالتكليف الشرعيّ والطاعة لربّ الأرباب..

فقد كان وجود الإمام أمير المؤمنين (عليه السـلام) وسيّد الخلق بعد النبيّ الأمين لا يحتاج إلي مبرّر من نوع المبرّرات المذكورة، وقد صبر وتجنّب الثورة امتثالاً لأمر الله وطاعةً لرسول الله (صلي الله عليه و آله) ، ولـم يفقد مبرّر وجوده، وكذا لـم يفقد الإمام الحسن (عليه السلام) ومَن معه من المؤمنين الصابرينالمسلّمين له مبرّر وجودهم، ولم يفقد الإمام زين العابدين (عليه السلام) ومن معه من الشيعة الأبرار ـ وهم نخب البشـريّة جمعاء ـ مبرّر وجودهم، وقـد أعلنت له فئةٌ اسـتعدادها لنصـره بعد أن خطب فيهم وأنضج نحورهم وزلزل الوضع في الكوفة المنكوبة يومها.. ولم يفقد الإمام الباقر والإمام الصادق (عليهما السلام) ، وهلمّ جرّاً إلي الإمام الصاحب (عجل الله تعالي فرجه الشريف) ، وجميع من عاصـرهم ووازرهم ولا ـزمهم وامتثـل أمرهم مبرّرات وجودهم، رغم أنّهم عـاشوا واقعـاً قـد لا ـ يكون واقعٌ أسوء منه ولا أدني، وعاصـروا فترةً كـانت الأُمّـة ترزح فيهـا في حضـيضٍ موبوءٍ وانكسارٍ وانتكاسٍ وارتكاسٍ بلغ به القاع ودمار القيَم والمُثل وانقلاب الموازين، حتّي صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وهم مع ذلك صبروا ولبدوا، وأمروا أنصارهم وشيعتهم بالصبر، وأكّدوا لهم في

أحاديث كثيرةٍ متظافرةٍ مستفيضةٍ أنّ أيّ حركةٍ في المجتمع يمكن أن تحرّك الراكد الاجتماعيّ وتجلب النظر وتطفوا بالنخب إلي السطح وتكشفهم علي الملأ ممنوعة ألبتّة، وأبوا لشيعتهم أن يكونوا رقماً _ ولو بسيطاً _ علي مستوي التأييد القلبيّ لحركاتٍ ضخمةٍ وثوراتٍ عارمةٍ ضدّ الوضع القائم، سواءً علي المستوي الاجتماعيّ أو مستوي السلطة والحكّام.

فهل فقد جميع الأئمّة (عليهم السلام) والنخب البشريّة الراقية السامية السامقة الّتي أحاطت بهم مبرّراتِ وجودهم؟!يبدو أنّ المداومة والإطالة في هذه الوقفة قد لا تكون مطلوبةً بأكثر من هذا المختصر المضغوط، وإن كان المفروض أن يُدعَم بالأحاديث والأدلّة الكافية الوافية المتوفّرة بكثرة.

ويجمع كلّ ما سبق كلمةٌ واحدة: إنّ النخبة المؤمنة تتحرّك وِفق التكليف الشرعيّ، وتستمدّ وجودها من الامتثال للتكليف الإلهيّ، وتطمئنّ إلي نجاحها حينما تكون قد توفّرت علي الطاعة لله ولرسوله وللأئمّة المنصوبين من الله تعالي، سواءً كان ذلك في الثورة أو في الصبر والصمت والسكوت، والمهمّ إنّما هو الطاعة والطاعة فقط! (أَلَمْ تَرَ إِلي الَّذينَ قيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَريقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلي أَجَلٍ قَريبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَليلٌ وَ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقي وَ لا تُظْلَمُونَ فَتيلاً).

الوقفة السابعة: الأخلاق الجديدة من مقوّمات وجود الثورة

ولابدّ أن تبشّر بأخلاقٍ جديدةٍ إذا حدثَت في مجتمعٍ ليس له تراثٌ دينيٌّ وإنسانيٌّ يضمن لأفراده _ لو اتُّبع _ حياةً إنسانيّةً متكاملة، أو تُحيي المبادئ والقيَم الّتي هجرها المجتمع، أو حرّفها إذا كان للمجتمع مثل هذا التراث، كما هو الحال في المجتمع الإسلاميّ الّذي كانت سياسة الأمويّين المُجافيةللإسلام تحمله علي هجر القيَم الإسلاميّة واستلهام الأخلاق الجاهليّة في الحياة، وتوفّر هذا الهدف في الثورة الصحيحة من جملة مقوّمات وجودها، لأنّ العلاقات الإنسانيّة في الواقع علاقاتٌ منحطّةٌ وفاسدة، وموقف الإنسان من الحياة موقفٌ متخاذل، أو موسومٌ بالانحطاط والانهيار، ولذلك انتهي الواقع إلي حدٍّ من السوء بحيث غدت الثورة علاجه الوحيد.

من هنا تكون الأخلاق الجديدة الّتي تضمن لأفراد المجتمع الحياة الإنسانيّة المتكاملة، سواءً كانت أخلاقاً جديدةً أو كانت عبارةً عن إحياءٍ للمبادئ والقيَم المهجورة في المجتمع بعد أن نالها التحريف، من قبيل الأخلاق الإسلاميّة الّتي هجرها المجتمع، والتبشير بهذه الأخلاق الجديدة والعمل علي تطبيقها وترسيخها في المجتمع من أهداف الثورة الصحيحة، وهي في نفس الوقت من مقوّمات وجودها، فإذا جمعنا هذا الهدف والمقوّم الأساسيّ إلي «النهائيّة والحسم» وغيرها ممّا ذكرناه في الوقفة الثانية والثالثة، يلزم أن تكون «الثورة» ثورةً إذا حقّقت هذا

التغيير، فإن لم تحقّقه ولم تصل إلي الهـدف المنشود فقدَت مقوّماً من مقوّماتها، فلا تصـلح لنيل درجة النجاح، لأنّها لم تحقّق هدفاً مهمّاً، بل لم تحقّق الهدف الرئيس والأساس والغرض المنشود منها، وهو تحكيم الأخلاق الجديدة أو بعث الأخلاق والمُثل والقيَم المندثرة، فهي إن توفّرت علي ذلك واستطاعت أن تُعيد المياه إلي مجاريها ـ كما فيمثال المجتمع الإسلاميّ ـ، بحيث أرجعَت الأُمّة والمجتمع إلي سابق عهده، وجعلَته يرفل في نعيم الأخلاق الحميدة ويستعيد القيَم ويُرجعها من حال الانقلاب والانتكاس إلي الحال السويّ والعدل والصحّة، وإلّا فلا يمكن أن تسجّل نجاحاً.

ولـو فُرض أنّهـا اسـتطاعت أن ترسو علي مجتمع النخب وتقنعهم من دون القـدرة علي تغيير الواقع المعـاش وسَوق المجتمع إلي الهـدف المنشود، فإنّهـا سوف لاـ تكون قـد حقّقت غرضـاً ولاـ أصـابت هـدفاً، إذ أنّ النخب هي الّتي اكتوَت بنار الواقع المرير المريض وتلوّعَت به وتأذّت منه وعرفته، فلا حاجـة إلي «ثورة» حتّي تصل إلي هـذه النتيجة، و«الثورة» إنّما كانت قدَراً دفعت به الحتميّة لتغيير الواقع المعاش لا واقع النخب.

فإذا وضعت الثورة أوزارها، وكانت الأكثريّة والواقع المعاش علي ما كان عليه قبل الثورة، فهذا يعني أنّ ما حصل ليس بثورة، وفق ما تبيّن لنا في الوقفة الثانية والثالثة، ولو أُطلِق عليها «الثورة» فهي محكومة بالفشل، إذ أنّها لم تنل من الواقع شيئاً ولم تُغيّر فيه.

الوقفة الثامنة: كلمةٌ موجَزة

نحسب أنّ الوقوف عند ما ذكروه من تعاريف للثورة عموماً وما ذكره الشيخ محمّد مهدي شمس الدين _ رحمه الله وحشره مع سيّده الحسين (عليه السلام) _ خصوصاً، يحتاج إلي وقفةٍ أطول بكثير، واستدلالٍ ومناقشةٍ علميّةٍ وافرة، بيد أنّنا اقتصرنا هنا علي هذا القدر، لأنّها مجرّدمقدّمةٍ عجلي لبحثٍ طويل ربّما وفّقنا الله لتناوله في محلّه، فهي ومضةٌ خاطفةٌ نرجو أن تقدح عند ذوي الاختصاص ما يدفعهم لمناقشة هذه الفكرة بالردّ أو القبول.

وكيف كان، فإنّ جميع ما ذُكِر من تعاريف للثورة لا تبدو كافية لشمول قيام سيّد الشهداء (عليه السلام) ، حتّي التعريف الّذي قدّمه الشيخ شمس الدين (رحمة الله) باعتباره مفكّراً إسلاميّاً وعالماً دينيّاً.

والّذي يبدو لنا من التأمّل في تعريفه أنّه يعتمد الملاحظة والتتبّع وما ورد في تعاريف الخبراء المتأخّرين لفهم الثورة وتحليلها وتعليلها ودراستها، ولا يبدو فيه أنّه تعريفٌ مستوحيً ومُستنبَط من حركة سيّد الشهداء (عليه السلام) نفسها، بل يبدو أنّه قد حسم أمر التعريف وحدّد معالمه وراح يطبّقه علي قيام الإمام (عليه السلام) ، والله العالم.

وسيتّضح لنا ذلك عند استيفاء البحث وإتمام هذه الدراسة، والله وليّ التوفيق، وهو من وراء القصد.

موازين دراسة الثورات

سمعنا _ قبل قليل _ بعض مؤدّيات بعض المدارس والمذاهب الّتي

درست الثورات منـذ انطلاقها في أوربا، كالثورة الفرنسـيّة كحـدٍّ فاصلٍ واضـحٍ مميّز في تاريخ الغرب، وكانوا ولا زالوا يتعاملون مع الثورات كإفرازاتٍ اجتماعيّـةٍ سياسـيّةٍ لها أسـبابها وعواملها وظروفها ونتائجها..واختلفوا في تعريفها وطرق معالجتها وتحليلها واسـتخلاص الدروس والنتائـج منها، بناءاً علي اختلافهم في الإيدلوجيّات والعقائد والخلفيّات والمتبنّيات الفكريّة والأخلاقيّة ومتابعة الحركات الاجتماعيّة وردود الفعل البشريّة، وغيرها.

بيـد إنّهم جميعاً اعتمـدوا المشاهـدة والملاحظة والتتبّع للأحداث، والبحث في المجتمع وظروفه وملابساته وحاجاته وتطلّعاته وسبر أغواره وفكّ رموز أواصـره وروابطه وعلاقاته، وفق الطبيعة البشـريّة والمعطيات النفسيّة والفكريّة والعقائديّة، فهم يبحثون في الجغرافيا، ويبحثون في الحاجيات والضـرورات الإنسانيّة، سواءً الجسديّة منها أو الروحيّة والمعنويّة، كالتطلّع إلي العيش الرغيد والرفاهيّة والتمتّع باللذّات واستيفاء الشهوات، أو التطلّع إلي الحياة الكريمة في ظلّ العدالة والمساواة والحرّيّة ...

فهم يبحثون في الأرض وعلي الأرض وضمن نطاق الأرض، ويحاولون إشباع الغرائز السامية أو الدانية، ويحاولون استثارة التراب للحصول علي الحياة علي الأرض وتأمين متطلّبات الطين والجسد والعيش في هـذه الدنيا، سواءً كانت تفسـيراتهم ماورائيّةً ذات طابع دينيّ، أو كانت ماديّةً بحتةً لا تلحظ الجانب الغيبيّ بتاتاً.

ولا ـ يخفي أنّ ما يـذكره البـاحثون الغربيّـون ـ علي اختلافـهم في دراسـة الثـورات ـ يختلـف من حيث معـاني المصـطلحات المـوظّفة والمذكورة كأسبابٍ أو أهدافٍ للثورات، فالحرّيّة بالمعني الغربيّ هي غير الحرّيّة بالمعني الشـرقيّ أو بالمعني الدينيّ أو بالمعني الإسلاميّ، والعدالة والمساواة والحكم ونظام الحكم والحاكم والمحكوم وغيرها من الشـعارات والأهداف المرسومة للثورات، فإنّ لهذه المصطلحات معانٍ خاصّةً تحمل الأبعاد العقائديّة والفكريّة والدينيّة..

وبكلمـةٍ أُخري: إنّ المـدارس الّتي درست الثورات وحلّلَتها وبحثت عن أسـبابها وعللها منذ الثورة الفرنسـيّة فما بعد، كلّها كانت ولا زالت تدرس الثورة كظاهرةٍ أرضيّةٍ بحتةٍ منقطعةٍ عن العامل الغيبيّ، حتّي ولو كانت بدوافع ونوازع دينيّة!

وبهـذه الروح وهـذا النفَس وهـذا النسق تعاملوا مع التاريخ، سواءً تاريخهم في الغرب، أو تاريخنا في الشـرق، وتعاملوا مع ظهور نبوّة خاتم الأنبياء محمّد بن عبد الله (صـلي الله عليه و آله) ومع مجريات تاريخ المسـلمين بما فيها قيام سيّد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) ، فهي عندهم ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ سياسـيّة، ومفردةٌ ضـمن حركة التاريخ ينبغي دراسـتها ضـمن الضوابط المسـتنبطة من الثورات الّتي أُتيح لهم دراستها علي غِرار الثورة الفرنسيّة والروسيّة وهكذا..

وهم يعتبرون الثورة حتميّةً تاريخيّةً لا محيص عنها، إلّا أقلّ القليل منهم، وإن اختلفوا في السبب المُنتِج لها.

ومـَن يتأمّـل في طريقـة المستشـرقين ومنهجهـم في تحليـل قيـام سيّدالشـهداء (عليه السـلام) وغيره من الأحـداث الّـتي جرت في تـاريخ المسـلمين، لا يجـد عناءاً للتثبّت ممّا ذكرناه، سـيّما لمن يطّلع علي متبنّياتهم الفكريّة وما قدّموه في دراساتهم التنظيريّة، وليس المقام مقام سرد الشواهد والأدلّة.

فهم يتناولون مجريات قيام الإمام الحسـين (عليه السلام) كظاهرةٍ أرضيّة، بقطع النظر عن أيّ ارتباطٍ لها بالسماء، ولا يمكنهم وفق متبنّياتهم النظريّة أن يتعاملوا معها باعتبارها قياماً ربّانيّاً له أبعاد وامتدادات وبواعث ونتائج إلهيّة، أو أن يكون للعامل الغيبيّ فيها أيّ دورٍ مؤثّر.

أهمّ الوسائل في الغزو الثقافيّ

برمجة العقل البشـريّ وبناء التكوين الفكريّ وقولبة النفس البشـريّة، بالخصوص عند النخب والطبقات المثقّفة والمتنوّرة في المجتمع، من أهمّ الأهـداف عنـد الغـازي الثقافيّ، فهو لا يبـذل جهـده علي كلّ مفردةٍ علي حـدةٍ وكلّ أدبٍ والتزامٍ اجتماعي، ففي ذلك إتلافٌ غير منتج للوقت، ويكاد يكون الفشل محتوماً علي المشـروع مهما كانت الإمكانات ضـخمة، والوسـيلة الأنجع والأكمل والأسرع إنتاجاً هي أن تُبني العقولُ والنفوس والعواطف والأفكار علي مقدّماتٍ أصليّةٍ بناءاً ينتج بشكلٍ طبيعيٍّ نتائج متوخّاة مستهدفة لدي المخطّط للتغيير..

فـإذا نجـح الغـازي في بنـاء عقول النخب والمفكّرين وفق موازينه ومعـاييره، فإنّها سوف تتعامل مع المعلومات والمشاهـدات والمعالجات ضمن تلك الموازين والمعايير، وبالتالي فهي ستنتج ما يرومه الغازي

ص: 66

ويخطّط له، ويتركه يفكّر كما يحلو له، لأنّه واثقٌ أنّ النتيجة سوف لن تكون إلّا ما يريد وبالطريقة التي يفكّر بها هو، وأنّه سيستنتج ما يستنتجه الغازي لاتّحاد المقدّمات!

وقد فعلوا هذا مع قيام سيّد الشهداء (عليه السلام) ، إذ أنّهم تعاملوا معه كثورةٍ أرضيّةٍ محكومة بموازين الثورات الأرضيّة، علي نسق الثورة الفرنسيّة وغيرها من الثورات في العالم بعد عصر الصناعة إلي يوم الناس هذا.

وفي زمنٍ انتشرت فيه شعارات التحرّر والحرّيّة والعدالة والمساواة، سواءً الّتي نادت بها الثورة الفرنسيّة والعالم الأوربيّ أو ما نادت به الثورة الروسيّة، وشهد العالم مواكبة التقدّم العلميّ والصناعيّ والتكنلوجيّ وازدهار المدنيّة والتطوّر، فكانت الشعارات البرّاقة الخلّابة الّتي جذبت إليها الناس في مجتمعات الشرق المعذّبة الرازحة تحت نَير الظلم والجور والفقر والتخلّف والجهل والظلام والبداوة..

فكان لابدّ من مسايرة التطوّر ومماشاة النهضة والثورة الّتي اجتاحت العالم، وتقديم النماذج الّتي تحمل القيَم والمثل الّتي تضاهي النموذج الّذي اكتسح المجتمعات والشباب، وتؤصّل له وتؤسّس وتمحو الهزيمة وتقلب التخلّف إلي السبق في تقديم المثل الأعلي لجميع الشعارات المطروحة في ثورات العهد الجديد والعصر العتيد.

فكانت طريقة المستشرقين طريقةً مؤثّرة، إذ أنّ التعامل مع التاريخ الإسلاميّ كحوادث أرضيّة اجتماعيّة سياسيّة بحتة يقدّم النموذج الأرقي في المناداة بالمساواة والعدالة والحرّيّة، مع شيءٍ من التنقيح

والتشذيب والتهذيب، إذ لا يمكن أن تكون الحرّيّة _ مثلاً _ في المجتمع الإسلاميّ الغابر كالحرّيّة في المجتمع الأوربيّ المعاصر.

ومن خلال هذه المتبنّيات والأفكار والرؤي والتعاريف الغربيّة للثورة ومقوّماتها وأسبابها وظروفها ونتائجها، تفتّقت أفكار المفكّرين والكتّاب والمثقّفين، وجرت أقلامهم وانطلقت ألسنتهم، فتناولوا تاريخ الإسلام وشخصيّاته وقيام سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فراحوا يبحثون له عن أسباب ومقوّماتٍ ودوافع وظروفٍ ونتائج أرضيّةٍ بحتة وآثار اجتماعيّة وسياسيّة محضة..

وبقيَت ثُلّةٌ من المؤمنين الملتزمين من النخب والمفكّرين الّذينن حاولوا مزج البُعد الغيبيّ بالبعد الأرضيّ، بيد أنّ المنهج كان قد ترسّخ وبثّ أُسسه في أعماق الكيان، لذا تجد البُعد التحليليّ الاجتماعيّ والسياسيّ يخيّم علي الدراسات مهما كانت تريد أن تُقحم العامل الغيبيّ، فهي لا تصيخ له ولا تصغي ولا توظّفه إلّا حين تعييها السبل وتغلق عليها أبواب الأفكار وتنكبس في موقفٍ من مواقف سيّد الشهداء (عليه السلام) لا يمكن تفسيره بالعوامل الأرضيّة بحال، فتضطرّ للرضوخ والاستسلام، فتلجأ إلي العامل الغيبيّ..

أمّا أصل البحث والتحليل والتعليل واستخلاص النتائج وتجميع الشواهد وملاحقة الأحداث والظروف، فإنّه يكون علي أساس دراسة الثورات وفق الموازين الأرضيّة!

مقوّمات الثورة

لقد أسـهبوا في بيان مقوّمات الثورة، سواءً من خلال التعاريف الّتي قدّموها لها، أو من خلال الدراسات والتفاصيل الّتي عالجوها من خلال دراسة العيّنات والشواهد المكتشفة بالتحليل والملاحظة الميدانيّة.

ويمكن تلخيص ما ذكروه وما يمكن ملاحظته في الثورات المعاصرة بما يلي:

إنّ كـلّ ثورةٍ يُفترَض فيها وجود حكمٍ ظالمٍ غاشمٍ جائرٍ علي عامّـة الشـعب أو الأكثريّـة الساحقـة فيه، وفسادٍ مستشـرٍ في كلّ مرافق الـدولة والنظام والحياة العامّـة، وحرمانٍ يعيشه أغلب الناس، وتسـلّطٍ وتفرّدٍ بالحكم والسـلطان من قِبل واحدٍ أو حزبٍ أو جماعةٍ أو فئةٍ معيّنة، ربّما يكون ذلك بسبب عجز الدستور أو فشله أو تضمّنه لموادّ جائرة غير موزونة، فيتذمّر الناس ثمّ يستشري التذمّر.

فتتكوّن شـعاراتٌ فيهـا مـا يُرضـي الناس ويحقّق آمالهم ومطالبهم ويلبّي احتياجاتهم، فيقوم لها قائـدٌ (شـخصٌ أو حزبٌ أو كتلـةٌ) تتوفّر فيه المؤهّلات، أو تؤاتيه الظروف بحيث يستجيب له الجمهور فيفرزه المجتمع لأيّ سـبب كان، فيرفع تلك الشـعارات ويدعو إلي تغيير الوضع القائم السـيّء إلي وضع جديـد يتطلّع إليه الجمهور، فيقع الصـراع بين السـلطة الحاكمـة والنظام الحاكم والأفراد المتسـلّطين من قمّة الهرم فمادون، وبين الجمهور المنظوي تحت القيادة المقبولة لديه.

ص: 69

هـذا باختصار بغضّ النظر عن الاختلاف في تفسـير المصـطلحات، كـ- (الظلم) و(الحرمان) و(العدالـة) و(الحرّيّـة) وغيرها من الكلمات الدلاليّة الّتي يختلف الناس في تفسيرها حسب معتقداتهم ومذاهبهم الفكريّة ومتبنّياتهم..

فلابدّ للثورة من أركان، يمكن فهرستها:

1 _ وضعٌ قائمٌ غير مرضيّ.

2 _ أُمّة (شعب) أو أكثريّة متذمّرة غير راضية بالوضع القائم، تنزع إلي التمرّد والتغيير.

3 _ مطالب وشعارات وحاجيات وأهداف منشودة يتوخّي الشعب أو الأكثريّة تحقيقها (ربّما تنتظم فيما بعد في دستور).

4 _ قائد يجمع كلمة الناس ويوحّد صفّهم، يتبنّي ما تتبنّاه قواعده وجمهوره.

وربّمـا أقـدم القائـد _ سواءً كـان فرداً أو حزباً أو تكتّلاً _ علي توعيـة الناس وتحريضـهـم والتأثير علي أفكارهم، بحيث يُلفتهم إلي وضـعهـم السيّء أو التطلّع إلي وضع أفضل.

فينتج اجتماع هذه الأركان صراعاً بين الوضع القائم والوضع المنشود.

*****

هـذا باختصارٍ شديـدٍ وإشارةٍ سـريعة، وثمّـة مقـدّمات أُخري ربّما كانت من الأهمّيّة بمكان نؤجّل الحديث عنها، علي أمل التوفيق لذكرها فيمحلّها إن شاء الله، وقد بنينا البحث كلّه علي الاختصار والاكتفاء بالإشارات.

دواعي خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة

اشارة

يمكن تقسيم الظروف والدواعي لخروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة إلي قسمين، نكتفي بالإشارة إليهما:

القسم الأوّل: دواعي بعيدة المدي

اشارة

وهي تنقسم إلي مديَين:

المدي الأوّل: منذ صدر الإسلام

اشارة

لقد كان خطّ الكفر والشرك ممتدّاً يسير مع مسيرة الإنسان موازياً لها، بيد أنّنا لم نلحظ لخطّ النفاق ظهوراً واضحاً قبل الإسلام، إذ كان الأنبياء يدعون أقوامهم إلي الإسلام، فإمّا أن يقبلوا فيدخلوا في دائرة الإيمان، وإمّا أن يرفضوا فيعادوا الإسلام والمؤمنين.. أمّا أن يُظهِر بعضُهم الإسلام ويُبطِن الكفر ويعيش بين المسلمين ويعمل للكافرين، فهذا ما لم نجده كظاهرةٍ تحدّث عنها القرآن في إخباراته وقصصه عن الأُمم الماضية.

وبعد أن عرف المشركون أنّ سيّد الأنبياء وأشرفهم جاء بالرسالة

ص: 71

الخاتمة، وأن لا موضع للشرك بعد بعثة النبيّ الأمين (صلي الله عليه و آله) وتحصين الإسلام بالأئمّة المعصومين (عليهم السلام) ، اضطرّ المشركون للدخول في الإسلام مُرغَمين، لئلّا تُمحي آثارهم وتُستأصل شأفتهم وتُجتثّ جذورهم فلا تبقي لهم باقية.. فأظهروا الإسلام وأضمروا الشرك والكفر والطغيان، ليتمكّنوا من قلب الدين من الداخل، والإبقاء علي العناوين الكبري وتغيير معانيها، فحرّفوا معاني القرآن، وشوّهوا معالم الدين، وخدعوا الناس فجعلوهم يعبدون الله علي سُنّة الوثنيّين، وكسّروا الأصنام الحجريّة وحطّموهما وأقاموا محلّها الأوثان البشريّة الّتي أزاحت معالم التوحيد وتربّعت علي عرش المجتمع باسم الله وببُردة رسول الله (صلي الله عليه و آله) المسروقة المغتصبة قهراً..

فانحرف الناس وتديّنوا بالدين الجديد، ولم يبقَ علي التوحيد وملّة إبراهيم الخليل ودين خاتم النبيّين إلّا الأوصياء بالحقّ وأتباعهم..

فاستشري الضلال، وعمّت الجهالة، وأطبق الظلام، وعادت الجاهليّة بثوبٍ جديدٍ لتؤمّ الناس في المساجد بدلاً عن بيوت الأصنام، ورجعت الأُمّة القهقري، فَسادَ الفساد، وخيّمت المفاهيم والأخلاقيّات البائسة، فظهرت الطبقيّة والتمايز القوميّ والإثنيّ والنعرات القبليّة والتفاوت المعيشيّ، وكلّ ما يلزم من انحسار شريعة الله وتحكيم شريعة الطاغوت..

وكان لابدّ من منقذٍ لهذه الأُمّة ومُنجٍ لهذا الدين، فكان قيام الحسين (عليه السلام) !

ص: 72

هذا باختصارٍ ما قامت عليها الكثير من النظريّات المتأخّرة في تفسير القيام الحسينيّ، وقد أطنب الكتّاب وأسهب الباحثون في تتبّع الشواهد والظواهر الاجتماعيّة الّتي أتت علي البنيان الّذي شيّد صرحَه رسولُ الله (صلي الله عليه و آله) ..

بيد أنّ هذا التفسير لا يستقيم ولا يصمد أمام النقد كثيراً، ولا يفسّر جميع المواقف والحركات والإقدام الحسينيّ المستمّر.

ويمكن الاقتصار هنا علي ذكر نموذجين من عجز هذا المنهج في تفسير القيام الحسينيّ:

النموذج الأوّل: وجود الحقّ بوجود حامله

إنّ هـذا الانحراف كان منـذ عصـر النبيّ (صـلي الله عليه و آله) ، وهـذا ما لا يشكّ فيه مطّلعٌ علي التاريخ وقارئٌ لكلام أهل البيت (عليهم السـلام) ، وقد مضـي علي هذا المنوال في عصـر إمامة أمير المؤمنين والإمام الحسن المجتبي وعشرة سنين من إمامة سيّد الشهداء (عليهم السـلام) ، وكلّ ما حدث من مجريات القيام الحسـينيّ إنّما كان في غضون خمسة أشهر وأيّام من أواخر إمامة سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وبعد أقلّ من أسبوعين من نزو القرد الأُمويّ المجدور يزيد علي المنبر.

فبماذا يفسّر القائلون بهذه النظريّة الصمت المطبق والمداراة والسكوت عن هذا الانحراف المروّع أيّام الأئمّة الّذين سبقوا سيّد الشهداء (عليه السلام) ، منذ عهد الرسول (صلي الله عليه و آله) إلي فترة عشرة أعوام من إمامة الإمام الحسين (عليه السلام) ؟!

ثمّ إنّ من تلا أيّام القيام الحسينيّ من الأئمّة (عليهم السلام) فعلوا ما فعل آباؤهم المعصومون، وهذا الإمام زين العابدين وسيّد الساجدين (عليه السلام) قد أنضج نحور القوم ورضيَ منهم رأساً برأس.. ثمّ جاء الأئمّة (عليهم السلام) ، وشاع وذاع صيتُهم، وتمكّنوا من أزمة المجتمع بعد أن فضح مقتل الحسين (عليه السلام) كلّ دسائس النفاق، فلم يغيّروا في دولة بني أُميّة بشيء، وخمد لهيب الأُمويّين فاتّقدت مشاعل العبّاسيّين، فقتلوا الأئمّة، وتتبّعوا العلويّين وأبادوا أتباعهم ولاحقوهم تحت كلّ حجرٍ ومَدَر، ثمّ وقعت الغَيبة، واستمرّ الطغيان حاكماً ممتدّاً في بيوت العثمانيّين، حتّي انتهت البنية ب- (سايكس بيكو)!

فما الذي تغيّر؟ ولا زال الانحراف حاكماً، ولا زالت السقيفة تظلّل علي الأُمّة، ولا زال عبدة العجل يملؤون الآفاق، ولا زال أتباع السامريّ يحكمون البلاد والعباد، ولا زال أتباع الحقّ والمتمسّكون بأغصان شجرة طوبي مشرَّدين مطرودين ملاحَقين ومهدَّدين في أعراضهم ودمائهم وبلدانهم!

أمّا بيان الانحراف عقائديّاً ونظريّاً وفكريّاً، فأوّل مَن قام به في وجوه الظالمين (كقيامٍ مُعلَن) السيّدةُ الصدّيقة الكبري (عليها السلام) بعد أن دافعت المغتصبين، حتّي مضت شهيدةً مظلومةً كسيرة الضلع محمرّة العين مسقطة الجنين مهتوكة الحريم..

ثمّ إنّ الحقّ والإمامة والأصالة قائمةٌ بشخص الإمام وذاته، ونظام الخلقة باقٍ علي النسق والدوام بوجود شخص الإمام، فما دام شخص

الإمام موجوداً فالتوحيد والنبوّة والدين بكلّ تفاصيله موجودٌ أبداً، سواءً كان قيامٌ أم لم يكن.. وقد استمرّ الدين والحقّ والعدل ونفي تحريف المضلّين بوجود الإمام زين العابدين (عليه السلام) ، إلي يوم الناس هذا حيث يقوم بوجود صاحب الأمر (عليه السلام) وإن كان غائباً عن أنظار الظالمين، كما كان قائماً من قبل الإمام السجّاد (عليه السلام) بوجود أصحاب الكساء الخمسة (عليهم السلام) .

النموذج الثاني: استمرار سيّد الشهداء (عليه السلام) في قيامه رغم انعدام المقوّمات

لقد تبيّن من خلال كلّ المؤشّرات والقرائن والشواهد ومجريات الأحداث أنّ المجتمع قد خذل الإمام وضيّعه ولم ينصره، وذلك في المدينة وفي مكّة وفي الطريق إلي العراق..

ولم يبقَ أيُّ شكٍّ أو ترديدٍ في حقيقة ما يسمّونهم ب- «المسلمين»، فقد خانوا الإمام وغدروا ونكثوا ما يسمّونه «البيعة»، سيّما بعد شهادة المولي الغريب مسلم بن عقيل (عليهما السلام) ، ووصول بلاغه بذلك، ووصول خبر خيانة الكوفة بقضّها وقضيضها.. وكان ذلك قبل أن يُؤسَر الإمام ويُحاصَر بقطعان عسكر ابن زياد في منطقة شِراف.. فلماذا استمرّ الإمام ميمّماً نحو كربلاء وقد مُنع من الدخول إلي الكوفة؟! وأخبر أن لا ناصر له ولا معين، وقد أُخِذ عليه وعلي مَن معه أقطار الأرض وآفاق السماء!

وهكذا تجد الكثير من المواقف والمشاهد لا يمكن تفسيرها إذا افترضنا أنّ المقصود من قيام سيّد الشهداء (عليه السلام) إنّما هو إسقاط حكمالأُمويّين،

وردم السقيفة علي مَن فيها..

وهـذا الموضوع له شُعبٌ وأعماقٌ بعيـدة الغَور، لا نريـد خوض غمارها الآن ولها موضعٌ آخر، كما لا نريـد أن نلغي هـذا الداعي من رأس، وإنّمـا نريـد أن نقول: لاـ يمكن أن يكون هو كلّ شـيءٍ وهو المفسِّر لجميع ما قام به سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) ، إذ إنّ البحث والتحليل والتعليل علي النسق المشـهور قام علي أساس التعريف المعاصـر لبعض المصـطلحات الّذي تأسّـس ونحت بعد الثورة الصـناعيّة والثورة الفرنسـيّة والثورة الروسـيّة (البلشـفيّة)، فتمّ تناول مجريات أحداث قيام سيّد الشهداء (عليه السلام) بناءاً علي التعاريف والمدارس التحليليّة والتعليليّة والبحثيّة المفسّرة لحركات القيادات والقواعد ضمن الأسباب والظروف والنتائج الأرضيّة، كما أشرنا إلي ذلك قبل قليل.

المدي الثاني: قُبيل القيام

إعداد معاوية وأخذه البيعة لنغله يزيد

لقد جهد معاوية وبذل غاية المجهود في تأمير نغله يزيد، وعميَ عن دنياه وآخرته في سبيل تحقيق ذلك، وهو القائل:

ولولا هواي في يزيد لأبصرتُ رشدي ((1)) وعرفت قصدي ((2))..

ص: 76

1- أنساب الأشراف 5 / 28، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 118، البدء والتاريخ للمقدسي: 6 / 7.

2- الفتوح لابن أعثم: 4 / 344.

وقال ابن أعثم:

فطلعت أثقال معاويـة ورحله إلي المدينة، فلمّا تقارب منها خرج الناس يلاقونه، وفيمن خرج إليه عبد الرحمان بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي، فلمّا نظر إليهم قطّب في وجوههم، ثمّ قال: ما أعرفني مفهمكم وطيشكم.

فقال له الحسين: مهلاً يا معاوية! فلسنا لهذه المقالة بأهل.

فقال: بلي والله، وأشدّ من هذا القول وأغلظ! فإنّكم تريدون أمراً، واللهُ يأبي ما تريدون.

قال: ثمّ دخل إلي المدينـة، فنزلها، وأقبل إليه الناس مسـلّمين، وجعل كلَّ مَن دخل إليه مسـلّماً شـكا إليه هؤلاء الأربعة، ثمّ جاؤوا ليدخلوا عليه فلم يأذن لهم، فتركوه ومضوا إلي مكّة ((1)).

*****

لقد بايع الناسُ في مختلف الأمصار للقرد المجدور أيّام ملك معاوية، وأطبقت البلاد علي الرعي في غابة الأُمويّين والتمسّك بأعواد الشجرة الملعونة والتمدّد في ظلّها الموبوء، وذلك في عهد إمامة سـيّد شـباب أهل الجنّة وسيّد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) ، وبعد شهادة السبطالأكبر الإمام الحسن (عليه السلام) ، إذ:

لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن إلّا يسيراً حتّي بايع ليزيد

ص: 77

1- الفتوح لابن أعثم: 4 / 235.

بالشام ([(1)]).

ولم يكن في الأمصار من يُحتمل فيه المخالفة إلّا الكوفة والبصرة، كما شهد بذلك المغيرة في حديثه مع معاوية عند بداية الترتيبات لبيعة يزيد، حيث قال له في حديثٍ طويل:

قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحدٌ يخالفك ([(2)]).

وفي سنة ستٍّ وخمسين شمل الذلُّ جميع البلدان، فبايع الناس ليزيد بولاية العهد بعد معاوية ([(3)])، فدعا الأخير بكتابٍ فقرأه علي الناس باستخلاف يزيد إن حدث به حدَث الموت ([(4)])، ولم يزل يروّض الناس علي بيعة يزيد في كلّ سنةٍ وفي كلّ موسم، ويعطي المقارب ويداني المتباعد، فمال الناس إلي بيعته وأجابوه إلي ذلك ([(5)]).

وبعد هلاك معاوية جدّد الناس بيعتهم لنغله يزيد، «فأصبح الناس فغدوا علي البيعة ليزيد، وطُلب الحسين» ([(6)]).. «وكتب إلي الأقاليم

1- الإمامة والسياسة لابن قُتيبة: 1 / 151.
2- الكامل لابن الأثير: 3 / 249، نهاية الأرب للنويري: 20 / 348.
3- أُنظر: الكامل لابن الأثير: 3 / 249، نهاية الأرب للنويري: 20 / 348.
4- الردّ علي المتعصّب العنيد لابن الجوزي: 31.
5- أُنظر: الفتوح لابن أعثم: 4 / 228، العِقد الفريد لابن عبد ربّه: 4 / 368.
6- ترجمة الإمام الحسين (عليه السلام) من الطبقات لابن سعد: 56، تاريخ مدينة دمشق: 14 / 207، ترجمة الإمام الحسين (عليه السلام) من تاريخ دمشق لابن عساكر، المحمودي: 200، تهذيب ابن بدران: 4 / 328، مختصر ابن منظور: 7 / 138، بغية الطلب لابن العديم: 6 / 2608، تهذيب الكمال للمزّي: 6 / 415، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 162.

بذلك فبايعوه» ((1))..تفيد هذه التعبيرات أنّ الأقاليم والأمصار قد خنعت وبايعت وانتهي الأمر، ولم نسـمع بتشكيكها في البيعة أو إبداء ما يخالف مقتضـياتها، والإطلاق في عبارات المؤرّخين تُشعِر بدخول جميع البلدان في ذلك من دون استثناء، من أقصي ثغور بلاد المسلمين إلي أقصاها، فلا حاجة للتنصيص علي أسمائها واحدةً واحدة.

تبييت معاوية قتل سيّد الشهداء (عليه السلام)

كان معاوية قد سـمع أحاديث النبيّ (صـلي الله عليه و آله) وأميرِ المؤمنين والإمام الحسن الأمين (عليهما السلام) ، وغيرها من الإخبارات الغيبيّـة، لاـ شـكّ في ذلـك، وعلم أنّ المُلك سـيكون له ولآل أُميّـة، القرودِ الّتي تنزو علي منبر النبيّ (صـلي الله عليه و آله) ، وأنّ ابنه قاتلُ ريحانـة النبيّ (صـلي الله عليه و آله) ، وهـذا ما يعود بالتالي إلي العامل الغيبيّ، فلا نخوض في حـديثه وقد بنينا بحثنا علي النصّ التاريخيّ ومجريات الأحداث الظاهريّة..

وفي النصوص التاريخيّـة شواهـد كافية علي عزم معاوية الأكيد أن يُثني الوسادة لنغله قبل أن يهوي في سـقر، ولو كلّفه ذلك قتل المهاجرين والأنصار، وسيّدِهـم وسيّدِ الكونين أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) ، وهدّد

1- حياة الحيوان للدميري: 1 / 91.

وأزبد وأرعد.

فبعد أن بايعه أهل العراق والشام [سنة 56]، سار إلي الحجاز في ألف فارس، فلمّا دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي أوّلالناس، فلمّا نظر إليه قال: لا مرحباً ولا أهلاً! بُدنةٌ يترقرق دمها والله مهريقه!

قال: مهلاً، فإنّي _ واللهِ _ لستُ بأهلٍ لهذه المقالة.

قال: بلي، ولشرٍّ منها.

ثمّ دخل علي عائشة، وقد بلغها أنّه ذكر الحسين وأصحابه فقال: لأقتلنّهم إن لم يبايعوا، فشكاهم إليها، فوعظَته وقالت له: بلغني أنّك تهدّدهم بالقتل، فقال: يا أُمّ المؤمنين! هم أعزّ من ذلك، ولكنّي بايعتُ ليزيد وبايعه غيرُهم، أفترَين أن أنقض بيعته [و]قد تمّت؟ قالت: فارفق بهم، فإنّهم يصيرون إلي ما تحبّ إن شاء الله. قال: أفعل ((1)).

وهذا المدي يبقي ضمن الفترة المتأخّرة المتاخمة لمُلك يزيد نفسه، إذ أنّها وقعت في أواخر أيّام ملك معاوية، ولأجل البيعة لنغله يزيد، فهي محسوبة في الدواعي الآتيّة الّتي سيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالي.

لكن لا يفوتنا هنا التنويه إلي أنّ معاوية كان قد عزم علي قتل سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وأنّ بيعة يزيد بالنسبة له لا يمكن أن يُتساهل فيها مع أحد، حتّي لو كان سيّد شباب أهل الجنّة (عليه السلام) !

1- الكامل لابن الأثير: 3 / 251، نهاية الأرب للنويري: 20 / 356.

القسم الثاني: الدواعي الآنيّة

إعتمـد الكتّاب والباحثون المتأخّرون نصّ الوصـيّة الّتي كتبها سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) لأخيه محمّـد ابن الحنفيّة، لبيان الدواعي الّتي أخرجَت خامس أصـحاب الكساء من المدينـة متوجّهاً إلي العراق، وجعلوها الأُسّ والجـذر الّذي تتفرّع منه كلّ الدواعي الأُخري، وكأن لا داعي سوي ما ورد في الوصيّة حصراً.

لذا سنتناول هذه الوصيّة بالبحث بشيءٍ من التفصيل، حيث سيتضمّن البحث فيها المرور علي الدواعي الأُخري.

ويمكن تقسيم البحث في هذه الوصيّة المغمورة سابقاً، المشهورة في هذا الزمان شهرةً عظيمة، إلي مستويين:

ص: 81

وصيّة سيّد الشهداء (عليه السلام) لأخيه محمّد ابن الحنفيّة

اشارة

نحاول استجلاء ما يتعلّق بالوصيّة واستكشاف معانيها ومغزاها ودلالاتها والتعرّف إلي سندها بفي عدّة مستويات:

المستوي الأوّل: البحث في السند والاعتبار

أوّل مَن حكي الوصيّة:

يبدو من خلال الفحص والتتبّع أنّ أوّل مَن حكي هذه الوصيّة إنّما هو ابن أعثم الكوفي (توفّي حدود 314 ه‍) في الفتوح، ولم نجدها عند أيّ واحدٍ من المؤرّخين والرواة والعلماء ممّن سبق ابن أعثم، أو ممّن عاصره كالطبري.

وابن أعثم نفسه إنّما يرويها دون أيّ إسنادٍ حسب فحصنا، إذ يكرّر هو لفظة: «قال»، ثمّ يحكي، ويقصد بها نفسه كما يبدو ذلك جليّاً واضحاً من أوّل كتابه الفتوح.

ثمّ تختفي الحكاية تماماً، فلا تجد لها أثراً في الكتب والمصادر بعد ابن أعثم إلي القرن السادس، حيث نقلها عنه الخوارزمي (ت 568 ه‍) في

المقتل، وفيها شيءٌ من التصحيح، سنسمعه بعد قليل.

حكاية ابن شهرآشوب:

اشارة

وقد نقل منها ابن شهرآشوب عبارةً دون ما سبقها ولا ما لحقها، وبترتيبٍ خاصٍّ كردٍّ علي المعترضين علي سيّد الشهداء (عليه السلام) ، قال ابن شهرآشوب:

وكان محمّد ابن الحنفيّة وعبد الله بن المطيع نهياه عن الكوفة، وقالا: إنّها بلدةٌ مشؤومة، قُتِل فيها أبوك، وخُذِل فيها أخوك، فالزم الحرم؛ فإنّك سيّد العرب، لا يعدل بك أهل الحجاز، وتتداعي إليك الناس من كلّ جانب.

ثمّ قال محمّد ابن الحنفيّة: وإن نبَتْ بك لحقْتَ بالرمال وسعف الجبال، وتنقّلْتَ من بلدٍ إلي بلدٍ حتّي تفرق لك الرأي، فتستقبل الأُمور استقبالاً، ولا تستدبرها استدباراً.

وقال ابن عبّاس: لا تخرج إلي العراق، وكُنْ باليمن؛ لحصانتها ورجالها.

فقال (عليه السلام) : إنّي لم أخرج بطراً ولا أشراً ولا مُفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجتُ أطلب الصلاح في أُمّة جدّي محمّد (صلي الله عليه و آله) ، أُريد آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر، أسير بسيرة جدّي وسيرة أبي عليّ ابن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أَولي بالحقّوهو

أحكم الحاكمين ((1)).

ويُلاحَظ في نصّ ابن شهرآشوب عدّة ملاحظات:

الملاحظة الأُولي: التلفيق

ينقل ابن شـهرآشوب أوّلاً كلام ثلاثةٍ من المعترضين علي سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وهم: ابن الحنفيّة وابن مطيع وابن عبّاس، ثمّ يقتطع نصّاً من الوصيّة فيجعله ردّاً عليهم جميعاً بلفظ: «فقال»، وكأنّه قولٌ له وليست وصيّة!

الملاحظة الثانية: حكايته عن ابن أعثم والخوارزمي

يعتمد ابن شـهرآشوب في رواية مقتل سـيّد الشـهداء (عليه السلام) كثيراً علي الخوارزمي وابن أعثم، كما يبدو جليّاً لمن تتبّعه، وقد لاحظنا ذلك بوضوحٍ عند تحقيق كتاب المناقب الّذي طُبع في اثني عشر مجلّداً.

الملاحظة الثالثة: ترميم النصّ

إعتاد ابن شـهرآشوب علي النقل بالمعني، أو ترميم النصّ وتقليمه والانتقاء منه، وعـدم الالتزام الـدقيق والنقل الحرفيّ عن المصادر، وهـذا مُلاحَظٌ بوضوحٍ لمن تتبّع منهجه (رحمة الله) في النقل.

وربّما كان هو أوّل مَن شذّب وهذّب وحذف بعض ما لا يليق أويُشكّل هفوةً وخللاً في النصّ المحكيّ عن ابن أعثم، من قبيل عبارة:

1- المناقب لابن شهرآشوب: 10 / 143 بتحقيق: السيّد علي أشرف.

«وأسير بسيرة جدّي محمّد (صلي الله عليه و آله) ، وسيرة أبي عليّ بن أبي طالب، وسيرة الخلفاء الراشدين المهديّين رضي الله عنهم»..

ولا ـ يخفي أنّ ابن شهرآشوب ينقل عن المقتل للخوارزمي (وهذا ما لاحظناه بالتتبّع)، وهو معاصرٌ له، إذ إنّ وفاة الأوّل سنة 588 ووفاة الأخير 568.

حكاية ابن أبي طالب ومَن بعده

ثمّ تختفي الحكاية مرّةً أُخري بالكامل، حتّي يرويها محمّد بن أبي طالب (كان حيّاً إلي سنة 955 ه‍)، وهو يصرّح أنّه يروي عن ابن أعثم، حيث يبدأ بسرد الأحداث من هلاك معاوية فيقول: «وذكر الإمام أحمد ابن أعثم الكوفي أنّ معاوية ...»، ثمّ يستمر بالرواية بلفظ: «قال: قال» ((1))، وقد شملها شيءٌ من الترميم الّذي فعله ابن شهرآشوب في مناقبه، كحذف ما يخصّ الخلفاء.

ثمّ حكاها الطريحي (ت 1085 ه‍) في المنتخب.

ثمّ حكاها المجلسي في بحار الأنوار، ومثله البحراني في عوالم العلوم، وكلاهما صرّحا في النقل عن ابن أبي طالب ((2)).

1- أُنظر: تسلية المجالس لابن أبي طالب: 2 / 135.

2- أُنظر: بحار الأنوار: 44 / 328، عوالم العلوم للبحراني: 17 / 177.

غريبةٌ جدّاً

من الغريب جدّاً والمدهش حقّاً أن يُعرِض علماء الشيعة ومؤرّخوهم جميعاً _ حسب فحصنا _ عن رواية هذه الوصيّة أو مقاطع منها، سواءً مَن أرّخ للطفّ ولسيرة الأئمّة (عليهم السلام) ، ومَن استدلّ بسيرة سيّد الشهداء (عليه السلام) وأقواله لأيّ غرضٍ من الأغراض، أو سجّل أقوال الأئمّة (عليهم السلام) وروي أحاديثهم، كالمشايخ أصحاب الكتب الأربعة ومَن سبقهم ومن لحقهم، كابن قولويه والمفيد والطبرسيّ وابن شعبة والسيّد ابن طاووس وكثيرٍ من علمائنا الأبرار الأخيار.

والحال أنّ بعضهم يعتمد ابن أعثم أو الخوارزميّ في نقل وقائع الطفّ، كالسيّد ابن طاووس في اللهوف مثلاً.

وكذا فعل مؤرّخو العامّة، فلم يذكرها أحدٌ حسب فحصنا، لا ممّن سبق ابن أعثم، من قبيل ابن سعد والبلاذري واليعقوبي وغيرهم، ولا ممّن عاصره، كالطبري، ولا من جاء بعده عدا الخوارزمي.

أليس في إعراض كلّ هؤلاء العلماء والمؤرّخين مجالٌ واسعٌ للتأمّل وباعثٌ ومسوّغٌ ناهض للتريّث والتساؤل؟! وقد اجتمع تفرّد ابن أعثم والإعراض معاً!

فهي بالتالي قد بُليَت بثلاث بلايا: «التفرّد»، حيث تفرّد بنقلها ابن أعثم، و«الإعراض»، حيث أعرض عنها علماء الشيعة الأفذاذ الكبار ومؤرّخو العامّة، «والإرسال»، حيث رواها ابن أعثم من دون أيّ إسنادٍ ولا ذكر أيّراو.

إغفال السند

ذكرنا في مجموعة المولي الغريب مسلم بن عقيل (عليهما السلام) في الجزء الأوّل تحت عنوان «المدخل»، الموازينَ الّتي يُقبَل أو يُردّ علي أساسها السند أو المتن التاريخيّ، وعرفنا هناك أنّ صحّة السند التاريخيّ أو سقمه ليس إلّا شاهداً أو قرينةً علي الصحّة أو مقوّياً لها، والمناط الأصليّ إنّما هو صحّة المتن وفق الموازين المقرّرة من عدم المخالفة والتعارض مع الكتاب والسنّة والأُصول الموضوعة والمسلَّمات العقائديّة والمعرفيّة، وغيرها من الموازين المذكورة في محلّها.

وذكرنا هناك أيضاً إمكانيّة قبول المتن الموافق للموازين وإطراح الزيادات المخالفة.

وبناءاً علي ذلك ربّما يقال: إنّ التركيز علي ضعف السند أو انعدامه في قصّة الوصيّة هذه وتفرّد ابن أعثم لا يضرّ وفق الموازين المقرّرة، بل قد يقال: حتّي إعراض العلماء والمؤرّخين عنها لا يضعّفها.

وسنبني البحث علي هذا، ونغضّ النظر عن السند تماماً، وندخل إلي تفاصيل دلالات الوصيّة بغضّ النظر عن سندها.

المستوي الثاني: حوار ابن الحنفيّة وسيّد الشهداء (عليه السلام) عند المؤرّخين

اشارة

ورد الحوار بين سيّد الشهداء (عليه السلام) وابن الحنفيّة في المصادر المتقدّمة والمعاصرة والمتأخّرة عن ابن أعثم، دون ذكرٍ للوصيّة التي تفرّد بنقلها الأخير، وسوف نذكر نماذج لهذا الحوار وفق ما ورد في تلك المصادر لتتّضح الصورة، ولكي لا نُطيل ونُثقِل نقتصر علي ذكر عيّنات فقط دون

الاستطراد في إحصاء المصادر:

نموذج متقدّم: البلاذري (ت 279)

إنّ أوّل نصٍّ وجدناه لهذا الحوار رواه البلاذري، وهو لم يتقدّم كثيراً علي ابن أعثم، بيد أنّنا لحظنا تاريخ الوفاة، وإن تقارب العصران، بل هما معاصران.

فإنّه [محمّد ابن الحنفيّة] قال له [للحسين بن علي (عليهما السلام)]: يا أخي! أنت أعزّ الناس علَيّ، تنحَّ عن مروان ببيعتك وعن الأمصار، وابعث رسلك إلي الناس، فإن أجمعوا عليك حمدت الله علي ذلك، وإن أجمع الناس علي غيرك لم يُنقِص اللهُ دِينك ومروءتك وفضلك، إنّي أخاف أن تدخل بعض الأمصار ويختلف الناس فيك ويقتتلون، فتكون لأوّل الأسنّة، فإذا خيرُ الناس نفساً وأُمّاً وأباً قد ضاع دمُه وذُلَّ أهلُه.

قال: وأين أذهب يا أخي؟ قال: تنزل مكّة، فإن اطمأنّت بك الدار وإلّا لحقتَ باليمن، فإن اطمأنّت بك وإلّا لحقتَ بشعفالجبال، حتّي تنظر إلي ما يصير أمر الناس ويفرق لك الرأي ((1)).

نموذج معاصر الطبري (ت 310)

فإنّه [محمّد ابن الحنفيّة] قال له [للحسين بن علي (عليهما السلام)]: يا أخي، أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم علَيّ، ولستُ أدّخر

1- جمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 5 / 317.

النصيحة لأحدٍ من الخلق أحقّ بها منك، تنحَّ بتبعتك عن يزيد ابن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثمّ ابعث رسلك إلي الناس فادعُهم إلي نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله علي ذلك، وإن أجمع الناس علي غيرك لم يُنقِص اللهُ بذلك دِينك ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك، إنّي أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتي جماعةً من الناس، فيختلفون بينهم، فمنهم طائفةٌ معك وأُخري عليك، فيقتتلون، فتكون لأوّل الأسنّة، فإذا خير هذه الأُمّة كلّها نفساً وأباً وأُمّاً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً.

قال له الحسين: فإنّي ذاهبٌ يا أخي.

قال: فانزل مكّة، فإن اطمأنّت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبَتْ بك لحقتَ بالرمال وشعف الجبال، وخرجتَ من بلدٍ إلي بلدٍ حتّي تنظر إلي ما يصير أمر الناس وتعرف عند ذلك الرأي،فإنّك أصوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأُمور استقبالاً، ولا تكون الأُمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً.

قال: يا أخي، قد نصحتَ فأشفقت، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موفّقاً ((1)).

نموذج متأخّر: المفيد، المجلسي، البحراني، وغيرهم

فإنّه لمّا علم عزمَه علي الخروج عن المدينة، لم يدرِ أين

1- تاريخ الطبري: 5 / 341.

يتوجّه، فقال له: يا أخي، أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم علَيّ، ولستُ أدّخر النصيحة لأحدٍ من الخلق إلّا لك، وأنت أحقّ بها، تنحَّ ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثمّ ابعث رسلك إلي الناس فادعُهم إلي نفسك، فإن بايعك الناس وبايعوا لك حمدت الله علي ذلك، وإن اجتمع الناس علي غيرك لم يُنقِص الله بذلك دِينك ولا عقلك، ولا تذهب به مروّتك ولا فضلك، إنّي أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار فيختلف الناس بينهم، فمنهم طائفةٌ معك وأُخري عليك، فيقتتلون، فتكون لأوّل الأسنّة غرضاً، فإذا خير هذه الأُمّة كلّها نفساً وأباً وأُمّاً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً.

فقال له الحسين (عليه السلام) : فأين أذهب يا أخي؟قال: انزل مكّة، فإن اطمأنّت بك الدار بها فسبيل ذلك، وإن ثبت بك لحقتَ بالرمال وشعف الجبال، وخرجتَ من بلدٍ إلي بلدٍ حتي تنظر إلي ما يصير أمر الناس إليه، فإنّك أصوب ما تكون رأياً حين تستقبل الأمر استقبالاً.

فقال: يا أخي، قد نصحتَ وأشفقت، وأرجو أن يكون رأيك سديداً موفّقاً ((1)).

إنّ هذا النصّ المتفَّق عليه تقريباً بغضّ النظر عن الاختلافات،

1- الإرشاد للمفيد: 2 / 32، بحار الأنوار: 44 / 326، العوالم للبحراني: 17 / 176، مناهل الضرب للأعرجي: 385، نفَس المهموم للقمّي: 71.

فإنّهم اتّفقوا علي المضمون، ولا نريد أن نُطيل بذكر النصوص من باقي المصادر ((1))، فإنّها جميعاً تروي هذا المعني بما فيها الفتوح، غير أنّها ترويها

ص: 92

1- تجارب الأُمم لمسكويه: 2 / 40: فأمّا محمّد ابن الحنفيّة فإنّه أتاه، فقال: يا أخي، أنت أعزّ خلق الله علَيّ، ولستُ أدّخرك نصيحتي، تنحّ عن الأمصار ما استطعت، ثمّ ابعث رسلك إلي الشام فادعُهم إلي نفسك، فإن بايعوك حمدت الله عليه، وإن اجتمع علي غيرك لم يُنقِص الله بذلك دِينك ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك، إنّي أخاف أن تأتي مصراً من الأمصار فيختلف الناس بينهم، فمنهم طائفةٌ معك والأُخري عليك، فيقتتلوا، فتكون لأوّل الأسنّة، فإذا خير هذه الأُمّة نفساً وأباً وأُمّاً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً. فقال له الحسين: فأين أذهب يا أخي؟ قال: انزل مكّة، فإن اطمأنّت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبَتْ لك لحقتَ بالرمال وشعف الجبال، وتنقّلتَ من بلدٍ حتّي يفرق لك الرأي، فتستقبل الأُمور استقبالاً وتستدبرها استدباراً. فقال: يا أخي، قد نصحتَ وأشفقت. الكامل لابن الأثير: 3 / 256: فإنّه قال له: يا أخي، أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم علَيّ، ولستُ أدّخر النصيحة لأحدٍ من الخلق أحقّ بها منك، تنحَّ ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعث رسلك إلي الناس وادعُهم إلي نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله علي ذلك، وإن أجمع الناس علي غيرك لم يُنقِص الله بذلك دِينك ولا عقلك، ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك، إنّي أخاف أن تأتي مصراً وجماعة من الناس فيختلفوا عليك، فمنهم طائفةٌ معك وأُخري عليك، فيقتتلون، فتكون لأوّل الأسنّة، فإذا خير هذه الأُمّة كلّها نفساً وأباً وأمّاً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً. قال الحسين: فأين أذهب يا أخي؟ قال: انزل مكّة، فإن اطمأنّت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نأت بك لحقتَ بالرمال وشعف الجبال، وخرجتَ من بلدٍ إلي بلدٍ حتّي تنظر إلي ما يصير أمر الناس ويفرق لك الرأي، فإنّك أصوب ما يكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأُمور استقبالاً، ولا تكون الأمور [عليك] أبداً أشكل منها حين تستدبرها. قال: يا أخي، قد نصحت وأشفقت، وأرجو أن يكون رأيك سديداً وموفّقاً إن شاء الله. نهاية الأرب للنويري: 20 / 380: فإنّه قال للحسين رضي الله عنهما: يا أخي، أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم علَيّ، ولستُ أدّخر النصيحة لأحدٍ من الخلق أحقّ بها منك، تنحَّ ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعث رسلك إلي الناس فادعُهم إلي نفسك، فإن بايعوك حمدت الله علي ذلك، وإن اجتمع الناس علي غيرك لم يُنقِص الله بذلك دِينك ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك، إنّي أخاف أن تأتي مصراً وجماعةً من الناس فيختلفون عليك، فمنهم طائفةٌ معك وأُخري عليك، فيقتتلون، فتكون لأوّل الأسنّة، فإذا خير هذه الأُمّة كلّها نفساً وأباً وأُمّاً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً. قال الحسين: فأين أذهب يا أخي؟ قال: انزل مكّة، فإن اطمأنّت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبَتْ بك لحقتَ بالرمال وشعف الجبال، وخرجتَ من بلدٍ إلي أُخري حتّي تنظر إلي ما يصير أمر الناس ويفرق لك الرأي، فإنّك أصوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأُمور استقبالاً، ولا تكون الأمور أبداً أشكل منها حين تستدبرها. قال: قد نصحتَ وأشفقت، وأرجو أن يكون رأيك سديداً موفّقاً إن شاء الله. مقتل الحسين لأبي مخنف (المشهور): 14: فإنّه قال: يا أخي، أنت أعزّ الناس علَيّ وأحبّهم وأكرمهم لديّ، ولستُ أنصح أحداً أحبّ إليّ منك ولا أحقّ بالنصيحة، فبحقّي عليك إلّا ما أبعدتَ شخصك عن يزيد (لعنه الله)، وإيّاك والتعرّض له دون أن تبعث دعاتك في الأمصار، يدعون الناس إلي بيعتك، فإن فعل الناس ذلك حمدت الله، وإن اجتمعوا إلي غيرك فلم يُنقص الله بذلك فضلك، وإنّي خائفٌ عليك أن تأتي مصراً من هذه الأمصار في جماعةٍ من الناس فيختلفون عليك، فتكون بينهم صريعاً، فيذهب دمك هدراً وتنتهك حرمتك. فقال الحسين (عليه السلام) : يا أخي، فإنّي أجتهدُ أنزل مكّة، فإن اطمأنّت بيَ الدار أقمتُ بها، وإن كانت الأُخري لحقت بالرمال وسكنت الجبال، وأنظر ما يكون من الناس، وأستقبل الأُمور ولا أستدبرها. ثمّ قال لأخيه محمّد ابن الحنفيّة: أحسن الله جزاك، لقد نصحتَ يا أخي وأحسنت.

بدون زيادة ابن أعثم.

المستوي الثالث: البحث في الدلالات

اشارة

إنّ ثمّـة مقـدّمات ونكات ضـروريّة ينبغي التقدّم بها قبل الخوض فيمتن الوصـيّة، إذ إنّها تُعين علي فهم دلالاتها، وربّما غيّرت المعني تماماً عند المتلقّي والقارئ لها:

النكتة الأُولي: النصّ وصيّة

اشارة

يبدو أنّ من الواضح بما لا يحتاج إلي مزيد بيانٍ أنّ المتن الوارد عن سـيّد الشـهداء (عليه السلام) إنّما هو وصيّةٌ مكتوبةٌ باشر الإمام الحسين (عليه السلام) بنفسه كتابتها، ثمّ طواها وختمها بخاتمه ودفعها إلي أخيه محمّد ابن الحنفيّة.

ويشهد لذلك صياغتها والتصريح فيها بالوصيّة، وطريقة التعامل معها، كما سيتّضح من خلال الشواهد الّتي سنذكرها فيما يلي:

ص: 94

الشاهد الأوّل: دعا بدواةٍ وكتب فيه

بعد أن دار الحوار بين الإمام (عليه السلام) وابن الحنفيّة، قال: «ثمّ دعا الحسين بدواةٍ وبياضٍ وكتب فيه ...».

فهي ليست خطبة في الملأ، ولا كلام لفظيّ دار بين الإمام (عليه السـلام) وبين أخيه أو رجلٍ آخر نطق به الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) وينتظر الردّ عليه أو التحاور فيه، وإنّما هو قطعة كُتبَت ليحتفظ بها.

الشاهد الثاني: التصريح بالوصيّة

لقد صرّح الإمام أبو الشهداء وسيّدهم (عليه السلام) بتعبيره عنها أنّها وصيّة، فقال في أوّلها: «هذا ما أوصي به الحسين بن عليّ بن أبي طالب لأخيه محمّد ابن الحنفيّة المعروف ولد عليّ بن أبي طالب»..ثمّ قال في آخرها: «هذه وصيّتي إليك يا أخي».

وفي هاتين العبارتين تصريحٌ واضحٌ لا لبس فيه، ولا يشكّ فيه ناظرٌ ولا يتردّد.

الشاهد الثالث: صياغة المقدّمة

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أوصي به الحسين بن عليّ بن أبي طالب لأخيه محمّد ابن الحنفيّة المعروف ولد عليّ بن أبي طالب:

إنّ الحسـين بن عليّ يشـهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شـريك له، وأنّ محمّداً عبدُه ورسوله، جاء بالحقّ من عنده، وأنّ الجنّة حقٌّ والنار حقّ، وأنّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مَن في القبور».

وهذه البداية واضحةٌ لائحة، تُخبر عن صياغة الوصيّة المعتادة عند

ص: 95

المسلمين منذ القديم، وسيأتي الحديث عنها ضمن الكلام عن فقرات الوصيّة إن شاء الله تعالي.

الشاهد الرابع: ختمها

قال: ثمّ طوي الكتابَ الحسين، وختمه بخاتمه، ودفعه إلي أخيه محمّد ابن الحنفيّة.

طوي سيّد الشهداء (عليه السلام) الكتاب، وختمه بخاتمه، ودفعه مطويّاً مختوماً، وهو ما يُفعَل بالوصيّة عادة.

*****من الواضح أنّ الوصيّة إنّما تُفتَح بعد الوفاة.. ونحن لا ندري ما إذا كان ابن أعثم يروي لنا نصّ الوصيّة بعد شهادة الإمام السبط (عليه السلام) ، كأن يكون قد رواها عن ابن الحنفيّة بعد أن فتحها حينما بلغه خبر استشهاد الإمام المظلوم (عليه السلام) ، فقال مثلاً: إنّ البياض الّذي كتبه سيّد الشهداء (عليه السلام) عند توديعي والوصيّة الّتي ختمها ودفعها لي كانت تحتوي علي هذا النصّ؟!

أو أنّه يرويها مباشرة، وأنّ الإمام حينما كتبها بلغت الراوي قبل أن يختمها ويدفعها لأخيه؟

وكيف كان، فإنّ الوصيّة لا يمكن أن تحتوي علي منهاج عملٍ يريد أن يفعله الإنسان في حياته، وإنّما يكتب فيها ما يريد أن يبقي من بعده..

وكيف يضمّنها منهاجاً وبرنامجاً يريد أن يحقّقه ويسعي إلي تطبيقه

ويأمل أن ينفّذه وهو عازمٌ علي الرحيل، وعالمٌ أنّه سوف لا يبقي في هذه الدنيا؟!

الوصيّة تُفتَح بعد الموت.. فإذا مات الرجل فما يعني أن يقول: إنّي أُريد أن أفعل كذا وكذا؟

سيّما إذا لاحظنا استخدام صيغة النفي ب- «لم».. «لم أخرج».. وهي صيغةٌ تفيد الماضي، واستخدام صيغة الماضي في قوله: «وإنّما خرجتُ»، باعتبار أنّ الوصيّة ستُفتَح بعد شهادته، فهو يتحدّث ويُخبر عن شيءٍ مضي، ويفسّر خروجاً انقضي.ولم يستخدم سيّد الشهداء (عليه السلام) _ وهو معدن البلاغة والفصاحة ومالك اللغة _ صيغة المضارع الدالّة علي الاستقبال، ليُستفاد منها برنامج عمله وخطّة حركته وقيامه وما يروم من إقدامه علي هذا الفعل، فيقدّم للناس ما هو عازمٌ علي فعله إذا ما استولي علي الحكم واستتبّ له الأمر، وإنّما يفسّر لهم ما هم عاجزون عن إدراكه وتفسيره، بعد أن وقعت الواقعة وقُضيَ الأمر!

فلا يمكن أن يُستفاد من هذه الوصيّة كبرنامجٍ لخطّةٍ مستقبليّةٍ رسمها سيّد الشهداء (عليه السلام) ليعمل بها نفسه، كيف وهي وصيّة؟ إنّما سيطّلع علي مضامينها ابنُ الحنفيّة وغيره بعد أن يُجاور سيّد الشهداء ربَّه ويتسنّم ذُري الجِنان وينال الدرجة الّتي لا ينالها إلّا بالشهادة..

فهي ردٌّ علي الافتراءات والمزاعم وتفسيرٌ لما حصل، وليست برنامج عملٍ كما يصوّره البعض، وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل عمّا قريبٍ إن

شاء الله تعالي.

النكتة الثانية: المخاطَب بالوصيّة

اشارة

توجّهَت هذه الوصيّة _ كما يبدو واضحاً للمتأمّل فيها _ إلي مخاطَبَين:

المخاطَب الأوّل: محمّد ابن الحنفيّة

يبدو من هذه الوصيّة أنّها موجَّهةٌ بالأساس إلي محمّد ابن الحنفيّة،وهذا ما صرّح به سيّد الشهداء (عليه السلام) نفسه، إذ قال في أوّلها: «هذا ما أوصي به الحسين بن عليّ بن أبي طالب لأخيه محمّد ابن الحنفيّة ...».

وقال في آخرها: «هذه وصيّتي إليك يا أخي».. ثمّ سلّم عليه بضمير الخطاب: «والسلام عليك».

ويشهد لذلك أيضاً أنّه (عليه السلام) طواها وختمها ودفعها إلي أخيه بالخصوص دون غيره.

فهو المخاطَب الوحيد، أو إن شئتَ فقُل: هو المخاطَب الأساس، وربّما كان هو المخاطَب وقصد معه غيره، من باب (إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة).

المخاطَب الثاني: مَن اتّبع الهدي

ختم الوصيّة سيّد الشهداء (عليه السلام) بقوله: «والسلام عليك وعلي مَن اتّبع الهدي»..

أشعر إفراد ابن الحنفيّة بالسلام، وعزله عن السلام الثاني العامّ أنّ

السلام الثاني غير السلام الأوّل؛ إذ أنّ ابن الحنفيّة ممّن اتّبع الهدي، فيمكن أن يكون داخلاً تحت العنوان العامّ.

بيـد أنّ قوله: (وَالسَّلامُ عَلي مَنِ اتَّبَعَ الْهُدي) آيـةٌ قرآنيـةٌ وردت في سورة طه، فيما علّم الله موسي وهارون ما يقولانه لفرعون عند لقائه، فحمّلهما رسالةً لفرعون فقال: (فَأْتِياهُ فَقُولا إِنّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَني إِسْرائيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلي مَنِ اتَّبَعَ الْهُدي).

ولمّا كان فرعون ليس ممّن اتّبع الهدي في تلك اللحظة، خاطباه بهذا الخطاب لرعاية آداب الحوار.

وقد استخدمها النبيّ (صلي الله عليه و آله) الكريم في غير موضعٍ حينما كتب رسالةً إلي ملوك الفرس والروم وغيرهم ممّن لا يؤمن بالله العظيم.

فهو خطابٌ لا يُخاطَب به المؤمنين عادة، وإنّ لذلك شواهد وأمثلة كثيرة، فإذا خوطب به مؤمنٌ يكون خلاف شأنه ولا يليق بمقامه، ويفيد الاعتراف بإيمانه، لأنّه مؤمن، والمؤمن يُسلَّم عليه مباشرة، كما فعل سيّد الشهداء (عليه السلام) في سلامه علي أخيه ابن الحنفيّة.

يلزم ممّا تقدّم أن يكون المخاطَب الآخر الّذي سلّم عليه سيّد الشهداء (عليه السلام) في آخر وصيّته هو مَن يستحقّ هذا النوع من السلام ويُخاطَب بمثل هذه الصيغة.

والمحصَّل من ذلك أنّ المخاطَب الآخر ليس من المؤمنين، وإنّما هو من المتمرّدين علي الله وعلي رسوله وعلي أئمّة الهدي (عليهم السلام) .

فالمؤمن لا يحتاج إلي بيانٍ وتفسيرٍ لقيام سيّد الشهداء (عليه السلام) وحركته؛ لأنّه معتقدٌ بإمامه، واثقٌ من أنّه لا يصدر إلّا عن الله تبارك وتعالي، وهو يعتقد بعصمته، فلا يتّهمه بالأشر والبطر والإفساد والظلم..

وإنّما يفعل ذلك مَن يجهل الإمام (عليه السلام) أو يخاصمه ويعاديه ويتّهمه ويفتري عليه، وقد ردّ عليه الإمام (عليه السلام) بوصيّته، وسلّم عليه بشرط أنيتوب ويثوب ويتّبع الهدي فيشمله السلام، وإلّا فلا.

النكتة الثالثة: مكان صدور الوصيّة

إنّ من المهمّ جدّاً تحديد مكان كتابة الوصيّة وصدورها، لِما له من أثرٍ فاعلٍ في فهم النصّ وتحديد وجهته وأغراضه.

فقد صدرت الوصيّة _ كما هو واضحٌ من المتن _ في المدينة المنوّرة، وفي الساعة الأخيرة قبل أن يتوجّه سيّد الشهداء (عليه السلام) بمَن معه في ركب الشهادة الفاتح إلي مكّة المكرّمة.

قال ابن أعثم:

وتهيّأ الحسين بن علي، وعزم علي الخروج من المدينة، ومضي في جوف الليل إلي قبر أُمّه فصلّي عند قبرها وودّعها، ثمّ قام عن قبرها وصار إلي قبر أخيه الحسن ففعل مثل ذلك، ثمّ رجع إلي منزله، وفي وقت الصبح أقبل إليه أخوه محمّد ابن الحنفيّة ((1)).

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 19.

وفي هذا تصـريحٌ أنّ مجيء محمّد ابن الحنفيّة كان عندما عزم سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) علي الخروج من المدينة، وبعد أن زار قبر أمّه وأخيه وودّعهما الوداع الأخير.

وذكر أيضاً قول أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) لأخيه ابن الحنفيّة: «وإنّي قدعزمتُ علي الخروج إلي مكّة».

وقال بعد أن ذكر وداعه مع أخيه ابن الحنفيّة: «وخرج في جوف الليل يريد مكّة بجميع أهله» ((1)).

النكتة الرابعة: زمان كتابة الوصيّة

قال ابن أعثم:

وتهيّأ الحسـين بن عليّ وعزم علي الخروج من المدينة، ومضـي في جوف الليل إلي قبر أُمّه فصلّي عند قبرها وودّعها، ثمّ قام عن قبرها وصار إلي قبر أخيه الحسن ففعل مثل ذلك، ثمّ رجع إلي منزله، وفي وقت الصبح أقبل إليه أخوه محمّد ابن الحنفيّة ((2)).

وقال في آخر الوصيّة:

ثمّ طوي الكتابَ الحسين وختمه بخاتمه، ودفعه إلي أخيه محمّد ابن الحنفيّة، ثمّ ودّعه وخرج في جوف الليل يريد مكّة

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 21.

2- الفتوح لابن أعثم: 5 / 19.

بجميع أهله، وذلك لثلاث ليالٍ مضين من شهر شعبان في سنة ستّين، فجعل يسير ويقرأ هذه الآية: (فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي من الْقَوْمِ الظّالِمِين) ((1)).

في النصّ الأوّل الّذي تحدّث فيه ابن أعثم عن وداع سيّد الشهداء (عليه السلام) لقبر أُمّه وأخيه، أخبر أنّه (عليه السلام) ودّعهما في جوف الليل، وفي وقت الصبح من تلك الليلة أقبل إليه أخوه محمّد ابن الحنفيّة.. ثمّ قال بعد أن تمّت كتابة الوصيّة: إنّ الإمام دفعها لأخيه، ثمّ ودّعه وخرج في جوف الليل يريد مكّة، فيلزم أن يكون هذا الليل غير الليلة الّتي ودّع فيها قبر أُمّه وأخيه؛ إذ أنّ ابن الحنفيّة جاءه عند وقت الصبح..

ويلزم أيضاً أن يكون سيّد الشهداء (عليه السلام) قد بقيَ نهاره ذاك كلّه في المدينة بعد أن دفع وصيّته لأخيه، وذلك لأنّ ترتّب الأحداث حسب النصّ يقضي أن يكون ابن الحنفيّة قد جاء وقت الصبح عند الإمام (عليه السلام) وحدّثه، وكتب له الإمام (عليه السلام) الوصيّة ودفعها إليه، وانطلق في جوف الليل، وهذا يعني أنّه قد قضى نهاره ذلك كلَّه في المدينة حتّى هبط الليل وأرخى سدوله وتوغّل في ظلمته ونشر فحمته وبلغ جوفه، ثمّ تحرّك الركب ميمّماً مكّة.

هذا ما يُستفاد من مجموع العبارتين السابقة واللاحقة للوصيّة، بيد أنّ الملاحِظ يتنبّه إلي ارتباكٍ بيّنٍ في صياغة العبارة، نتيجة التفريعات

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 20.

واستشعار تتابع الأحداث وترتّب بعضها علي بعض، فكأنّ مجيء ابن الحنفيّة وكلامه وكتابة الوصيّة ووداعه والانطلاق نحو مكّة كلّها مشاهد متلاحقة لا يفصلها شيء من مقاطع الزمن، والحال أنّ التدقيق يكشف وقوع زهاء نهارٍ كاملٍ بين الحوار والانطلاق.

كيف كان، فإنّ الظاهر من السياق أنّ الوصيّة كُتبَت في اليوم الأخير من وجود خامس أصحاب الكساء (عليهم السلام) في المدينة المنوّرة، وقد كتبها قبل تركه وطن جدّه ومسقط رأسه..

وقد شذّ ابن أعثم في تحديد التاريخ هنا، إذ أنّه صرّح أنّ الركب انطلق من المدينة لثلاث ليالٍ مضين من شهر شعبان في سنة ستّين، والحال أنّ المشهور المعروف أنّه خرج ليومين بقيا من رجب سنة ستّين ((1))، كما ذهب إليه البلاذري والطبري والمفيد والفتّال والطبرسي والدياربكري وابن الجوزي واليافعي وغيرهم..

ص: 103

1- جمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 5 / 215، تاريخ الطبري: 5 / 343، الإرشاد للمفيد: 2 / 32، روضة الواعظين للفتّال: 147، بحار الأنوار: 44 / 326، العوالم للبحراني: 17 / 176، مناهل الضرب للأعرجي: 385، نَفَس المهموم للقمّي: 71، الإفادة للزيدي: 56، الاستيعاب لابن عبد البر: 1 / 381، بغية الطلب لابن العديم: 6 / 2572، تاريخ الخميس للدياربكري: 2 / 331، نور الأبصار للشبلنجي: 256، اعلام الوري للطبرسي: 223، المنتظم لابن الجوزي: 5 / 324، مرآة الجنان لليافعي: 1 / 132.

النكتة الخامسة: المطلوب في الوصيّة

تُكتَب الوصيّة ويُعيَّن فيها الوصيّ حينما يُراد منه تنفيذها، فيكلَّف الوصيُّ بالقيام بها بعد وفاة الموصي، كأن يوصيه بما يهمّه في أمر ماله أو أهله أو عباداته وما شاكل..

وربّما كانت الوصيّة يخاطَب بها أحدٌ أو قومٌ أو عشيرةٌ أو قبيلةٌ أو طائفةٌ من الناس أو كلّهم، ويُطلَب منهم تنفيذها أيضاً، كأن يقال لهم: اتّقوا الله، أو اعملوا كذا ولا تعملوا كذا..

وربّما يُكتَب في الوصيّة شيءٌ لا يُقصَد به العمل به أو تنفيذه، وإنّما يُقصد منه ما يخصّ شأنه في الآخرة، كأن يتوسّل بالله وبآل البيت (عليهم السلام) ، ويتمنّي شيئاً يكرم به مثواه وتؤمّن به آخرته..أو أنّه يتعرّض لبيان بعض الحقائق والاعتقادات وما شابه ذلك، كما يفعل عادةً في أوّل الوصيّة من ذكر الشهادات، لبيان أنّ الميّت قد مات عليها وأنّها عقائده الّتي عاش بها وسيُحشَر عليها، ويُفسِّر أفعاله الّتي منعته الأيّام وضيقُها عن بيانها وتفسيرها وتفهيمها للآخرين..

وثمّة أغراض وبواعث أُخري كثيرة لا ينفعنا حصرها هنا.

والظاهر من هذه الوصيّة ـ بشهادة فقراتها ـ الغرض الأخير، أي: إنّ الإمام (عليه السلام) تعرّض فيها لبيان بعض الحقائق، وتفسير ما فعله وإيضاح ما عجز عن إدراكه الآخرون، فهي في الحقيقة وصيّةٌ تفسيريّةٌ بيانيّةٌ توضيحيّة، يردّ فيها سيّد الشهداء (عليه السلام) علي المعترضين والأعداء المغرضين، ويشرح فيها للمحبّين ويكشف لهم عمّا غاب عنهم، ولا

يظهر منها أنّه يُقدّم برنامج عملٍ لِما سيقوم به ولا الدعوة للاقتداء به، وإنّما يريد أن يردّ علي مَن يفتري عليه فيما بعدُ بعبثيّة ما قام به، أو يبيّن لمن جهلها حقيقة أمره.

أما أصل الاقتداء بالإمام المعصوم (عليه السلام) فهو بحثٌ مفصَّلٌ لا يسعه هذا الموضع، وغاية ما نريد بيانه هنا أنّ الغرض من الوصيّة ليست هي الدعوة للاقتداء، أأمّا الاقتداء بأفعاله كإمامٍ فقد تناوله فطاحل العلماء وبحث فيه كبار الفقهاء، ولكلٍّ مذهبه في ذلك في تحديد ما إذا كان فعل سيّد الشهداء (عليه السلام) تكليفاً خاصّاً به أو أنّه تكليفٌ عامّ؟

ونحن لا نريد الخوض في هذا البحث؛ لأنّنا لسنا ممّن يقاس بأُولئكالعلماء، ولا يسمح لنا حجمنا في اقتحام لجج أُولئك الفقهاء الأعلام، ورحم اللهُ امرئاً عرف قدر نفسه، وليس هذا المقام موضع التعرّض لمثل هذه المسألة، فالبحث هنا تاريخيّ.

لكنّ ما نريد الإشارة إليه هنا هو أنّ ظاهر الوصيّة الّذي يشهد به السياق والسوابق واللواحق هو التفسير والبيان والتوجيه والردّ، لا الدعوة إلي الاقتداء، وهذا واضحٌ لا غبار عليه، ونحسب أنّه لا يحتاج إلي كثير تأمّل.

النكتة السادسة: ظروف صدور الوصيّة

الظرف الأوّل: مشهد خروج سيّد الشهداء (عليه السلام)

إنّ مشهد خروج الإمام الحسين (عليه السلام) ـ وهو ظرف صدور الوصيّة

ص: 105

أيضاً _ من المفاصل الضروريّة في دراسة قيام سيّد الشهداء (عليه السلام) ، ويمكن من خلال معرفته بشكلٍ دقيقٍ تمييز الكثير من التصوّرات والانعكاسات المهمّة والمؤثّرة في فهم القيام، بيد أنّ دراسة ذلك لا يسعها هذا البحث، وسيأتي مزيد بيانٍ خلال هذه الدراسة، ويمكن أن نقول هنا بكلمةٍ واحدة:

إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) لم يخرج من المدينة بسيّافةٍ ولا ترّاسة ((1))، وإنّما خرج من المدينة خائفاً يترقّب في أهل بيته، وقد بات الإمام (عليه السلام) في مدينة جدّه مهدَّداً، مباح الدم، مطلوباً للقتل، معرَّضاً في كلّ آنٍ لأن تُهتَك به حرمة المدينة المنوّرة، فخرج _ فداه العالمين _ متوجّهاً إلي مكّة، ولم يبدُ علي حركته (عليه السلام) من المدينة أنّه عازمٌ علي القيام أو «الخروج الإصطلاحيّ»، ولم يصرّح أيّ تصريحٍ يفيد ذلك.. وغاية ما فعله ثمّة أنّه تقبّض عن البيعة ((2))، وجعله العدوُّ بين خياراتٍ لا مناص عنها: إمّا

1- أُنظر: الأمالي للشجري: 1 / 167.

2- أُنظر: ترجمة الإمام الحسين (عليه السلام) من الطبقات لابن سعد: 55، الإمام الحسين (عليه السلام) من تاريخ دمشق لابن عساكر، المحمودي: 200، تهذيب ابن بدران: 4 / 327، مختصر ابن منظور: 7 / 138، بُغية الطلب لابن العديم: 6 / 2607، 2572، تهذيب الكمال للمزّي: 6 / 415، تاريخ الإسلام للذهبي: 2 / 341، سيَر أعلام النبلاء للذهبي: 3 / 198، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 162، نسب قريش للزبيري: 133، الإمامة والسياسة لابن قُتيبة: 1 / 175، جمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 3 / 368، 5 / 316، الأخبار الطوال للدينوري: 229، تاريخ اليعقوبي: 2 / 215، تاريخ الطبري: 5 / 339، 347، المنتظم لابن الجوزي: 5 / 323، الأمالي للشجري: 1 / 170، 190، الإصابة لابن حجر: 1 / 332، تهذيب التهذيب لابن حجر: 2 / 349، العِقد الفريد لابن عبد ربّه: 4 / 376، جواهر المطالب للباعوني: 2 / 263، إثبات الوصيّة للمسعودي: 126، التنبيه والإشراف للمسعودي: 303، الأمالي للصدوق: 151، بحار الأنوار: 44 / 312، 324، العوالم للبحراني: 17 / 161، 173، الإرشاد للمفيد: 2 / 30، روضة الواعظين للفتال: 146، الاستيعاب لابن عبد البر: 1 / 381، تاريخ الخميس للدياربكري: 2 / 331، نور الأبصار للشبلنجي: 256، إعلام الورى للطبرسي: 222.

البيعـة وهي ما لا يمكن المصـير إليها أبـداً، أو القتل والقتال في المدينـة، وبهذا تُهتَك حرمتها، وهو ما لا يريده سـيّد شـباب أهل الجنّة، أو الخروج منها، فخرج ـ بأبي هو وأمّي ـ.

وكذلك الأمر في خروجه من مكّة، حيث أُبيح دمه، ودُبّر اغتياله ولو كان متعلّقاً بأسـتار الكعبة ((1))، فخرج منها متوجّهاً إلي الكوفة، حيث كانت ثمّـة بعض الأصوات الواعـدة بالنصـر والـدفاع عنه وفق ما ورد عليه من كتبهم ورسـلهم، وهو عالـمٌ جازمٌ متيقّنٌ تماماً وعـدَ الله، وأنّه مقتول، فأصحر لمن معه وللعالمين بما قاله في البيان العظيم لمّا عزم (عليه السلام) علي المسير إلي العراق، فقام خطيباً وقال:

الحمد لله، وما شاء الله، ولا قوّة إلّا بالله، وصلّي الله علي رسوله وآله وسلّم.

1- سيأتي بحثه مفصّلاً إن شاء الله تعالي.

خُطّ الموت علي وُلد آدم مخطّ القلادة علي جيد الفتاة، وما أولهني إلي أسـلافي اشتياق يعقوب إلي يوسف، وخيّر لي مصرعٌ أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها عُسـلان الفلَوات بين النواويس وكربلاء، فيملأنّ منّي أكراشاً جوفاً وأجربةً سُـبَّـاً، لا محيص عن يومٍ خُطّ بالقلم، رضي الله رضانا أهل البيت، نصبر علي بلائه ويوفّينا أُجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله (صـلي الله عليه و آله) لُحمته، هي مجموعةٌ له في حظيرة القدس، تقرّ بهم عينه وينجز لهم وعده.

مَن كان باذلاً فينا مهجته، وموطّناً علي لقاء الله نفسه، فلْيرحل معنا، فإنّي راحلٌ مصبحاً إن شاء الله ((1)).

هذا هو البيان الأوّل المعلِن للانطلاق من مكّة إلي العراق.. يبدأ بخطّ الموت علي وُلد آدم، ويمرّ بالشوق للأسلاف والوله للقاء الماضين في مقعد صـدقٍ عنـد مليك العـالمين، ويختصـر المصـيبة العظمي بانتظار المجرمين وتوثّبهم وتلهّفهم لملء أكراشـهم وأجربتهم الجوعي السـغبي، ثمّ التسـليم لأـمر الله وقضـائه لليوم الّـذي خُطّ بالقلم، ويختم بـدعوة مَن توفّر فيه شـرطان، هما: أن يكون باذلاً مهجته «فيهم».. «فيهم»! وموطّناً علي لقاء الله نفسه!

ص: 108

1- أُنظر: نزهـة النـاظر للحلواني: 86، اللهوف لابـن طاووس: 60، كشف الغُمّـة للإربلي: 2 / 29، مثير الأـحزان لابـن نما: 41، تسلية المجالس لابن أبي طالب: 2 / 230، بحار الأنوار: 44 / 366، العوالم للبحراني: 17 / 173.

ولو كان قد وُجد في مكّة مَن يحبّه وينصره ولا يخذله لَما خرج منها أبداً، كما قال هو بنفسه (عليه السلام) في كلامه مع ابن عبّاس وابن عمر:

فإنّي مستوطنٌ هذا الحرم، ومُقيمٌ فيه أبداً ما رأيتُ أهله يحبّوني وينصروني، فإذا هُم خذلوني استبدلتُ بهم غيرَهم، واستعصمت بالكلمة الّتي قالها إبراهيم الخليل (عليه السلام) لوات يوم أُلقي في النار: (حَسبيَ الله وَنِعمَ الوَكيلُ)، فكانت النار عليه برداً وسلاماً ... وأقام الحسين (عليه السلام) بمكّة، قد لزم الصوم والصلاة ((1)) ((2)).

*****

ولم ينقل لنا التاريخ أنّ ركب سيّد الشهداء (عليه السلام) كان ركبَ حربٍ وقتالٍ وهجومٍ مُدجّج بالسلاح ومثقل بالحديد والرماح، بل كان صورته في المنطلَقَين (المدينة ومكّة) علي العكس من ذلك تماماً، فهو مجموعةٌ من النساء والأطفال، وعدد من الشبّان والفتيان من ذوي الأعمار الّتي لا تبلغ مرحلة الشباب أحياناً، من أمثال القاسم بن الحسن وأترابه من أولاد عقيل وأحفاده (عليهم السلام) ، وأكثرهم كان ممّن لم يُباشر قبل يوم الحسين (عليه السلام) قتالاً ولا مارس حرباً، رغم أنّهم أبهروا العقول وأذهلوا التاريخ، وأبدَوا مهاراتٍ قتاليّةً عاليةً لم يعهد صناديد عسكر السقيفة لها مثيلاً، لكن بالرغم من ذلك فإنّ قبل يوم الطفّ لم يكن هؤلاء الأبطال

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 44، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 193.
2- سيأتي إن شاء الله دراسة ظروف خروجه (عليه السلام) من مكّة بالتفصيل.

معروفين كرجال حربٍ بين الناس، فهم بين شابٍّ فتي، وبين فتيً لم يبلغ الحلم أو إنّه راهق، فالركب في ظاهر الحال لم يكن ركباً عسكريّاً إلّا في بعض رجاله، من قبيل نفس الإمام الحسين (عليه السلام) وأخيه أبي الفضل العبّاس (عليه السلام) ومسلم بن عقيل (عليهما السلام) .

وحملُ مقدارٍ من السلاح يحمي به المسافر نفسه ومن معه كان من ضروريّات السفر يومئذ، فلا يُعدّ المسافر الحامل للسيف أو الرمح أو كنانة النبل والقوس محارباً، وإنّما هي طبيعة الحركة في صحراء قاحلة معرّضة للسلب والنهب والتبييت.

ومن الواضح أنّ العدد الكبير من النسوة والأطفال الّذين كان يربو كثيراً علي عدد الرجال الكبار، وقد خرج هؤلاء النسوة في كفالة مَن معهنّ من الرجال، فلابدّ أن يحملوا السلاح لحماية الركب رجالاً ونساءاً وشبّاناً وأطفالاً.

هذا والركب ليس ركباً عاديّاً يقطع الصحراء ليصل إلي مدينةٍ ما، بل هو ركبٌ مهدَّدٌ قد خرج من المدينة، والوالي مأمورٌ بقتل سيّدهم وإمامهم، وخرج من مكّة بعد أن بيّتوا قتله واغتياله، وأزلام القرد الأُمويّ ينتهزون منه الغرّة، ولا زالت كلاب السقيفة تعوي وتنتشر في كلّ منزلٍ وماءٍ وقريةٍ ومدينة، بل إنّ ذئاب الغابة الأُمويّة كانت تجوب الصحراء.

فمن الطبيعيّ إذن أن يحمل الركب معه مقداراً من السلاح ليحمي نفسه ومن معه، وهذا المقدار من السلاح لا يُعبَّر عنه بالسيّافة

والترّاسة ((1))؛ لما في هذا التعبير من إيقاعٍ حربيٍّ وجرسٍ تحذيريّ، وهو مُشـعِرٌ بالإعداد والتسربل بالسلاح، وكأنّهم جيشٌ يُقلِق الصحراء باصطكاك عدّته وصهيل خيّالته ورجّالته.

هذا باختصارٍ ربّما يكون مُخِلّاً، غير إنّه كافٍ هنا لما نحن فيه، إذ يكشف لنا أنّ حركة سـيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة ومكّة لم تكن في صورة جيشٍ وعسـكرٍ قادمٍ علي حربٍ وقتال، ولم يبدُ عليها أنّها كانت حركةً هجوميّة، وربّما كان هذا التصوير كلّه من أضاليل الأُمويّين، كما سنسمع فيما يأتي إن شاء الله.

الظرف الثاني: دم الإمام مطلوبٌ علي كلّ حال

قال الجرو الأُمويّ ابنُ زيادٍ في ردّه علي وصـيّة ((2)) البطل الطالبيّ مسـلم بن عقيل: وأمّا حسـين، فإنّه إن لم يُردنا لم نرده ((3)).. مَن هو هذا الوضـيع القزم المتهالك في خدمة القرد الأُمويّ الأجرب حتّي يريده أو يرده الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) ، أو يقصده بأيّ مستويً من المستويات الّتي تجعله قريناً لسيّد الكائنات يومها وسيّد شباب أهل الجنّة (عليه السلام) ؟!

ثمّ إنّه كذب وفجر ـ لعنه الله ـ إذ إنّه طلب دم سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) من دون أن يريده أو يرده الإمام (عليه السلام) ، وإلّا فما الّذي دعاه أن ينظم

1- سيأتي قريباً إن شاء الله بحث المتون والنصوص التاريخيّة الواردة في المقام.
2- ناقشنا مفصّلاً الوصيّة وجواب ابن زياد في كتاب مسلم بن عقيل وقائع الشهادة، والنصّ مقتبس من هناك.
3- جمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 2 / 339، تاريخ الطبري: 5 / 375.

الصحراء خيلاً ورجالاً ويرسل الكتائب تجوب الفيافي، ويفرض علي الحرّ أن يمنعه من الرجوع أو التوجّه إلي أيّ جهةٍ إلّا أن ينزل علي حكم الأدعياء أو يُقتَل هو ومن معه؟!

ومتي أرادهم الإمام الأبيّ؟

ففي المدينة أبي البيعة، فطُلب دمه، وأمر القرد الشاميّ الأجرب أن يبعث له الوالي برأس ريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) مع جواب الكتاب ((1))، فخرج _ فداه روحي _ من المدينة وقد ضيّعوه وخذلوه وتركوه وحيداً ((2)).

توجّه إلي مكّة، وفيها طلبوا دمه، ودبّروا لقتله ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة ((3))، فخرج حبيب الله متوجّهاً إلي حيث أمره الله، حيث وصلت كتب الكوفيّين ورسلهم تدعوه إليهم.

وبعد أن قطعوا عليه الطريق في الصحراء عرض عليهم أن يرجع إذ خذلوه وكرهوا قدومه! فأبوا إلّا أن ينزل علي حكم ابن زيادٍ أو يزيد، فأبي أن يُعطيهم بيده إعطاء الذليل ((4)).

فمتي _ إذن _ أرادهم وقصدهم؟ ((5)) وهل يمكن أن يكون مثل ابن

1- أُنظر: تاريخ اليعقوبي: 2 / 215، الفتوح لابن أعثم: 5 / 11، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 180.
2- أُنظر: الفتوح لابن أعثم: 5 / 18.
3- أُنظر: بحار الأنوار: 45 / 98.
4- أُنظر: الإرشاد للمفيد: 2 / 100، إعلام الوري للطبرسي: 240.
5- هذا كلّه مبنيّ علي أنّ قيام سيّد الشهداء (عليه السلام) كلّه كان دفاعاً ولم يكن هجوماً أو ما يصطلح عليه عند المتأخّرين ب- «الخروج الاصطلاحيّ»، ولإثبات ذلك موضعٌ آخر.

زيادٍ رقماً يعتدّ به سيّد الشهداء (عليه السلام) ويحسب له ويجعل نفسه بإزائه؟ إنّ هذا لهو البهتان العظيم!

بل علي العكس تماماً، كان ابن زياد مأموراً بملاحقة سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وكان متوثّباً هو وأزلامه من قبيل عمر بن سعد للقضاء عليه واستئصال شأفة النبيّ (صلي الله عليه و آله) وآل الله (عليهم السلام) جميعاً، وكانوا ينتظرون أنتعلِق مخالبهم به، فيقطّعون أوصاله ويملؤون منه أكراشاً، ويُشبِعون نهمهم لدماء آل أبي طالب، وينتقمون من سيّد الأنبياء (صلي الله عليه و آله) وسيّد الأوصياء (عليه السلام) ، ويثأرون لبدرٍ وأُحُدٍ والمشاهد الأُخري.

أوَليس ابن زيادٍ هو القائل:

الآن إذ علقت مخالبنا به

يرجو النجاة ولات حين مناص! ((1))

وقد أصدر الدعيّ ابن الأدعياء الأوامر الصارمة لعبده ابن زياد وهدّده إن لم يظفر بسيّد الشهداء (عليه السلام) ، فكشفت تلك القرارات عن أجواء الرعب الّتي خيّمَت علي المنطقة الممتدّة في الصحراء الّتي يتحرّك فيها الركب الحسينيّ الفاتح، وتُنبئ عن الارتجاج والزلزال الهائل الّذي ضرب الكوفة وضواحيها ومخارجها وموالجها، فالعيون حادّةٌ محدقةٌ تحصي الأنفاس في جميع الأرجاء، وتمتدّ إلي أقصي الخصوصيّات وتخترق حريم العشائر والقبائل والدور والبيوت والقوافل، والحركة مرصودةٌ ولو

1- تاريخ الطبري: 5 / 411، الكامل لابن الأثير: 4 / 53.

كانت دبيباً في رمال المفاوز والصحاري والقفار، والمسالح والمناظر والمراصد مزروعةٌ في كلّ اتّجاه، والربايا تجعل الطرق تحت الإشراف المباشر لملاحقات العساكر.. العساكر الّتي كانت تجوب الصحراء، تبحث عن الصيد السماويّ الأعظم.. المتعطّشة للولوغ في الدماء الزاكية، المتألّبة علي انتهاك حرم الله وحرم رسوله.. وقد أعدّت مخالبها وأنيابهالتقطيع أوصال العترة الطاهرة، واشتدّ ولعها وتجيّش توحّشها لاستخراج العلقة من جوف سيّد الشهداء (عليه السلام) ..

وقد أُطلقت الوحوش الكاسرة علي كلّ ما هبّ ودبّ في الكوفة، لتكون مجرّد التهمة كافيةً لاستباحة الحريم، والظنّة موجبةً لسفك الدم..

لقد التهبت شوارع الكوفة وأزقّتها، وانتشرت النار إلي أطرافها وأكنافها والمنازل والطرق المؤدّية إليها، واستسلم الناس فيها للطاغية حينما استخفّهم فأطاعوه، فازدحمت المناهج والسكك بالرجال، يتكالبون علي التقرّب إلي ابن الأمة الفاجرة، فارتفع الضجيج وتعالي الصخب، وانبثّت الضوضاء تلفّ الأجواء، وتداخلت أصوات قعقعة السلاح وصهيل الخيل ودبك حوافرها وسنابكها وأزيز شحذ السيوف وبري الرماح وقدح النبال، وزعقات الرجال يخبطون الأرض ويثيرون رمال الفيافي والصحراء، يستعدّون لارتكاب الجريمة العظمي! ((1))

فأغضبَتَ اللهَ في قتلِهِ

وأرضَتْ بذلك

شيطانها

عشيّةَ أنهضَها بغيُها

فجاءتهُ تركبُ طُغيانَها

1- اقتباسٌ من كتاب (مسلم بن عقيل.. وقائع الشهادة).

بجمعٍ من الأرض سدَّ الفروج

وغطّي النجود وغِيطانها ((1))

فالإمام ريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) مطلوبٌ علي كلّ حال، وقد ضيّقوا عليه الدنيا برحبها.

ويضيّقُ الدنيا علي ابن محمّدٍ

حتّي تقاذَفَه

الفضاءُ الأعظمُ

خرج الحسينُ من

المدينة خائفاً

كخروج موسي

خائفاً يتكتّمُخرج الحسينُ من

المدينة خائفاً

كخروج موسي

خائفاً يتكتّمُ

وقد انجلي عن مكّةٍ، وهو ابنُها

فكأنّما المأوي

عليه محرّمُ

لم يَدْرِ أين يُريح بُدْنَ ركابِهِ

وبه تشرّفَتِ

الحطيمُ وزمزمُ

روي الصدوق في أماليه مسنداً عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) في حديث، قال: كتب الجواب إلي عتبة: أمّا بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فعجِّلْ علَيّ بجوابه، وبيِّنْ لي في كتابك كلَّ مَن في طاعتي أو خرج عنها، ولْيكن مع الجواب رأسُ الحسين بن علي.

فهو يطلب من عامله أن يكتب له بمن في طاعته أو خرج عنها، إلّا سيّد الشهداء (عليه السلام) فإنّه يطلب رأسه!!

فكان غايـة ما يصـبو ويرنو إليه أخوه ابنُ الحنفيّة وأقصـي ما يتمنّاه أن يجد موضـعاً يطمئنّ إليه الإمام، ويبقي هو وأهل بيته في مأمنٍ من كيد الأعـداء ومخالب الوحوش، فيتقـدّم للإمام أن يذهب إلي مكّة، فإن اطمأنّت به فهو المراد، وإن نبَتْ به!! مكّة الحرم الآمن للخلائق أجمعين تنبو بسيّد شباب أهل الجنّة؟! تنبو بمالكها ومشرّفها؟ ثمّ يقترح اليمن..

ص: 115

1- من قصيدةٍ للسيّد حيدر الحلي (رحمة الله) (رحمة الله) .

ويعود مرّةً أخري ليقول له: فإن اطمأنّت بك أرض اليمن وإلّا لحقتَ بالرمال وشعوب الجبال..

هـذا من جانب ابن الحنفيّة.. وكذا هو همّ الآخَرين الّذين اعترضوا علي الإمام في حركته نحو الكوفة، إذ إنّهم كانوا علي قناعةٍ عاليةٍ واطمئنانٍ واثقٍ أنّ الأُمويّين سيقتلون حبيب الله وحبيب رسوله (صلي الله عليه و آله) .. وغاية ما يطمحون إليه أن يُريح الإمامُ بُدْنَ ركابه في موضعٍ منيعٍ يحولبين الثائرين لدماء شيوخ المشركين في بدر وأُحُد وحُنين، وبين ابن مَن قتل شيوخهم وثني سواعدهم وأرغم أُنوفهم وشتّت جمعهم وهزمهم وأحزابهم..

أمّا من جانب الإمام (عليه السلام) ومرافقيه، فإنّهم لم يصدر منهم أيُّ تصريحٍ _ سوي ما قد يُستفاد من هذه الوصيّة علي فهمٍ خاصّ _ يفيد تبييت العزم علي «الخروج الاصطلاحيّ»، أو اكتساح مراكز الحكم والاستيلاء علي السلطة بقصد إقامة الحكم وتنفيذ بيعة الغدير، وليس فيها ما يمكن استفادة ذلك منه، كما سيتّضح.

الظرف الثالث: محاصرة الإمام والتضييق عليه للبيعة

لقد حوصر الإمام (عليه السلام) ليُجبَر علي البيعة، إذ ورد الأمر من القرد الأُمويّ المجدور أن يأخذه أخذاً ضيّقاً ليست فيه رخصة ولا هوادة، ولا يرخّص له في التأخير عن ذلك (1)، فإن تأبي ضُرِبَت عنقه وبُعِثَ برأسه

1- جمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 5 / 313، الأخبار الطوال للدينوري: 228، تاريخ الطبري: 5 / 338، المنتظم لابن الجوزي: 5 / 322، الإرشاد للمفيد: 2 / 30، روضة الواعظين للفتّال: 146، بحار الأنوار للمجلسي: 44 / 324، العوالم للبحراني: 17 / 173، الردّ علي المتعصّب العنيد لابن الجوزي: 34، الكامل لابن الأثير: 3 / 263.

إليه ((1)).

وقد استعجل مروان قتل سيّد الشهداء (عليه السلام) إن أبي البيعة، وحرّض والي المدينة علي ذلك ((2)).

1- أُنظر: المناقب لابن شهرآشوب: 10 / 141، تاريخ اليعقوبي: 2 / 215، الفتوح لابن أعثم: 5 / 10، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 179، مثير الأحزان لابن نما: 9، تذكرة الخواصّ لسبط ابن الجوزي: 135، اللهوف لابن طاووس: 21، بحار الأنوار: 44 / 324، العوالم للبحراني: 17 / 174، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 376، تاريخ ابن خلدون: 3 / 19، الفصول المهمّة لابن الصبّاغ: 181.

2- أُنظر: ترجمة الإمامة والسياسة لابن قُتيبة: 1 / 176، جمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 5 / 317، الإمام الحسين (عليه السلام) من الطبقات لابن سعد: 55، الإمام الحسين (عليه السلام) من تاريخ دمشق لابن عساكر، المحمودي: 200، تهذيب ابن بدران: 327، مختصر ابن منظور: 7 / 138، بُغية الطلب لابن العديم: 6 / 2607، تهذيب الكمال للمزّي: 6 / 415، تاريخ الإسلام للذهبي: 2 / 341، سيَر أعلام النبلاء للذهبي: 3 / 198، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 162، الأخبار الطوال للدينوري: 230، تاريخ اليعقوبي: 2 / 215، تاريخ الطبري: 5 / 339، المنتظم لابن الجوزي: 5 / 323، الفتوح لابن أعثم: 5 / 18، الإرشاد للمفيد: 2 / 30، بحار الأنوار للمجلسي: 44 / 324، العوالم للبحراني: 17 / 176، نفَس المهموم للقمّي: 68، روضة الواعظين للفتّال: 146، الأمالي للشجري: 1 / 170، إعلام الوري للطبرسي: 222، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 183، المناقب لابن شهرآشوب: 10 / 142، الكامل لابن الأثير: 3 / 264، مثير الأحزان لابن نما: 10، الجوهرة للبري: 41، تذكرة الخواصّ لسبط ابن الجوزي: 135، اللهوف لابن طاووس: 23، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 288، تاريخ ابن خلدون: 3 / 20، الفصول المهمّة لابن الصباغ: 182، المنتخب للطريحي: 2 / 419، مقتل الحسين (عليه السلام) لأبي مخنف المشهور: 12.

ثمّ عاد القرد الأمويّ ليطالب برأس ريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) وسيّد شاباأهل الجنّة (عليه السلام) ، حينما كتب إليه الوليد يُخبره أنّ الحسين (عليه السلام) ليس يري لهم عليه طاعةً ولا بيعة، فلمّا ورد الكتاب علي ابن هند الفاجرة غضب لذلك غضباً شديداً، وكان إذا غضب انقلبت عيناه، فعاد أحول، فكتب إلي الوليد بن عُتبة يأمره أن يأخذ البيعة ثانياً من أهل المدينة، وليكن مع جوابه رأس الحسين بن علي ((1))..

ثمّ عاد الوليد ليُرسل الرسل إلي سيّد الشهداء (عليه السلام) ويُحضره ويضيّق عليه، ويلحّ عليه بالبيعة ((2))..

فتوجّه سيّد الشهداء (عليه السلام) إلي قبر جدّه في المدينة.. أجل، في

ص: 118

1- أُنظر: الفتوح لابن أعثم: 5 / 25، الأمالي للصدوق: 152، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 185، بحار الأنوار: 44 / 312، العوالم للبحراني: 17 / 161.

2- أُنظر: تاريخ الطبري: 5 / 341، الإرشاد للمفيد: 2 / 31، روضة الواعظين للفتّال: 147، بحار الأنوار: 44 / 326، العوالم للبحراني: 17 / 176، نفَس المهموم للقمّي: 71، إعلام الوري للطبرسي: 222، الكامل لابن الأثير: 3 / 264، المنتخب للطريحي: 2 / 420.

المدينة.. يشكو إليه ويستشهده علي الأمّة، ويقول: فاشهد عليهم _ يا نبيّ الله _ أنّهم خذلوني وضيّعوني، وأنّهم لم يحفظوني، وهذا شكواي إليك حتّي ألقاك ((1))..

ثمّ عاد الوليد ليبعث ثالثاً خلفه، فلم يجده في منزله، فيحمد الله أنّه لم يبتلِ بدمه ولم يطالبه الله به.. يعني أنّه كان عازماً علي تنفيذ أوامر القرد الأُمويّ لولا أنّ سيّد الشهداء قد خرج! ((2))

وقد جرت مكاتبةٌ بين يزيد وابن عبّاس في أمر خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة، في خبرٍ طويلٍ جاء في جواب ابن عبّاس:

وأمّا الحسين، فإنّه لمّا نزل مكّة وترك حرم جدّه ومنازل آبائه سألتُه عن مقدمه، فأخبرني أنّ عمّالك بالمدينة أساؤوا إليه،وعجّلوا عليه بالكلام الفاحش.أقبل إلي حرم الله مستجيراً به((3))..

الظرف الرابع: سيّد الشهداء (عليه السلام) مطلوبٌ عند الخروج من المدينة!

لم يهدأ أبناء الطلقاء والأدعياء حينما بلغهم خروج ريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) من المدينة، وخافوا أن يفوتهم، وهم يريدون أن يقضوا عليه قبل أن

1- أُنظر: الفتوح لابن أعثم: 5 / 26، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 186.

2- أُنظر: الفتوح لابن أعثم: 5 / 27، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 186، بحار الأنوار: 44 / 328، العوالم للبحراني: 17 / 177، نفَس المهموم للقمّي: 72.

3- تذكرة الخواصّ لسبط ابن الجوزي: 136، وفي الأمالي للشجري: 1 / 182: وأمّا حسين! فإنّي لقيتُه فسألتُه عن مقدمه (يعني إلي مكّة)، فأخبرني أنّ عمّالك بالمدينة حرفت به، وعجّلت عليه، وأنظره رأيه..

يخرج من المدينة، فربّما علموا أنّ بضعة النبيّ (صلي الله عليه و آله) وخامس أصحاب الكساء قد يجد أنصاراً يدافعون عنه، فيكثر القتلي بينهم كما عبّر ابن الحنفيّة وغيره، فسارعوا في طلبه..

قال الذهبي:

وخرج الحسين وابن الزبير من وقتهما إلي مكّة، وطُلِبا فلم يُقدَر عليهما ((1)).

البرّيّ:

... وولّاها [أي: المدينة] عثمان بن محمّد بن أبي سفيان، وهو الذي قال _ لمّا خرج الحسين عن المدينة ولم يبايع _: اركبوا كلّ بعيرٍ بين السماء والأرض فاطلبوه. فطلبوه فلم يدرك ((2)).

فدمُ سيّد الشهداء (عليه السلام) ورأسه المقدّس مطلوبٌ لأولاد الزواني يوم كان في المدينة، وهو مطلوبٌ لهم يوم خرج عنها!!

الظرف الخامس: دعوات الكوفيّين

لا يخفي علي من سرّح نظره علي صفحات التاريخ أنّ دعوات أهل الكوفة ورسلهم في تلك الفترة لم تصل إلي سيّد الشهداء (عليه السلام) وهو في المدينة، وإنّما وصلته جميعاً في مكّة، وربّما ساهم في ذلك قصر الفترة وسرعة تتابع الأحداث، إذ أنّ هلاك الطاغية معاوية كان في النصف

1- موسوعة الإمام الحسين (عليه السلام) : 1 / 330 _ عن: تاريخ الإسلام للذهبي: 2 / 268، 341 _ عن: ابن سعد.
2- الجوهرة للبرّي: 41.

من رجب، وكان خروج سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) من المدينة في الثامن والعشـرين منه، كما هو المشهور، فكانت الفترة بين هلاك كبير القرود الأُمويّ وخروج سيّد شباب أهل الجنّة من المدينة زهاء ثلاثة عشر يوماً..

ولم يكن يومها قـد راج حـديث القيام والتوجّه إلي الكوفـة بتاتاً، ولا حديث الرسل والدعوات من أهل الكوفة، بل لم تكن ثمّة وجهةٌ محدّدة للإمام في الظاهر المنظور لعامّة الناس، ويشهد لذلك قول ابن الحنفيّة:

وإنّي خائفٌ عليك أن تدخل مصراً من الأمصار، أو تأتي جماعةً من الناس، فيقتتلون، فتكون طائفةٌ منهم معك وطائفة عليك ...

ثمّ اقتراحه علي الإمام (عليه السلام) بعد ذلك أن يتوجّه إلي مكّة حينما سأله سيّد الشهداء (عليه السلام) قائلاً:

يا أخي، إلي أين أذهب؟ قال: اخرج إلي مكّ ة، فإن اطمأنّت بك الـدار فذاك الّذي تحبّ وأُحبّ، وإن تكن الأُخريخرجتَ إلي بلاد اليمن ... ((1)).

فلو كان ابن الحنفيّة يعلم وجهة سيّد الشهداء (عليه السلام) لما اقترح عليه مكّة واليمن، من دون الإشارة أو النهي عن الكوفة..

هذا عند ابن الحنفيّة وغيره، أمّا عند سيّد الشهداء (عليه السلام) وأفراد ركبه فإنّ الوجهة كانت معلومةً وقد عزموا عليها، وهي مكّة.. كما روي ابن

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 20.

أعثم نفسه في جواب الإمام علي كلام أخيه، قال:

«وإنّي قد عزمتُ علي الخروج إلي مكّة، وقد تهيّأتُ لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي، وأمرهم أمري ورأيهم رأيي».

وهنا أيضاً لم يبدُ في كلام الإمام (عليه السلام) ما يفيد أنّ الوجهة هي الكوفة، فلم يصرّح بها ولم يُشِر إليها بتاتاً.. فكان ظاهر الحال هو التوجّه إلي مكّة، ومكّة فقط.

وفي ذلك شاهدٌ بل دليلٌ كافٍ لبيان أنّ الإمام لم يكن ـ في ظاهر الحال ـ يبيّت التوجّه إلي الكوفة ولا القيام المصطلح، ولا «الخروج الاصطلاحيّ»، ولا شيئاً من هذا القبيل، وكلّ ما في الأمر أنّ الإمام (عليه السلام) كان مهدَّداً، وكان دمه مطلوباً للقرد الأُمويّ المجدور، فخرج من المدينة خائفاً يترقّب لئلّا تُستباح به حرمة المدينة ولينجو من شرّ الأشرار.

ويؤكّد ذلك قول ابن الحنفيّة: أن تنجو بنفسك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وفي لفظ الخوارزمي: أن تتنحّي بنفسك عن يزيدبن معاوية ... ثمّ بعد أن يفترض في كلامه أن لا يجد الإمام (عليه السلام) في مكّة واليمن ما يطمئنّ به إلي أرضها، أن يلحق بالرمال وشعوب الجبال ويصير من بلدٍ إلي بلد.

الظرف السادس: خذلان الناس وبيعة أهل المدينة جميعاً

لقد سمعنا ـ قبل قليل ـ شكوي سيّد شباب أهل الجنّة لجدّه، وأنّ أُمّته خذلوه وضيّعوه ولم يحفظوه.. وكان أوّل الأُمّة خذلاناً له وتضييعاً هم أهل المدينة، وكانوا مشحونين بأحقادهم البدريّة وما تلاها من

أحقاد علي أمير المؤمنين (عليه السلام) وذرّيّته الطيّبين، حتّي قال الإمام زين العابدين وسيّد الساجدين (عليه السلام) : «ما بمكّة والمدينة عشرون رجلاً يحبّنا» ((1)).

وقد رأيناهم بالأمس القريب يتكالبون علي مهبط الوحي وبيت الرسالة، فهجموا علي بضعة النبيّ (صلي الله عليه و آله) في دارها وأحرقوه علي مَن فيه، وأسقطوا سبطه الشهيد المحسن، وقتلوا ابنته الصدّيقة الكبري (عليها السلام) بعد أن ضربوها وروّعوها وكسروا ضلعها ولطموا حرّ وجهها، وفعلوا ما فعلوا بأخيه وابن عمّه وسبطه الأكبر (عليه السلام) ..

واليوم، حيث ينزو القرد الأُمويّ الأجرب علي المُلك والسلطان، ويشتهي أن يكون هو المنتقم للأصنام، ويتمنّي أن يتبجّح بندائه «ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا»، فيطلب رأس ريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) وسيّد شباب أهل الجنّة (عليه السلام) .. لم تجد في المدينة مَن يواسي سيّد الشهداء (عليه السلام) ولو بكلمة،فيقول له: يا ابن رسول الله، هذه مدينة جدّك ومسقط رأسك، وبكم فتح الله علينا وبلغنا ما بلغنا، فابقَ فإنّي سأدفع عنك!

فهم قد بايعوا يزيد الخمور والفجور منذ أيّام معاوية، وسارعوا إلي تجديد البيعة أذلّاء خاسئين، وتركوا حبيب الله وحبيب رسوله (صلي الله عليه و آله) ، فأصبح الناس، فغدوا علي البيعة ليزيد، وطُلِب الحسين ((2)).. وكتب إلي

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 4 / 104، بحار الأنوار: 34 / 297.

2- ترجمة الإمام الحسين (عليه السلام) من الطبقات لابن سعد: 56، تاريخ مدينة دمشق: 14 / 207، ترجمة الإمام الحسين (عليه السلام) من تاريخ دمشق لابن عساكر، المحمودي: 200، تهذيب ابن بدران: 4 / 328، مختصر ابن منظور: 7 / 138، بغية الطلب لابن العديم: 6 / 2608، تهذيب الكمال للمزّي: 6 / 415، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 162.

الأقاليم بذلك فبايعوه ((1)).

فلم يبق أحدٌ إلّا وأشاح عن وجه الله واستقبل وجه يزيد المخمور، وأعرض عن التمسّك بحبل الله والعروة الوثقي، وتمسّك بذيل القرد الأُمويّ، ورفض التعلّق بأغصان طوبي، واستبدلها بالتدلّي في جهنّم بأعواد الشجرة الملعونة في القرآن، حتّي عبد الله بن عبّاس، فقد بايع له ((2)) وأمر بمبايعته ((3))..

إنّهم أبوا أن ينصروا ابن رسول الله (صلي الله عليه و آله) وريحانته ويدافعوا عنه ويمنعونه لئلّا يُقتَل في حرم جدّه، فما حفظوه ولا حفظوا جدّه فيه، وخذلوه وأسلموه لسيوف المشركين، ثمّ رجعوا القهقري فبايعوا ابن آكلة الأكباد الدعيّ الزاني السكّير يزيد بن معاوية علي أنّهم خِوَلٌ له يحكم في أهليهم ودمائهم وأموالهم ما شاء، وأنّهم ممّا أفاء الله عليه بأسياف المسلمين، إن شاء وهب وإن شاء أعتق وإن شاء استرقّ! ((4))

ص: 124

1- حياة الحيوان للدميري: 1 / 91.

2- أُنظر: الإمامة والسياسة لابن قُتيبة: 1 / 173، تاريخ الطبري: 5 / 343، الكامل لابن الأثير: 3 / 265، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 3852، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 151.

3- أُنظر: الإمامة والسياسة لابن قُتيبة: 1 / 173.

4- تاريخ خليفة بن خياط: 149، الإمامة والسياسة لابن قُتيبة: 2 / 15، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 222، تاريخ الطبري: 5 / 495، تجارب الأُمم لمسكويه: 2 / 88.

أيخرج سيّد شباب أهل الجنّة (عليه السلام) والذكري الوحيدة الباقية من أصحاب الكساء والآل الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، والوديعة الأخيرة من ودائع النبيّ (صلي الله عليه و آله) في أُمّته بعد أن قُتل أبوه صالح المؤمنين (عليه السلام) بالسيف وقُتل صنوه (عليه السلام) مسموماً، ولم يخرج أحدٌ في توديعه وتشييعه، فضلاً عن الدفاع عنه؟!

فيما نسمع أنّ الوليد قد حبس ابن عمٍّ لعمر بن الخطّاب يقال له: عبد الله بن مطيع بن الأسود العدويّ، وأُمّه يقال لها: العجماء بنت عامر الخزاعيّة، وكان هواه مع ابن الزبير، فاجتمعت بنو عديّ ومشوا إلي الوليد وكلّموه، فقال: إنّما حبستُه بأمر يزيد، فنكتب وتكتبون. فوثب إليهم أحدهم وقال: نكتب وتكتبون وابن العجماء محبوس؟! لا ـ والله لا ـ يكون ذلك أبداً. فانطلقوا حتّي اقتحموا علي ابن مطيع في السجن فأخرجوه، وأخرجوا مَن كان في السجن، ولم يتعرّض إليهم أحد! ((1))

نصر هؤلاء الأوغاد الغوغاء ابنَ العجماء، وخذلوا ابن فاطمة سيّدة النساء، وانتفضوا لابن عمّ عمر، وخنسوا عن ابن النبيّ (صلي الله عليه و آله) وابن عمّه وابن ابنته وريحانته (عليهم السلام) !

ولم نجد ـ حسب الفحص ـ أيّ مؤشّرٍ أو شاهدٍ أو دليلٍ يفيد أنّ الإمام (عليه السلام) حينما خرج من المدينة «قد خيّم الذعر علي المدنيّين حينما رأوا

1- أُنظر: جمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 5 / 316، الفتوح لابن أعثم: 5 / 21.

آل النبيّ (صلي الله عليه و آله) ينزحون عنهم إلي غير مآب» ((1)).

*****

هـذه إطلالـةٌ سـريعةٌ خاطفـةٌ عن بعض الظروف الّتي صدرت فيها الوصـيّة، وسوف نحاول اسـتعراض مشاهد أُخري فيما يلي تحت عناوين مستقلّةٍ أفردناها للتنويه، وإن كانت تنضوي تحت هذا العنوان.

وربّما أطلنا الحديث هنا، وهو موضوعٌ شائكٌ يحتاج إلي تعمّقٍ واستدلالٍ أوسع وأدقّ وأعمق وأشمل من هذه السطور المحدودة، بيد أنّ هذا المقدار يكاد يكون ضروريّاً جدّاً لفهم الوصيّة الّتي نحن بصدد دراستها، وتبيّن معانيها وإدراك مغزاها وأغراضها.

النكتة السابعة: سبب الخروج في تصريحات سيّد الشهداء (عليه السلام)

اشارة

سمعنا ــ قبل قليل ــ شـكوي حبيب الرسول لجدّه (صـلي الله عليه و آله) ، وعرفنا إجمالاً ما جري عليه من الملاحقة والإلحاح والتعريض للقتل.. يضاف إليها ما سنسمعه من تصريحات سيّد الشهداء (عليه السلام) أثناء خروجه أو بعده:

التصريح الأوّل: خرج منها خائفاً يترقّب

بعـد أن جري ما جري، سار الحسـين (عليه السـلام) من المدينة نحو مكّة، وجعل يسـير ويقرأ: (فَخَرَجَ مِنْها خائفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالِمين) ((2))..

1- أُنظر: حياة الإمام الحسين (عليه السلام) للقرشي: 13 م / 303.

2- أُنظر: تاريخ الطبري: 5 / 343، الفتوح لابن أعثم: 5 / 34، الإرشاد للمفيد: 2 / 32، روضة الواعظين للفتّال: 147، بحار الأنوار: 44 / 332، العـوالم للبحراني: 17 / 181، إعلام الوري للطبرسـي: 223، مقتل الحسـين (عليه السـلام) للخوارزمي: 1 / 189، الكامل لابن الأثير: 3 / 265، تـذكرة الخواصّ لسـبط ابن الجوزي: 135، نهايـة الأرَب للنويري: 20 / 380، الفصول المهمّـة لابن الصـبّاغ: 183، المنتخب للطريحي: 2 / 421.

والآية تتحدّث عن خروج النبيّ موسي (عليه السلام) إلي مَديَن بعد أن طلبه فرعون ليقتله بالرجل الّذي وكزه موسي فقضي عليه ((1)).. وقد قرأها سيّد الشهداء (عليه السلام) عند خروجه من المدينة؛ لبيان الشبَه بين الخروجين من حيث كونهما مطلوبين للقتل، يبحثان عن مكانٍ آمنٍ يُنجيهما الله به من القوم الظالمين.

قال الطبرسي في المجمع:

ثمّ بيّن ـ سبحانه ـ خروج موسي من مصر إلي مدين، فقال: (فَخَرَجَ مِنها) أي: من مدينة فرعون (خائفاً) من أن يُطلَب فيُقتَل، (يَتَرَقَّبُ) الطلب، (قالَ رَبِّ نَجِّني مِنَ القَومِ الظّالِمينَ).

وقيل: إنّه خرج بغير زادٍ ولا ماء ولا حذاء ولا ظهر، وكان لا يأكل إلّا من حشيش الصحراء، حتّي بلغ ماء مَديَن ((2)).

وربّما لوّحت تلاوة هذه الآية إلي أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) كان مطلوباً لفراعنة العصر بالدماء العفنة الّتي أراقها أبوه في رضي الله ـ تبارك

1- أُنظر: تفسير القمّي: 2 / 137.
2- مجمع البيان للطبرسي: 7 / 427.

وتعالي ــ دفاعاً عن النبيّ (صلي الله عليه و آله) وعن دِينه..

والفرق أنّ موسي (عليه السلام) بلغ مدين فأمِن، ثمّ رجع.. وبلغ سيّد الشهداء (عليه السلام) كربلاء الأرض الموعودة، فقُتل هناك ومَن معه، وأناخ فيها رحله.. وسيرجع!

التصريح الثاني: التمثّل بشعر ابن المفرّغ

تمثّل سيّد الشهداء (عليه السلام) ببيتين ليزيد بن مفرّغ، وهو يمشي بين رجلين يعتمد علي هذا مرّةً وعلي هذا مرّةً أُخري، حتّي دخل مسجد رسول الله (صلي الله عليه و آله) ، وهو يقول:

لا ذعرت السوام في

فلق الصبح

مغيراً، ولا

دعيت يزيدا

يوم أعطي مخافة الموت ضيماً

والمنايا

يرصدنني أن أحيدا ((1))

وقد علم الراوي عند سماع الأبيات أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) يُخبر عن ملاحقته ليُقتَل، وأنّه سيخرج من المدينة قريباً..

قال: فقلت عند ذلك: إنّه لا يلبث إلّا قليلاً حتّي يخرج، فما لبث أن خرج فلحق بمكّة، فلمّا خرج من المدينة قال:

1- أُنظر: جمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 3 / 368، تاريخ الطبري: 5 / 342، شرح الأخبار للقاضي النعمان: 3 / 144، الأمالي للشجري: 1 / 185، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 186، الكامل لابن الأثير: 3 / 265، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 381، تذكرة الخواصّ لسبط ابن الجوزي: 135، بغية الطلب لابن العديم: 6 / 2605، الأغاني لأبي الفرج: 18 / 447، مروج الذهب للمسعودي: 3 / 54.

(فَخَرجَ مِنها خائِفاً يَترَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّني مِنَ القَومِ الظّالِمينَ). ولمّا توجّه نحو مكّة قال: (وَلَمّا تَوَجَّهَ تِلقاءَ مَدينَ قالَ عَسي رَبّي أن يَهديَني سَواءَ السَّبيلِ) ((1))..

والأبيات ليزيد بن مفرّغ، وقد قالها وهو مطلوبٌ لابن زياد لينتقم منه، في قصّةٍ طويلة ((2))..

فهذان البيتان اللذان تمثّل بهما الإمام (عليه السلام) يعبّران أصدق تعبيرٍ عن الظرف الّذي خرج فيه سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة.. إنّه لم يذعر السوامّالهائمة الهاجعة في مرعاها في فلق الصبح، ولم يدع بشيء، بيد أنّه علي يقينٍ أنّ المنايا ترصده بالتأكيد، وهي تريده أن لا يحيد عنها «أن أحيدا، أي: أن لا أحيد» ((3))، فهو مُلاحَقٌ لا لذنبٍ ولا لفعلٍ أتاه، مهدَّدٌ في نفسه وأهله وعياله..

سيّما أنّ الإمام (عليه السلام) تمثّل بأبياتٍ من قصيدةٍ طويلةٍ قاله شاعرٌ معاصرٌ مطلوبٌ لابن الأَمة الفاجرة بالخصوص!

التصريح الثالث: أبياتٌ لسيّد الشهداء (عليه السلام)

روي الطريحي في المنتخب، وكذا في المقتل المشهور لأبي مخنف، والقندوزي في الينابيع أبياتاً لسيّد الشهداء (عليه السلام) عند خروجه من المدينة،

1- الأغاني لأبي الفرج: 18 / 447.
2- أُنظر: ترجمة يزيد بن مفرغ وأخباره وقصصه في: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: 18 / 425.
3- أُنظر: السيرة لابن هشام: 3 / 771.

قالوا، واللفظ للطريحي:

فسار الحسين (عليه السلام) وهو يقول:

إذا المرء لم يحمِ بنيه وعرسه

ونسوته، كان اللئيم المسبّبا

وفي دون ما يبغي يزيد بنا غداً

نخوض حياض الموت شرقاً ومغربا ((1))

«ودلّ هذا الشعر علي مدي عزمه علي أن يخوض حياض الموت، سواءً أكانت في المشرق أم في المغرب، ولا يبايع يزيد بن معاوية» ((2)).

التصريح الرابع: لمّا وافي مكّة

فلمّا وافي سيّد الشهداء (عليه السلام) مكّة ونظر إلي جبالها، جعل يتلو هذه الآية: (وَلَمّا تَوَجَّهَ تِلقاءَ مَديَنَ قالَ عَسَي رَبّي أن يَهديَني سَواءَ السَّبيلِ) ((3))..

1- المنتخب للطريحي: 422، ينابيع المودّة للقندوزي: 3 / 55، المقتل لأبي مخنف (المشهور): 15.

2- حياة الإمام الحسين (عليه السلام) للشيخ باقر شريف القرشي (رحمة الله) : 2 / 306.

3- أُنظر: تاريخ الطبري: 5 / 343، الفتوح لابن أعثم: 5 / 37، الإرشاد للمفيد: 2 / 32، روضة الواعظين للفتّال: 147، بحار الأنوار: 44 / 332، العوالم للبحراني: 17 / 181، نفَس المهموم للقمّي: 79، إعلام الوري للطبرسي: 223، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 189، الكامل لابن الأثير: 3 / 260، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 381، الفصول المهمّة لابن الصبّاغ: 183، المنتخب للطريحي: 2 / 422.

فلمّا دخلها قال له عمرو بن سعيد الأشدق _ وكان والي مكّة _: ما أقدمك؟ فقال: عائذاً بالله وبهذا البيت! ((1))

وسيأتي تفصيل الكلام في ذلك عند الحديث عن ظروف خروج الإمام (عليه السلام) من مكّة.

التصريح الخامس: جوابه لأبي هرم (أبي هرّة)

في حديث الإمام الصادق (عليه السلام) عن جدّه الإمام زين العابدين (عليه السلام) في المجلس الثلاثين من أمالي الصدوق:

ثمّ سار حتّي نزل الرهيمة، فورد عليه رجلٌ من أهل الكوفة يُكنّي: أبا هرم، فقال: يا ابن النبيّ، ما الّذي أخرجك من المدينة؟ فقال: ويحك يا أبا هرم! شتموا عرضي فصبرت، وطلبوا مالي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت، وأيمُ الله لَيقتلنّي، ثمّ لَيلبسنّهم اللهُ ذلّاً شاملاً وسيفاً قاطعاً، ولَيسلّطنّ عليهم مَن يذلّهم ((2)).وفي لفظ ابن أعثم وغيره، قال:

فلمّا أصبح الحسين، وإذا برجلٍ من الكوفة يكنّي: أبا هرّة الأزديّ، أتاه فسلّم عليه، ثمّ قال: يا ابن بنت رسول الله، ما

1- أُنظر: تذكرة الخواصّ لسبط ابن الجوزي: 135.

2- الأمالي للصدوق: 153، إثبات الهداة للحر: 2 / 573، بحار الأنوار: 44 / 314، العوالم للبحراني: 17 / 163.

الّذي أخرجك عن حرم الله وحرم جدّك محمّد (صلي الله عليه و آله) ؟ فقال الحسين: يا أبا هرّة، إنّ بني أُميّة أخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت، وأيمُ الله ـ يا أبا هرّة ـ لَتقتلني الفئة الباغية، ولَيلبسهم اللهُ ذلّاً شاملاً وسيفاً قاطعاً، ولَيسلّطنّ الله عليهم مَن يذلّهم، حتّي يكونوا أذلّ من قوم سبأ إذ ملكتهم امرأةٌ منهنّ، فحكمت في أموالهم وفي دمائهم ((1)).

والهروب هنا ليس فيه بُعدٌ سلبيّ، وإنّما يعني الاحتماء والاحتراس والاحتراز والتوقّي، لأنّه لم يكن في مواجهة، أمّا لو كان في مواجهةٍ فهو القائل:

فإن نهزِم فهزّامون قدماً

وإن نُهزَم فغير

مهزَّمينا

وما إن طبّنا جُبنٌ، ولكن

منايانا ودولة

آخَرينا ((2))

التصريح السادس: هيهات منّا الذلة

قد اشتهر عن أبيّ الضيم وسيّد الشهداء (عليه السلام) ، حتّي صار شعاراً يحفظه الناس، قوله (عليه السلام) :

ص: 132

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 123، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 226، مثير الأحزان لابن نما: 23، اللهوف لابن طاووس: 70، المنتخب للطريحي: 2 / 389.

2- إثبات الوصيّة للمسعودي: 127، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 2 / 6، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: 14 / 219، بُغية الطلب لابن العديم: 6 / 2587، الاحتجاج للطبرسي: 2 / 24، بحار الأنوار: 45 / 83، مثير الأحزان لابن نما: 28، اللهوف لابن طاووس: 96.

ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة ((1))، وهيهات منّا الذلّة ((2))..

في خطبةٍ له يوم عاشوراء.

والسلّة: استلال السيوف ((3))، والذلّة: هي قبول البيعة، لأنّه (عليه السلام) يقول بعد ذلك مباشرة: «يأبى اللهُ ذلك ورسولُه والمؤمنون، وحُجورٌ طابت وأُنوفٌ حميّة ونفوسٌ أبيّة، أن نُؤثِر طاعة اللئام على مصارع الكرام»..

فالقضيّة _ كما يصوّرها كلام سيّد الشهداء (عليه السلام) _ تقوم على هجوم القرد الأُمويّ المسعور على الإمام الّذي أذهب الله عنه الرجس وطهّره تطهيراً، وقد جعله بين خيارين لا ثالث لهما:

إمّا أن يبايع يزيد الفسق والفجور والقمار والخمور والزنا والمجون، وهذه هي الذلّة بكلّ أبعادها وتفاصيلها وأشكالها.

1- إختلفوا في الألفاظ، بيد أنّها جمعياً تفيد نفس المعنى، ففي (إثبات الوصيّة) للمسعوديّ مثلاً: قد ذكر بين ثنيّة السلّة والذلّة، وهيهات منّا الدنيّة، وفي (تحف العقول): قد ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الدنيّة..

2- أُنظر: إثبات الوصيّة للمسعودي: 127، تحف العقول للحرّاني: 274، الأمالي لأبي طالب الزيدي: 95، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 2 / 6، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: 14 / 219، تهذيب ابن بدران: 4 / 333، بغية الطلب لابن العديم: 6 / 2587، الاحتجاج للطبرسي: 2 / 24، مثير الأحزان لابن نما: 28، اللهوف لابن طاووس: 96، بحار الأنوار: 45 / 8، العوالم للبحراني: 17 / 251.

3- أُنظر: لسان العرب: مادّة «سلل».

وإمّا أن يُقتَل، وهو لا يُقتَل حتّي يقاتل، وهو يعلم أنّه مقتولٌ بكلّ الحسابات الدنيويّة والغيبيّة.

فاختار معدنُ الإباء والمظهر الكامل التامّ لعزّة الله ورسوله والمؤمنين القتلَ في الله علي الذلّة الممقوتة.*****

نكتفي بهـذا القـدر، إذ ذكرنا نموذجاً من كلامه (عليه السـلام) في المدينة وفي الطريق وفي كربلاء ((1))، وسـتأتي في ثنايا البحث شواهد ونماذج أُخري، ولو أردنا الاستقصاء لَطال بنا المقام.

النكتة الثامنة: سبب الخروج من المدينة في فهم المؤرّخين

بالإضافـة إلي عبـارات المؤرّخين الّـتي تُفرّع خروج سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) بمن معه من المدينـة علي إلحـاح الجراء الأُمويّـة عليه، ومطالبته بالبيعة واسـتمرارهم بالنباح عليه ومحاولة انتهاشه، كما هو ظاهرٌ مِن تصـفّح المتون التاريخيّة، فإنّ بعضـهم صرّح بذلك، وسنذكر أقوال بعضهم كمثال، بغضّ النظر عن مناقشة عباراتهم، ولو كانت مخالفةً للأدب في مقام التعبير عن سيّد الكائنات وسيّد شباب أهل الجنّة (عليه السلام) ..

قال ابن كثير:

وصمّم علي المخالفة الحسينُ وابن الزبير، وخرجا من المدينة

ص: 134

1- سيأتي البحث في ظروف خروجه (عليه السلام) من مكّة، وكذا الحديث عن ظروف الطريق وكربلاء إن شاء الله تعالي.

فارّين إلي مكّة ([(1)]).

ابن حجر:

وسبب مخرجه ــ رضـي الله عنه!! ــ أنّ يزيد لمّا اسـتخلف سنة ستّين أرسل لعامله بالمدينة أن يأخذ له البيعة علي الحسين، ففرّلمكّة خوفاً علي نفسه ([(2)]).

المسعودي:

وطُولب الحسين بالبيعة ليزيد بالمدينة، فسام التأخير، وخرج ([(3)]).

مسكويه:

وخرج عبد الله بن الزبير والحسين إلي مكّة لمّا أخذهما عامل يزيد بالبيعة، وكانا يومئذٍ بالمدينة ([(4)]).

الزيديّ:

خرج (عليه السلام) من المدينة حين ورد نعي معاوية، وطُولب بالبيعة ليزيد ... إلي مكّة ([(5)]).

الدميريّ:

1- البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 151.
2- الصواعق المحرقة لابن حجر: 117.
3- التنبيه والإشراف للمسعودي: 3 / 64.
4- تجارب الأُمم لمسكويه: 2 / 39.
5- الإفادة للزيدي: 57.

ولم يبايعه الحسين بن علي ـ رضي الله تعالي عنهما!! ـ ولا عبد الله بن الزبير ـ رضي الله تعالي عنه!! ـ، واختفيا من عامله الوليد بن عُقبة بن أبي سفيان، وأقاما مصرَّين علي الامتناع إلي أن قُتِل الحسين ـ رضي الله تعالي عنه!! ـ بكربلاء ((1)).

ابن عنبة:

وأراده يزيد لعنه الله علي البيعة، وكتب بذلك إلي الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عامله علي المدينة، فلم يبايعه وخرج إليمكّة ((2)).

فهذه التعابير وغيرها ((3)) تؤكّد أنّ خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة كان علي أثر امتناعه عن البيعة، والتهديد الجدّي الّذي تعرّض له ـ فداه العالمين ـ.

فكان خروجه (عليه السلام) بلحاظ ما جري في المدينة، ومعالجةً للموقف هناك، ولا يبدو من فهم المؤرّخين أنّهم عبّروا عن شيءٍ مبيَّتٍ عند الإمام (عليه السلام) لما يسمّونه «الخروج الاصطلاحيّ»، وعن خطّةٍ مستقبليّةٍ محدّدة المعالم واضحة التفاصيل، تكشف عن برنامجٍ معَدٍّ سلفاً من المدينة، حيث يتوجّه سيّد الشهداء (عليه السلام) لهدم كيانٍ وإقامة كيانٍ آخَر

1- حياة الحيوان للدميري: 1 / 91.
2- عمدة الطالب لابن عنبة: 191.
3- أُنظر: الإرشاد للمفيد: 2 / 34، بحار الأنوار: 44 / 326، العوالم للبحراني: 17 / 176، إعلام الوري للطبرسي: 1 / 435.

وفق موازين الثورات ومتطلّباتها وركائزها وأركانها وأبعادها.

النكتة التاسعة: تصوّرات الأقرباء والمقرّبين

كانت كلّ المؤشّرات عند المقرّبين عند سيّد الشهداء (عليه السلام) من أهله وذويه _ علي الأقلّ _ تفيد أنّهم يرون الإمام الحسين (عليه السلام) مقتولاً لامتناعه عن البيعة، وأنّ خروجه من المدينة لينجو بنفسه وأهله من القتل هناك..

فقد حدّث عمر بن علي بن أبي طالب قال:

لمّا امتنع أخي الحسين (عليه السلام) عن البيعة ليزيد بالمدينة، دخلتُعليه فوجدتُه خالياً، فقلت له: جُعلتُ فداك يا أبا عبد الله، حدّثني أخوك أبو محمّد الحسن، عن أبيه (عليهما السلام) . ثمّ سبقني الدمعة وعلا شهيقي، فضمّني إليه وقال: حدّثك أنّي مقتول؟ فقلت: حُوشيتَ يا ابن رسول الله. فقال: سألتُك بحقّ أبيك، بقتلي خبّرك؟ فقلت: نعم، فلولا ناولت وبايعت!! فقال: حدّثني أبي أنّ رسول الله (صلي الله عليه و آله) أخبره بقتله وقتلي، وأنّ تربتي تكون بقرب تربته، فتظنّ أنّك علمتَ ما لم أعلمه؟ وأنّه لا أعطي الدنيّة من نفسي أبداً، ولَتلقينّ فاطمةُ أباها شاكيةً ما لقيَت ذرّيّتُها من أُمّته، ولا يدخل الجنّة أحدٌ آذاها في ذرّيّتها ((1)).

1- اللهوف لابن طاووس: 26.

فهو يتمنّي علي سيّد الشهداء (عليه السلام) أن يُبايع ليأمن، «فلولا ناولت وبايعت» وتنتهي الحكاية، فلا يُقتَل بعدها أبو عبد الله الحسين (عليه السلام) !! وليس الأمر كذلك؛ إذ إنّهم لا يتركونه كما أكّد ذلك النبيّ (صلي الله عليه و آله) مُخبِراً عن الله، وأكّده الأئمّة المعصومون (عليهم السلام) ، وشهدَت به سوابق القوم وفعالهم.

وقد اجتمعن نساء بني عبد المطّلب للنياحة عليه لمّا همّ بالشخوص من المدينة، حتّي مشي فيهنّ الحسين (عليه السلام) وناشدهنّ، فقلن: فلِمَن نستبقي النياحة والبكاء؟ فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله (صلي الله عليه و آله) وعليٌّ وفاطمة ورقيّة وزينب وأُمّ كلثوم، فنُنشدك الله، جعلنا الله فداك منالموت يا حبيب الأبرار من أهل القبور. وأقبلَت بعض عمّاته تبكي وتقول: أشهد يا حسين لقد سمعتُ الجنّ ناحت بنوحك ((1)).

وعن سكينة بنت الحسين (عليه السلام) قالت: لمّا خرجنا من المدينة، ما كان أحدٌ أشدّ خوفاً منّا أهل البيت ((2)).

وستأتي الإشارة إلي بكاء أهل البيت وبني عبد المطّلب بعد أن قصّ عليهم سيّد الشهداء (عليه السلام) رؤياه.

النكتة العاشرة: فهم الشيعة في الكوفة

روي ابن أعثم والخوارزمي وابن أبي طالب، واللفظ للأوّل:

1- أُنظر: كامل الزيارات لابن قولويه: 96.

2- المنتخب للطريحي: 2 / 421، مقتل الحسين (عليه السلام) لأبي مخنف (المشهور): 15.

قال: وبلغ ذلك أهل الكوفة أنّ الحسين قد صار إلي مكّة، وأقام الحسين بمكّة باقي شهر شعبان وشهر رمضان وشوّال وذي القعدة [...].

وأقام الحسين بمكّة، قد لزم الصوم والصلاة، واجتمعت الشيعة بالكوفة.

قال: واجتمعت الشيعة في دار سليمان بن صُرَد الخزاعيّ، فلمّا تكاملوا في منزله قام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثني عليه وصلّي علي النبيّ صلّي الله عليه وسلّم وعلي أهل بيته، ثمّ ذكر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب فترحّم عليه وذكر مناقبه الشريفة،ثمّ قال:

يا معشر الشيعة، إنّكم قد علمتُم بأنّ معاوية قد هلك، فصار [وصار] إلي ربّه وقدم علي عمله، وسيجزيه الله تبارك وتعالي بما قدّم من خيرٍ وشرّ، وقد قعد في موضعه ابنه يزيد _ زاده الله خزياً _، وهذا الحسين بن عليّ قد خالفه وصار إلي مكّة خائفاً من طواغيت آل أبي سفيان، وأنتم شيعته وشيعة أبيه من قبله، وقد احتاج إلي نصرتكم اليوم، فإن كنتم تعلمون أنّكم ناصروه ومجاهدو عدوّه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوهن والفشل فلا تغرّوا الرجل من نفسه.

فقال القوم: بل ننصره ونقاتل عدوّه، ونقتل أنفسنا دونه حتّي ينال حاجته.

ص: 139

فأخذ عليهم سليمان بن صُرَد بذلك ميثاقاً وعهداً أنّهم لا يغدرون ولا ينكثون، ثمّ قال: اكتبوا إليه الآن كتاباً من جماعتكم أنّكم له كما ذكرتم، وسلوه القدوم عليكم ((1)).

يبدو من كلام سليمان بن صرد في خطابه لمَن اجتمع إليه أنّه قد أدرك أنّ خروج سيّد الشهداء الحسين بن علي (عليهما السلام) من المدينة إلي مكّة إنّما كان خوفاً من طواغيت آل أبي سفيان بعد أن خالف يزيد وأبيمبايعته، ودعاهم إلي نصره ومجاهدة عدوّه، وأنّهم إنّما يدعونه ليدفعوا عنه، فوعدوه أن ينصروه ويقاتلوا عدوّه ويقتلوا أنفسهم دونه..

وبغضّ النظر عن مناقشة الخطبة وما قاله سليمان بن صرد ومدي صدقه وصدق من وعده النصر، فإنّ جواب القوم _ لا شكّ _ كان علي كلام سليمان، وقد حدّد سليمان صراحةً السببَ الّذي أدّي بالإمام الحسين (عليه السلام) إلي مكّة..

وهذا الكلام كلّه يخصّ هذا المقطع ممّا رواه ابن أعثم ((2)).

*****

ويمكن اختصار كلّ ما مرّ من الشواهد والمشاهد التاريخيّة بكلمة:

إنّ القرد الأُمويّ المسعور المتشظّي حقداً والمتميّز غيظاً علي سيّد

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 38، مقتل الحسين (عليه السلام) : 1 / 190، تسلية المجالس لابن أبي طالب: 2 / 164.
2- إنّما استطرنا في ذكر بعض الشواهد من خارج المدينة لتوضيح الصورة، وتفصيل الكلام في الشواهد يأتي كلٌّ في محلّه إن شاء الله تعالي.

الشهداء (عليه السلام) أبي إلّا أن يأخذ البيعة من الطّهر الطاهر ابن فاطمة البتول (عليها السلام) ، أو يأخذ رأسه!

والجميع يعلم أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) هو الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، وأنّ نفس أبيه بين جنبيه.. وهيهات أن يُرغَم علي هذه البيعة فيقبل بالدنيّة، فلابدّ من الخيار الآخر.. لابدّ من قتله؛ لأنّه لا يبايع!

نقول: «لابدّ»؛ لأنّ ابن ميسون الفاجرة أبي أن يجعل مخرجاً ثالثاً، ولمّا كان الخيار الأوّل مستحيلاً كما صرّح به الإمام الحسين (عليه السلام) نفسه، فيلزم أن يتعيّن الثاني.هكذا هو الجوّ في المدينة عند خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من حرم جدّه، بل هكذا بقيَت الأجواء والظروف طيلة فترة الطريق إلي مكّة ثمّ إلي كربلاء.

هم لا ـ ينزلون عن محاولاتهم في إرغام العزّ الإلهيّ، ويأبي الله ذلك ورسوله والمؤمنون وإمامهم.. وإمام الكون يحذّرهم وينذرهم ويدعوهم إلي الجنّة، فيرتدّون عليه ويردّون كلامه أن انزلْ علي حكم القرود وأولاد البغايا، وهو يقول: «هيهات منّا الذلّة.. والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد».

النكتة الخاتمة: الاستنهاض والاستنصار!

في السرد السابق السريع العجلان توصيفٌ لظروف خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة حفاظاً علي حرمتها وحرمته وحرمة أهل بيته،

ص: 141

ولم نجد _ حسب الفحص _ أيَّ تصريحٍ يفيد صراحةً أو تلويحاً أنّ الإمام (عليه السلام) خطب في الناس أو في كبار القوم أو أنّه استنهض عامّة أهل المدينة ورجالها، أو دعاهم للقيام و«الخروج الاصطلاحيّ» معه، أو حرّضهم علي الأُمويّين أو علي شخص القرد المخمور يزيد، أو رتّب لقاءاتٍ أو محافلَ ومحاوراتٍ لكشف الظالم وتعرية يزيد القرد المخمور الحاكم، أو أيّ نشاطٍ سياسيّ أو اجتماعيّ أو عسكريّ آخر..

والحال أنّ المدينة هي مسقط رأسه، وتحتوي المجتمع الّذي شاهدهمع جدّه، وربما سمع فضائله ومناقبه من رسول الله (صلي الله عليه و آله) مباشرة، وهم _ كما يقولون _ فيهم من رجال الحلّ والعقد ورؤوس الصحابة والتابعين، ومركز الأنصار المبايعين علي الدفاع والنصرة والمهاجرين.. وغيرها من الظروف المساعدة علي إعلان «الخروج الاصطلاحيّ» والاستمداد من رجالها من سكّان المدينة والمجاورين والزائرين.

لم يكن الّذي كان أكثر من استمهالٍ للساعات وتمديدٍ للحظات الزمان، حتّي يتسنّي الخروج من المدينة بأمان.

أمّا في مكّة فسيأتي الكلام عنها إن شاء الله تعالي.

نكات تتعلّق بالوصيّة مباشرة

اشارة

أشرنا _ قبل قليل _ إلي جملة نكاتٍ ضروريّةٍ لفهم أجواء صدور الوصيّة، أمّا الآن فنتناول جملةً أُخري من النكات، بيد أنّها تتعلّق بالوصيّة مباشرةً لا بالظروف المحيطة بها، وهي أيضاً لا تقلّ أهمّيّةً عن النكات السابقة:

النكتة الأولي: ملاحظة اتّحاد الصدر والذيل في النصّ

ينبغي الالتفات إلي نكتةٍ مهمّةٍ تفيد في فهم النصّ الّذي نحن بصدد دراسته، وهي:

إنّ النصّ حينما يصدر في موضعٍ واحدٍ ويكون مترابط الأجزاء يدلّ بعضه علي بعض، وتفسّر جملاته بعضها بعضاً وتشير إليها وتكونبمجموعها كلّاً واحداً، ويكون كلّ مقطع فيه ناظراً إلي المقطع الآخر، فحينئذٍ لا يمكن أن نجتزأ منه مشهداً ترسمه جملةٌ أو نقتطع جزء صورةٍ تحكيها عبارة، ونشتّت الحديث ونميّز بين صدره وذيله وهما مترابطان متواصلان مسترسلان يكمّل أحدهما الآخر ويبيّنه ويشرحه، تماماً كمن يأخذ بالإطلاق ويعرض عن القيد الموجود في نفس الجملة، علي طريقة (وَيلٌ لِلمُصَلّينَ) أو (لا إله) دون إكمال الجملة..

فينبغي أن تُفهَم الوصيّة ككلٍّ واحد، ولا يؤخذ صدرها بمعزلٍ عن ذيلها، والحال أنّ ما في الذيل تتمّة للصدر، كما سيتبيّن لنا حينما نتناول متن الوصيّة إن شاء الله تعالي.

النكتة الثانية: أُحبّ المعروف وأُنكِر المنكر

اشارة

قال ابن أعثم:

وخرج الحسين بن عليٍّ من منزله ذات ليلة وأتي إلي قبر جدّه (صلي الله عليه و آله) ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، أنا الحسين ابن فاطمة، أنا فرخك وابن فرختك، وسبطك في الخلَف الّذي خلّفتَ علي أُمّتك (الخوارزمي: والثقل الّذي خلّفتَه في أُمّتك)،

ص: 143

فاشـهدْ عليهم يا نبيّ الله أنّهم قد خذلوني وضـيّعوني، وأنّهم لـم يحفظوني، وهذا شـكواي إليك حتّي ألقاك، صـلّي الله عليكوسلّم. ثمّ وثب قائماً وصفّ قدميه، ولـم يزل راكعاً وساجداً.

قال: ورجع الحسـين إلي منزله مع الصـبح، فلمّا كانت الليلـة الثانية خرج إلي القبر أيضاً، فصـلّي ركعتين، فلمّا فرغ من صـلاته جعل يقول: اللّهـمّ إنّ هـذا قبر نبيّك محمّـد، وأنا ابن بنت محمّـد، وقـد حضـرني من الأمر ما قـد علمت، اللّهـمّ وإنّي أُحبّ المعروف وأكره المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحقّ هذا القبر ومَن فيه ما اخترت من أمري هذا ما هو لك رضي.

قال: ثمّ جعل الحسـين يبكي، حتّي إذا كان في بياض الصـبح وضع رأسه علي القبر فأغفي ساعة، فرأي النبيّ (صـلي الله عليه و آله) قد أقبل في كبكبةٍ من الملائكة عن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه، حتّي ضمّ الحسينَ إلي صدره وقبّل بين عينيه، وقال: يا بُنيّ يا حسين، كأنّك عن قريبٍ أراك مقتولاً مـذبوحاً بأرض كربٍ وبلاء من عصابـةٍ من أُمّتي، وأنت في ذلك عطشان لا تُسـقي وظمآن لا تُروي، وهـم مع ذلك يرجون شـفاعتي، ما لَهم؟ لا أنالهم الله شـفاعتي يوم القيامـة! فما لهم عنـد الله من خَلاق، حبيبي يا حسـين، إنّ أباك وأُمّك وأخاك قد قدموا علَيّ، وهم إليك مشتاقون، وإنّ لك في الجنّة درجاتٍ لن تنالها إلّا بالشهادة.

ص: 144

قال: فجعل الحسين ينظر في منامه إلي جدّه (صلي الله عليه و آله) ويسمع كلامه، وهو يقول: يا جدّاه، لا حاجة لي في الرجوع إلي الدنيا أبداً، فخُذْني إليك واجعلني معك إلي منزلك.

قال: فقال له النبيّ (صلي الله عليه و آله) : يا حسين، إنّه لابدّ لك من الرجوع إلي الدنيا؛ حتّي تُرزَق الشهادة وما كتب الله لك فيها من الثواب العظيم، فإنّك وأباك وأخاك وعمّك وعمّ أبيك تُحشَرون يوم القيامة في زُمرةٍ واحدةٍ حتّي تدخلوا الجنّة.

قال: فانتبه الحسين من نومه فزعاً مذعوراً، فقصّ رؤياه علي أهل بيته وبني عبد المطّلب، فلم يكن ذلك اليوم في شرقٍ ولا غربٍ أشدّ غمّاً من أهل بيت الرسول (صلي الله عليه و آله) ، ولا أكثر منه باكياً وباكية ((1)).

*****

في النصّ المذكور مطالب وموادّ مهمّة لا نريد التعرّض لها بالتفصيل، ونكتفي بالإشارة السريعة إلي بعض ممّا له علاقة مباشرة ببحثنا هنا:

الإشارة الأُولي: الشكوي للنبيّ (صلي الله عليه و آله)

حسب نصّ ابن أعثم ومَن تبعه، فإنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) خرج ليلتين إلي قبر جدّه رسول الله (صلي الله عليه و آله) ، فشكي في الليلة الأُولي لجدّه واستخار في الليلة الثانية ربّه، فقال مخاطباً جدّه بعد السلام عليه:

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 26_ 29.

«يـا رسول الله، أنا الحسـين ابن فاطمـة، أنا فرخُك وابن فرختك، وسـبطك في الخلَف الّـذي خلّفتَ علي أَمّتك (الخوارزمي: والثقل الّـذي خلّفتَه في أُمّتك)، فاشهدْ عليهم يا نبيَّ الله أنّهم قد خذلوني وضيّعوني، وأنّهم لم يحفظوني، وهذا شكواي إليك حتّي ألقاك، صلّي الله عليك وسلّم».

وقد بثّ ريحانة النبيّ (صـلي الله عليه و آله) عند جدّه شـكواه بعد أن عرّف نفسه: أنا الحسين ابن فاطمة.. أنا فرخك وابن فرختك.. سبطك، الخلف والبقيّة الباقية بعد الحسن المجتبي وأُمّه فاطمة الزهراء (عليهم السلام) ، الّذين خلّفهم في هذه الأُمّة ودائع، والثقل الّذي قرن القرآن به..

إنّها والله شـكوي لوحدها.. أن يقول الحسـين لجدّه:: أنا الحسـين، أنا الحسين حبيبك، أنا الذكري الوحيدة الّذي خلّفتَ في أُمّتك بعد أُمّي وأخي، أنا وديعتك في هذه الأُمّة، أنا الحسـين ابن فاطمة، فرختك.. انتسب إليه بابنته المظلومة المهضومة الغريبة الحبيبة، الّتي كانت روحه الّتي بين جنبَيه.. كم في هـذا الانتساب عند النبيّ (صـلي الله عليه و آله) من تظلُّمٍ يهدّ الجبال الرواسـي ويفجّر الدموع دماً علي غربة سـيّد شباب أهل الجنّة!

أيكون السبط العزيز الحبيب غريباً مخذولاً مضيَّعاً، وقد أودعه النبيّ (صلي الله عليه و آله) في هذه الأُمّة وديعة؟!

ثمّ يشكو له بعد أن يستشهده عليهم، ويخاطبه بصفة النبوّة، بالصفة الّتي يجب علي مَن قبل نبوّته أن يطيعه بنصّ القرآن وصريح آياته..

فاشهدْ عليهم يا نبيّ الله أنّهم قد خذلوني، وضيّعوني، وأنّهم لميحفظوني، وهذا شكواي إليك حتّي ألقاك، صلّي الله عليك وسلّم.

ص: 146

ويؤكّد له شكواه ب- «(أنّ)» وبالضمير، و«قد»، وصيغة الماضي، ويكرّر «أنّ» والضمير العائد لهم مرّتين في الجملة رغم قصرها، وقد قرن الضمير ب-- «أنّ»..

إنّهم قد خذلوني.. وضيّعوني.. وإنّهم لم يحفظوني!!

ويستخدم «ياء المتكلِّم» للدلالة علي نفسه المقدّسة، فلم يقل: خذلونا، أو: خذلوا ابنك.. فقد خذلوا شخصه وذاته الكريمة المقدّسة.. خذلوني.. ضيّعوني.. لم يحفظوني..

فمنذ اللحظة الأُولي الّتي دُعي فيها للبيعة وأبي إمام الإباء فطُلب دمُه واستهدوا رأسه المقدّس، تخلّي عنه الأوغاد والأوباش ودعاة الصحبة والبيعة علي الدفاع عن النبيّ وأهل بيته بما يدفعون به عن أنفسهم وأهليهم وأكثر..

خذلوه في المدينة المنوّرة الّتي تعرفه كبيرهم وصغيرهم، وقد رأوه مع النبيّ (صلي الله عليه و آله) ورأوا ما يفعله النبيّ (صلي الله عليه و آله) ويقوله فيه وعنه، وشاهدوا حبّه له..

خذلوه، وضيّعوه، ولم يحفظوه!

يا لَغربتك يا حبيب الله وحبيب رسوله (صلي الله عليه و آله) !

الإشارة الثانية: المبيت عند النبيّ (صلي الله عليه و آله) حتّي الصباح

حينما روي ابن أعثم خروج الإمام المظلوم (عليه السلام) إلي قبر جدّه (صلي الله عليه و آله) في الليلة الأُولي، عقّب وقال: ورجع الحسين إلي منزله مع الصبح، وفي الليلة الثانية قال: ثمّ جعل الحسين يبكي حتّي إذا كان في بياض الصبح..

وكلا العبارتين تدلّان بوضوح أنّ الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) قد قضي

ليلتَيه عند قبر النبيّ (صلي الله عليه و آله) حتّي الصباح.

لقد بات سبط النبيّ (صلي الله عليه و آله) عند جدّه في تلك الليالي الأخيرة من حياته المباركة في المدينة.. يا لها من ساعاتٍ صعبةٍ مكفهرّة!! وهو عازمٌ علي مفارقة تربة جدّه وأُمّه وأخيه، ومسقطِ رأسه والبيت الّذي كان مهبط الوحي ومنتدي الرسالة، وذكريات الأيّام الخوالي في كنَف رسول الله (صلي الله عليه و آله) ..

كيف خرج في تلك الظروف إلي قبر جدّه في الليل، وهو مهدَّد، وأهل بيته مهدَّدون؟!

هل كان عند قبر جدّه غيره من الناس الأجلاف؟

هل خرج وحده، أو مع ثُلّةٍ من فتيان بني أبي طالب؟

هل جاء أحدٌ من القوم ليتهجّد في المسجد أو يصلّي صلاة الصبح، فرأي سيّد الشهداء (عليه السلام) بتلك الحالة، واضعاً رأسه علي قبر جدّه (صلي الله عليه و آله) وقد أغفي؟

هذه الأسئلة وغيرها لم يلتفت إليها المؤرّخ لغرضٍ أو لغير غرض،فلم يُجِب عليها، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم!

الإشارة الثالثة: البكاء حتّي الصباح

ثمّ جعل الحسين يبكي حتّي إذا كان في بياض الصبح.. هكذا عبّر المؤرّخ، وربّما يُستفاد من عبارته أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) قد استمرّ في بكائه حتّي بان بياض الصبح، فكانت الدموع تتلألأ علي لحيته الكريمة في فحمة الدجي، وهو عند قبر جدّه (صلي الله عليه و آله) ..

آه! لهفي لتلك الدموع وذاك البكاء! أيبكي حبيب الرسول وليس في القوم مَن يستمع بكاءَه ويسأله ويلتاع ويتحرّق لأنينه؟!!

الإشارة الرابعة: الاستخارة

بعد أن قضـي سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) ليلته الأُولي يشـكو إلي جدّه (صـلي الله عليه و آله) ، شرع في الليلة الثانية بالاستخارة، فصلّي ركعتين، فلمّا فرغ من صلاته جعل يقول:

«اللّهم إنّ هـذا قبر نبيّك محمّـد، وأنا ابن بنت محمّـد، وقد حضـرني من الأمر ما قد علمت، اللّهمّ وإنّي أُحبّ المعروف وأكره المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحقّ هذا القبر ومَن فيه ما اخترت من أمري هذا ما هو لك رضي».

وهنا يتقرّب إلي الله بنبيّه وابنـة نبيّه..: «اللّهم إنّ هـذا قبر نبيّك محمّد، وأنا ابن بنت محمّد»..ثمّ يعرض الحالة التي هو فيها: «وقد حضـرني من الأمر ما قد علمت».. والله يعلمها، وقد أوجز سيّد الشهداء (عليه السلام) بقوله: قد حضرني من الأمر ما قد علمت.

فلو فهمناها ضـمن الجوّ الّذي رسـمه لنا المؤرّخ، فهو يُخبِر عن تخييره بين البيعة والقتل، وما جري عليه في المدينة وما ينتظره في طريقه إلي كربلاء والفتح بالشهادة.

ثمّ يُقسِم علي الله بالقبر ومَن فيه.. فللقبر وحده حرمةٌ يُقسِم بها علي الله! ويسأله أن يختار له ما هو رضيً له، ورضاه لا شكّ هو رضي

الحسين (عليه السلام) ، ورضي الحسين رضاه؛ «رضي الله رضانا أهل البيت»..

الإشارة الخامسة: حبّ المعروف وإنكار المنكر

بعد أن استخار الله تبارك وتعالي وقال: «وقد حضرني من الأمر ما قد علمت»، أخبر الإمام المظلوم (عليه السلام) عمّا فعله أعداء الله وأعداء رسوله وأهل بيته من مضايقةٍ وتهديدٍ وطلبٍ لرأسه، وارتكازهم بين اثنتين: «السلّة أو الذلة»، وهيهات منه الذلّة؛ إذ يأبي الله له ذلك ورسولُه والحجور الطيّبة والأُنوف الحميّة ووالنفوس الأبيّة أن يؤثر طاعة اللئام علي موتة الكرام، فأبي الإمام (عليه السلام) البيعة ليزيد القرود والفسق والفجور، وعدّ ذلك منكَراً، واستقبل القتل استقبالاً في الله، وعدّ ذلك معروفاً! «اللّهمّ وإنّي أُحبّ المعروف وأكره المنكر»..

إنّ الإمام الآن في المدينة مُخيَّرٌ من قِبَل أبناء الطلقاء الأدعياء بينالبيعة وبين القتل، وهو يشكو هذا الحال للنبيّ (صلي الله عليه و آله) بعد أن خذلَته الأُمّة وضيّعَته ولم تحفظه، ويستخير الله ليقضي الله ما أحبّ واختار له من الشهادة منذ أن خلق الله الخلق وقبل ذلك..

فكأنّ الإمام السبط الشهيد (عليه السلام) يقول: يا ربّ، إنّك تعلم أنّي أُحبّ المعروف وأكره المنكر، فكيف أُبايع هذه البيعة النكراء الذليلة؟!

ولا يخفي أنّ فهم هذا المقطع من كلام الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) مهمٌّ ومؤثّر جدّاً في فهم ما ورد في الوصيّة، كما سيتّضح إن شاء الله تعالي.

ولا شكّ أنّ الأنبياء والأوصياء والأئمّة المعصومين جميعاً كانوا يحبّون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قاموا بذلك أحسن قيامٍ علي

اختلاف مواقعهم وظروفهم، بل إنّما هو تكليفٌ ينبغي للمؤمن أن يعقد العزم والنيّة عليه ويسعي إلي امتثاله، فضلاً عن الأنوار المقدّسة للمعصومين (عليهم السلام) .

الإشارة السادسة: مؤدّي الرؤيا

لمّا استخار الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) ربّه فقد خار الله له، وجاء جدّه النبي (صلي الله عليه و آله) ليخبره بخيرة الله تبارك وتعالي، فرآه في الرؤيا قد أقبل في كبكبةٍ من الملائكة عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه، حتّي ضمّ الحسين (عليه السلام) إلي صدره وقبّل بين عينيه، فأذاق سيّد الشهداء (عليه السلام) الحبَّ والحنان وضمّة الصدر والقُبلات الّتي كان ينعم بها أيّام حياة النبي (صلي الله عليه و آله) ، ثمّ خاطبه بكلمة: «يا بُني»، وناداه باسمه: «يا حسين»، ثمّ جعل يخبره بخيرة الله له وما سيؤول إليه أمره في هذه الدنيا، وأنّ هذا الأمر سيتحقّق قريباً، إنْ هي إلّا أيّامٌ ويرجع الحسين (عليه السلام) إلي صدر جدّه، لكن بعد أن يراه النبيّ (صلي الله عليه و آله) بنفسه مقتولاً، وحدّد له نوع القتل «مذبوحاً»، وعيّن له المكان «بأرض كربٍ وبلاء»، وشخّص له القتلَة وهم «عصابةٌ من أُمّته»، متكاتفة متآزرةً متساندةً متعاضدةً في عصابةٍ واحدة، ثمّ عرّج علي بقيّة المصيبة العظمي الّتي تنتظره، والحالة الّتي سيُقتَل بها مذبوحاً، فهو في ذلك عطشانٌ لا يُسقي وظمآنٌ لا يُروي.

ويا لها من فاجعة، إذ يُقتَل ابنُ رسول الله بهذه الصورة من عصابةٍ تفعل ذلك رجاء شفاعة جدّه سيّد الأنبياء (صلي الله عليه و آله) ، يقتلونه ويتقرّبون إلي الله بقتل حبيب الله وحبيب حبيب الله، فهم يتديّنون بقتله!!

ص: 151

بيد أنّ النبيّ أخبر ـــ ولله الحمد ـــ بخيبتهم، وبيّن مصيرهم وأنّهم سيُحرَمون الشفاعة ويبوؤون بغضب الله وسخطه، وما لهم عند الله من خَلاق..

ثمّ خاطبه: «حبيبي يا حسين! إنّ أباك وأُمّك وأخاك قد قدموا علَيّ، وهم إليك مشتاقون، وإنّ لك في الجنّة درجاتٍ لن تنالها إلّا بالشهادة».

اجتمع أصحاب الكساء (عليهم السلام) إلّا خامسهم سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وهم مشتاقون إليه، وهو مشتاقٌ إليهم؛ «وما أولهني إلي لقاء أسلافي اشتياق يعقوب إلي يوسف» ((1))، لقد اشتاق الحبيب إلي حبيبه، فهم جميعاً يستعجلون اللقاء..

وسيّد الشهداء (عليه السلام) يريد أن يلحق بجدّه، ويلتقي بالأحبّة من أهله، فجعل الحسين (عليه السلام) ينظر في منامه إلي جدّه (صلي الله عليه و آله) ويسمع كلامه، وهو يقول: «يا جدّاه! لا حاجة لي في الرجوع إلي الدنيا أبداً، فخذني إليك، واجعلني معك إلي منزلك».

ولكن لا لقاء إلّا من أرض كربلاء.. فقال له النبيّ (صلي الله عليه و آله) : «يا حسين! إنّه لابدّ لك من الرجوع إلي الدنيا؛ حتّي تُرزَق الشهادة وما كتب الله لك فيها من الثواب العظيم، فإنّك وأباك وأخاك وعمّك وعمّ أبيك تُحشَرون يوم القيامة في زُمرةٍ واحدةٍ حتّي تدخلوا الجنّة».

إنّ الشهادة رسمت لسيّد الشهداء (عليه السلام) منذ أن أشرق نور الحسين (عليه السلام) علي الكائنات، وكتب الله له بها درجةً خاصّةً به.. فإذا كان أخوه

1- المنتخب للطريحي: 2 / 389، اللهوف لابن طاووس: 60.

أبو الفضل العبّاس (عليه السلام) قد رُزق منزلةً بشهادته بين يدَي إمامه يغبطه بها جميع الشهداء، فما بال منزلة سيّده وسيّد الشهداء (عليه السلام) ؟!

وهنا تبدّدَت جميع التصوّرات والخيالات، وتمزّقت كلّ المنسوجات الّتي حاكتها أذهان البشر المحدودة، وتحطّمت كلّ الصروح الّتي ارتفعت علي هوادج حركة الشهيد الفاتح، لتعلن من ذاتيّاتها أهدافاً وأغراضاً ومقاصد لقيام الإمام (عليه السلام) الّذي كان يسير والمنايا تسير معه..لقد أخبر في رؤياً معصومةٍ رأي فيها معصومٌ معصوماً أنّه يخرج إلي مصرعه، وأنّه مقتولٌ مذبوحٌ تنتظره الشهادة في أرض كربٍ وبلاء!

فكيف يُتصوَّر في حقّ سيّد الشهداء (عليه السلام) وخامس أصحاب الكساء (عليهم السلام) وقد أخبره جدّه الصادق المصدّق (صلي الله عليه و آله) أنّه يسعي إلي الشهادة المكتوبة له في كربلاء، ثمّ يُقال في حقّه أنّه قصد الكوفة؟! قصد ابن زياد؟! قصد يزيد؟! قصد إسقاط نظام؟! قصد محاربة اللئام لإقامة حكم الكرام؟!!

وبحثنا هذا كلّه وفق النصوص التاريخيّة، أمّا إذا وسّعنا نطاق البحث إلي النصوص الشرعيّة والمتون المعصومة المرويّة الّتي تظافرت وتكاثرت حتّي ملأت أسفاراً، فلا مجال للاستدلال علي قضيّةٍ تبدو أكثر من بديهيّةٍ ضروريّةٍ قطعيّةٍ جزميّةٍ لا يجرؤ أن يرتاب فيها مكابر!

الإشارة السابعة: حزن أهل البيت (عليهم السلام) وبكاؤهم

لقد قصّ سيّد الشهداء (عليه السلام) رؤياه علي أهل بيته وبني عبد المطّلب، وقد قرأ لهم مصيبته علي لسان جدّه (صلي الله عليه و آله) وذكر لهم مصرعه، إنّه مقتولٌ

ص: 153

مذبوحٌ عطشانٌ ظمآن، وبهذا قد أعلن لهم عن وُجهته وأبان لهم عمّا ستنتهي به رحلته، وكشف لهم عن الموضع الّذي سيُيَمّم إليه وجهه.. إنّه يرحل إلي كربلاء، تزامله المنايا وتنتظره حفرته، فالنبيّ (صلي الله عليه و آله) قد نعاه إلي نفسه، وهو ــ فداه العالمين ــ قد نعي نفسه لأهل بيته وبني عبد المطّلب، فلمَن تُستبقي النياحة وتُدَّخر الدموع؟ فلم يكن ذلك اليوم فيشرقٍ ولا غربٍ أشدّ غمّاً من أهل بيت الرسول (صلي الله عليه و آله) ، ولا أكثر منه باكياً وباكية؛ لأنّهم علموا بالقطع واليقين أنّ هذا هو الوداع الأخير، وأنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) يخرج من المدينة ليبقي في كربلاء حتّي ينادي منادي السماء ويرفع راية الثأر بيد ولده المنتقم الأعظم للأولياء.

لقد اختار الله له لقاءه، واختار سيّد الشهداء (عليه السلام) لقاء الله ولقاء رسول الله ولقاء بقيّة أصحاب الكساء (عليهم السلام) وجميع الصدّيقين والصالحين والشهداء والأنبياء، فهذا هو الفراق، وبخروجه تتحقّق الوعود الإلهيّة والإخبارات النبويّة وإخبارات أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وغيرهما من الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام) الّذين أخبروا بقتل الإمام المظلوم العطشان (عليه السلام) ، من آدم إلي خاتم الأنبياء، بل إلي خامس أصحاب الكساء نفسه، والإمام الحسين (عليه السلام) سيصدّقهم جميعاً في الأرض الموعودة المفضّلة المذخورة له، أرض كربلاء، وفي اليوم المرصود له من ربّ الأرض والسماء، يوم عاشوراء!

النكتة الثالثة: الوصيّة برواية أهل البيت (عليهم السلام)

قد يُقال: إنّ العلّامة المجلسيّ نقل الوصيّة موضع البحث عن محمّد

ابن أبي طـالـب، ولـم ينقلها عن الفتوح، وهو من مصادره في أخبار مقتل سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) ، وربّما فعل ذلك لِما في نقل ابن أبي طالب من التعديل في الوصـيّة. ثمّ إنّه (رحمة الله) نقل مباشـرةً بعد الوصـيّة هذه نصّاً رواه المجلسي في غير موضعٍ من كتابه عن الصفّار في البصائر وغيره، بيد أنّه نقله هنا عن ابن أبي طالب أيضاً، والحال أنّ ابن أبي طالب رواه في أحداث خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من مكّة إلي العراق ((1))..

ويبـدو من السـياق أنّ العلاّمـة غوّاص بحار الأنوار قـد فهم من النصّ الوصـيّة، وأنّها عنـد خروجه من المدينة، ولذا ذكرها بعد تلك الوصـيّة مباشـرةً وكأنّه يريد أن يُشـعِر القارئ أنّ ثمّة وصـيّة أُخري رُويَت عن طريق أهل البيت (عليهم السـلام) لمحمّد ابن الحنفيّة، إن لـم نفهم من نقله المعارضة والمقابلة.

قال العلاّمة المجلسي بعد نقل الوصيّة المشار إليها مباشرة:

وقال محمّد بن أبي طالب:: روي محمّد بن يعقوب الكلينيّ ((2))

ص: 155

1- أُنظر: تسلية المجالس لابن أبي طالب: 2 / 231.

2- رواه الصـفّار القميّ قـال: حـدّثنا أيّوب بن نوح، عن صـفوان بن يحيي، عن مروان بن إسـماعيل، عن حمزة بن حمران، عن أبي عبـد الله (عليه السـلام) ، قال: ذكرنا خروج الحسين وتخلّف ابن الحنفيّة عنه،، قال: قال أبو عبد الله:: «يا حمزة،، إنّي سأُحدّثك في هذا الحديث ولا تسـأل عنه بعـد مجلسـنا هـذا: إنّ الحسـين لمّا فصل متوجّهاً دعا بقرطاسٍ وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسـين بن عليٍّ إلي بني هاشم، أمّا بعد، فإنّه مَن لحق بي منكم استُشـهد معي، ومَن تخلّف لـم يبلغ الفتح، والسـلام (بصائر الدرجات للصفّار: 481 ح 5، اللهوف لابن طاووس: 129، المناقب لابن شـهر آشوب: 3 / 23098، مثير الأحزان لابن نما: 39، الخرائج والجرائح للراوندي: 2 / 771، بحار الأنوار: 44 / 330 و45 / 84 و42 / 81، العوالم للبحراني: 17 / 179).

في كتاب (الرسائل)، عن محمّد بن يحيي، عن محمّد بن الحسين، عن أيّوب بن نوح، عن صفوان، عن مروان بن إسماعيل، عن حمزة بن حمران، عن أبي عبد الله (عليه السلام) ، قال: ذكرنا خروج الحسين (عليه السلام) وتخلّف ابن الحنفيّة، فقال أبو عبد الله (عليه السلام) :: يا حمزة،، إنّي سأُخبرك بحديثٍ لا ـ تسألْ عنه بعد مجلسك هذا: إنّ الحسين لمّا فصل متوجّهاً دعا بقرطاسٍ وكتب فيه:بسم الله الرحمن الرحيم. من الحسين بن عليّ بن أبي طالبٍ إلي بني هاشم،: أمّا بعد، فإنّه مَن لحق بي منكم استُشهد، ومَن تخلّف لم يبلغ مبلغ الفتح، والسلام ((1))..

كيف كان، فإنّ ما قاله سيّد الشهداء (عليه السلام) كان مكتوباً؛ إذ أنّه دعا بقرطاسٍ وكتب فيه، وأنّ المخاطَب هم بنو هاشم، ولم يخصّ ابن الحنفيّة بالذكر في نصّ ما كتب الإمام (عليه السلام) ، بيد أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) حدّد مصداقاً لما كتبه جدّه سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فنصّ علي عمّه ابن

ص: 156

1- بحار الأنوار: 44 / 330.

الحنفيّة.. ونقل الحديث بألفاظٍ أُخري ينصّه فيه بتوجيه الخطاب لابن الحنفيّة وبني هاشم.

أضف إلي أنّ صياغة الكتاب أشبه بالرسالة منها بالوصيّة، ولم يصرّح الإمام الصادق (عليه السلام) بالمورد الّذي دفع إليه الكتاب، وربّما هذا هو الذي دعا ابن أبي طالب وغيره أن يفهم منه أنّه كتاب، فأدرجه في أحداث الطريق إلي العراق وأحداث الخروج من مكّة..

فقوله (عليه السلام) : «إنّ الحسين (عليه السلام) لمّا فصل متوجّهاً»، يمكن أن يصدق علي التوجّه من مكّة إلي العراق، كما يصدق علي توجّهه (عليه السلام) من المدينة إلي مكّة..

والكلام هنا ليس في أصل الحديث الشريف، وإنّما في كونه وصيّةً أو كتاباً، ليس إلّا. يبقي شيءٌ يمكن الاستفادة منه في هذا النصّ المقدّس علي كلّ تقدير، وهو باختصار:

إنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) كان عازماً علي الشهادة، ولم يكن في الحسبان أيُّ شيءٍ آخر سوي الشهادة المبشَّر بها منذ بدء الخليقة.. فإنّ مَن لحق به (منهم) استُشهد معه.. فهي الشهادة لا غير، لا برامج عمل مستقبليّة لإسقاط كيانٍ ولا إقامة كيان، ولا أيّ شيءٍ سوي القتل في الله؛ لأنّ الأعداء قد عزموا علي تنفيذ ذلك مهما كلّف الأمر وتحت أيّ ظرف.

ومن الواضح جدّاً أنّ خطاب الكتاب محدّد ب-- «من» و«إلي»، فهو

من سـيّد الشهداء (عليه السلام) إلي بني هاشم، ومحصورٌ مرّةً أَخري بقوله: «مَن لحق بي منكم»، أي: من بني هاشم علي وجه الخصوص، وتعميم الكتاب إلي غيرهم يحتاج إلي مؤونةٍ وقرينة، غير متوفّرةٍ في النصّ نفسه، فلابدّ من البحث عنها من خارجه.

وعدم وجود «منكم» في الكتب المتأخّرة عن (البصائر) مثل كتاب الطبري الشيعي، فإنّه يُحمَل علي السقط، لأنّ الصفّار هو المصدر الأوّل والأقدم، ولو فرضنا عدم وجود «منكم» فإنّ الاختصاص يبقي علي حاله، إذ إنّ الكتاب يحدّد الجهة المخاطَبة وهم بنو هاشم ((1)).

1- سيأتي تفصيل الكلام في الحديث ودلالاته في محلّه إن شاء الله تعالي.

النص

اشارة

يمكن تناول النصّ المتعلّق بالوصـيّة كما ورد في كتاب ابن أعثم من خلال جزئين، إذ أنّه تضـمّن حواراً بين محمّـد ابن الحنفيّة وأخيه سـيّد الشهداء (عليه السلام) ، ثمّ دعا الإمام (عليه السلام) بدواةٍ وبياضٍ فكتب وصيّته.

ويبـدو من خلال متابعـة النصّ أنّ الجزء الأوّل منه له علاقـةٌ وثيقةٌ بالوصـيّة، ويحمل في طيّاته بعض الإشارات والتلويحات والتصـريحات المتعلّقة بما جاء في بنود الوصيّة وفقراتها:

الجزء الأوّل: الحوار

اشارة

قال:

... وتهيّأ الحسـين بن عليّ وعزم علي الخروج من المدينـة، ومضـي في جوف الليل إلي قبر أُمّه فصـلّي عنـد قبرها وودّعها، ثمّ قام عن قبرها وصار إلي قبر أخيه الحسن ففعل مثل ذلك، ثمّ رجع إلي منزله.

وفي وقت الصـبح أقبل إليه أخوه محمّد ابن الحنفيّة، قال: فلمّا جاء إليه محمّد ابن الحنفيّة (رضـي الله عنه) قال: يا أخي، فدتك نفسي، أنت أحبُّ الناس إليّ وأعزّهم علَيّ، ولستُ والله أدّخر

النصيحة لأحدٍ من الخلق، وليس أحدٌ أحقَّ بها منك، فإنّك كنفسي وروحي وكبير أهل بيتي ومَن عليه اعتمادي وطاعته في عنقي، لأنّ الله _ تبارك وتعالي _ قد شرّفك وجعلك من سادات أهل الجنّة، وإنّي أُريد أن أُشير عليك برأيي فاقبله منّي.

فقال له الحسين: قل ما بدا لك.

فقال: أُشير عليك أن تنجو نفسك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، وأن تبعث رسلَك إلي الناس وتدعوهم إلي بيعتك، فإنّي إن بايعك الناس وتابعوك حمدتُ الله علي ذلك، وقمتَ فيهم بما يقوم فيهم النبيّ (صلي الله عليه و آله) والخلفاء الراشدون المهديّون من بعده، حتّي يتوفّاك الله وهو عنك راضٍ، والمؤمنون كذلك كما رضوا عن أبيك وأخيك، وإن أجمع الناس علي غيرك حمدت الله علي ذلك، وإنّي خائفٌ عليك أن تدخل مصراً من الأمصار أو تأتي جماعةً من الناس فيقتتلون، فتكون طائفةٌ منهم معك وطائفةٌ عليك فتقتل منهم.

فقال له الحسين: يا أخي، إلي أين أذهب؟

قال: ااخرجْ إلي مكّة، فإن اطمأنّت بك الدار فذاك الّذي تحبّ وأُحبّ، وإن تكن الأُخري خرجتَ إلي بلاد اليمن، فإنّهم أنصار جدّك وأخيك وأبيك، وهم أرأف الناسوأرقّهم قلوباً وأوسع الناس بلاداً وأرجحهم عقولاً فإن اطمأنّت بك أرض اليمن وإلّا لحقتَ بالرمال وشعوب الجبال، وصرتَ من بلدٍ إلي بلد، لتنظر

ما يؤول إليه أمر الناس ويحكم بينك وبين القوم الفاسقين.

فقال له الحسين: يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأٌ ولا مأويً لَما بايعتُ والله يزيد بن معاوية أبداً، وقد قال (صلي الله عليه و آله) : اللّهمّ لا تُبارِك في يزيد.

قال: فقطع عليه محمّد ابن الحنفيّة الكلام وبكي، فبكي معه الحسين ساعة، ثمّ قال: جزاك الله يا أخي عنّي خيراً، ولقد نصحتَ وأشرتَ بالصواب، وأنا أرجو أن يكون إن شاء الله رأيك موفّقاً مسدّداً، وإنّي قد عزمتُ علي الخروج إلي مكّة، وقد تهيّأتُ لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي، وأمرهم أمري ورأيهم رأيي، وأمّا أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون لي عيناً عليهم، ولا تخفْ علَيّ شيئاً من أُمورهم.

فقرات الجزء الأوّل:

اشارة

يمكن تقسيم الجزء الأوّل من المتن إلي فقراتٍ تسهّل علينا متابعته علي عجل:

الفقرة الأولي: المقدّمة

كلام ابن الحنفيّة:

اشارة

فلمّا جاء إليه محمّد ابن الحنفيّة (رضي الله عنه) قال: يا أخي، فدتك نفسي، أنت أحبُّ الناس إليّ وأعزّهم علَيّ، ولستُ والله أدّخر النصيحة لأحدٍ من الخلق، وليس أحدٌ أحقَّ بها منك، فإنّك

كنفسي وروحي وكبير أهل بيتي ومَن عليه اعتمادي وطاعته في عنقي، لأنّ الله _ تبارك وتعالي _ قد شرّفك وجعلك من سادات أهل الجنّة، وإنّي أُريد أن أُشير عليك برأيي فاقبله منّي.

تضمّنت هذه الفقرات مطالب عديدة يمكن تناولها من خلال عدّة وقفات:

الوقفة الأُولي: مجيء ابن الحنفيّة

ربّما كان مجيء مولانا محمّد ابن الحنفيّة مفاجأً في مثل تلك الساعة المبكّرة من الصباح، بعد كلّ تلك الأحداث الجِسام الّتي هزّت المدينة وزعزعت الأرجاء وأزعجت خامس أصحاب الكساء (عليه السلام) ..

فمنذ أيّامٍ والمدينة ملتهبةٌ والأحداث متلاحقة، والرسل تتري علي سيّد الشهداء (عليه السلام) ، يستحضره الوالي المرّة تلو الأُخري.. والآل محدقون بأبي عبد الله الحسين (عليه السلام) ، ونساء الهاشميّين يقمن المأتم والنياحة حتّييمشي فيهنّ الإمام (عليه السلام) .. والإمام يعالج الوالي وأعوانه وأذنابه ليستعدّ للخروج في فلق الصبح.. والقبر تضعضع بمن فيه حزناً علي خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) واستعداداً لاستقبال المصيبة العظمي.. وآل أبي طالب يعدّون العدّة للرحيل في ركب الفتح بالشهادة..

وربّما يعجز الكاتب عن تصوير تلك الأيّام وتلك الساعات المكفهرّة العصيبة الّتي عاشتها المدينة علي وقع تهديدات القرد الأُمويّ والأقذار المتعلّقة بذيله، وقد ضاقت الدنيا بما رحُبَت علي ريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) وقرّة عين الزهراء والوصي (عليهما السلام) ..

بيد أنّنا لم نسمع المؤرّخ والراوي يحدّثنا عن موقفٍ لمولانا ابن الحنفيّة، وكأنّه لم يكن في تلك الأيّام في المدينة ولا في مكّة.. وعلي حين غرّةٍ نجده يقصد الإمام (عليه السلام) ليتقدّم له ناصحاً يشير عليه برأيه..

أين كان (رضوان الله عليه) ؟ لا نسأل، فقد أمرنا الإمام الصادق (عليه السلام) أن لا نسأل بعد ما أخبرنا في حديثه لحمزة!

الوقفة الثانية: تقديمٌ قبل الإشارة

إنّ مولانا محمّد ابن الحنفيّة ابن أمير المؤمنين (عليه السلام) وابن خولة الحنفيّة الطيّبة الطاهرة، كبر ونشأ في ظلّ راعي الكون وإمام الخلق أجمعين، نهل العلم والأدب والأخلاق في بيتٍ تظلّله أفياء الكساء المقدّس، وتحت سقفٍ يستظلّ به ثلاثةٌ من أصحاب الكساء (عليهم السلام) ، وقد نهل من معين معادن العلم الإلهيّ ومهابط الوحي والملائكة؛ أبيه أمير المؤمنين وأخويهالإمامين الحسن والحسين (عليهم السلام) .. فهو يعرف جيّداً كيف يتقدّم بالكلام بين يدي سادات الأنام..

فلم يشرع في الإشارة والكلام قبل أن يقدّم مقدّمةً تؤهّله من الحديث بين يدي الإمام المفروض عليه طاعته..

فبدأ بهذه الفقرة الّتي تنمّ عن معرفته، وتُعرِب عن حبّه، وتكشف عن إخلاصه، وتُصحِر عن كوامنه الطيّبة تجاه أخيه الأكبر منه سبط نبيّ الرحمة وسيّد شباب أهل الجنّة..

فبدأ أوّلاً بمخاطبته بأخي.. ناداه بالأُخوّة، دون الاسم والكنية والألقاب، فالعلاقة أقوي العلاقات والارتباط أوثق الارتباطات؛ فهما

من حيث الأب مشتركان،، أبوهما أمير المؤمنين وسـيّد الوصيّين (عليه السلام) ، بيد أنّ مولانا محمّد ابن خولة الحنفيّة (رضوان الله عليها)، وسيّد الشهداء (عليه السلام) أُمّه فاطمة سيّدة نساء العالمين (عليها السلام) وبنت النبيّ الأمين (صلي الله عليه و آله) ، ولا سواء!

ثمّ جعل نفسه فداءًا لأبي عبد الله الحسين (عليه السلام) ..

ثمّ جعل يتحدّث عن منزلة سيّد الشهداء (عليه السلام) ومقامه عنده، وأعرب عن شدّة حبّه واعتزازه بأخيه، فهو أحبّ الناس، ولا حبيب يبلغ حبّه، وأعزّهم عليه، فلا عزيز ينال عنده عزّه..

ثمّ أقسم أنّه لاـ يدّخر النصيحة لأحـدٍ من الخلق، فهو يجود بهـا علي النـاس أجمعين من دون قيـدٍ ولاـ شـرط.. بيـد أنّ بين الخلق تفاوتاً واختلافاًفي الأولويّات والقرب والاستحقاق، ومَن أحقّ بها ممّن يفديه مولانا محمّد بنفسه وهو أحبّ وأعزّ الناس عنده؟

ثمّ علّل تقدّمه بالنصيحة فقال:: فإنّك كنفسي، ولم يقل: إإنّك نفسي! فإذا أردنا أن نفهم كلامه وفق ما عهدناه في أولاد الأئمّة عامّة وأولاد أمير المؤمنين (عليه السلام) خاصّة من الأدب الرفيع والخلق السامي، فيلزم أن نقول: إنّه قال: كنفسي؛ لأنّه يعلم أنّه ومَن في الأرض جميعاً _ إلّا مَن استثناهم الله _ لا يمكن أن يعادلوا سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) ولا أن يكونوا مثله أو نفسه، وهو نفس سـيّد الأنبياء وسـيّد الأوصـياء ودمهما ولحمهما.. ويبدو أنّ الكاف سارية المفعول في الروح أيضاً بالعطف، فهو كروحه..

وكبير أهل بيته.. كبيرهم بالعمر، إذ أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) هو البقيّة

الباقية من أصحاب الكساء، وهو أكبر مَن بقي من ذرّيّة النبيّ (صلي الله عليه و آله) وآل أبي طالب من الذكور، فهو عميد الأسرة وكبيرهم سنّاً ومقاماً، وجاهاً وسؤدداً، وكبيرهم في كلّ شيءٍ بلا استثناء، بل هو الكبير في العالَم كلّه يومئذٍ وسيّدُ الكائنات طرّاً أجمعين..

ومن عليه اعتمادي.. اعتمد علي الشيء: اتّكأ عليه ((1))، فهو يتّكأ ويعتمد ويستند علي كبير الآل، فإذا ذهب سقط هو أيضاً فلا تقوم له قائمةا..

وهو يعتقد فرض طاعة سيّد الشهداء (عليه السلام) : وطاعته في عنقي.. واعتقادفرض الطاعة يلازم الاعتقاد بالإمامة، ثمّ يعلّل ذلك بقوله: لأنّ الله (تبارك وتعالي) قد شرّفك وجعلك من سادات أهل الجنّة! فهل هذا التعليل لبيان سبب الاعتقاد بفرض الطاعة؟ أو أنّه تعليلٌ للاعتماد عليه؟ أو تعليلٌ لكليهما ولما سبق؟ فإن كان التعليل للأوّل فسوف يكون فيه شيءٌ من الغرابة.

ثمّ شرع في بيان مراده.. وإنّي أُريد أن أُشير عليك برأيي، فاقبله منّي..

رأيٌ بإزاء طاعةٍ في عنقه؟! رأيٌ شخصيّ.. رأيي.. ثمّ دعوةٌ للقبول بصيغة الأمر الصريحة: فاقبله.. وأن يقبل منه: فاقبله منّي..

فأين الطاعة المفروضة؟! وأين الإشارة بالرأي؟ فأَشَارَ عَلَيَّ بكذا، أي: أراني ما عنده فيه من المصلحة ((2)).. فيكفي أن يُريه ما عنده في

1- أُنظر: لسان العرب: مادّة «عمد».
2- أُنظر: مجمع البحرين للطريحي: «مادّة شور».

الأـمر من المصـلحة، وله أن يقبل أو لا يقبل، إذ إنّ الطاعـة له في عنق الآخرين، وليس له طاعـةٌ في عنقه للآخرين أيّاً كانوا، فهو إمام الخلق أجمعين!

لكن، يمكن أن يُحمَل هذا الأمر علي الرجاء والتمنّي، وهو ما يناسب أدب مولانا المكرّم ابن الحنفيّة.

بعـد هـذه المقدّمـة الّتي تفيض أدبـاً وحبّـاً وتكريماً، وتجيش منها العاطفـة والرجاء والتمنّي والتوسّل، انبري سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) للجواب.

جواب سيّد الشهداء (عليه السلام)

أذن له الإمام أن يبادر إلي صـلب الموضوع الّذي قد أهمّه، وفتح المجال أمامه واسعاً لا حدود له، فقال له الحسين (عليه السلام) : قُلْ ما بدا لك!

ويبدو من هذا التعبير أنّ سـيّد الشهداء (عليه السلام) نسب ما سيقوله ابن الحنفيّة إلي ابن الحنفيّة نفسه.. «قل ما بدا لك».. قل ما تراه ويبدو لك، وهو ما يبدو له شخصيّاً.. فهو رأيٌ شخصيٌّ خاصٌّ به نابعٌ من أعماقه وكوامنه الذاتيّة.

الفقرة الثانية: إبداء الرأي!

اشارة

لمّا حصل الإذن من الإمام (عليه السلام) ، انطلق المولي المكرّم ابن الحنفيّة ليعرض رأيه علي سيّد الكائنات (عليه السلام) .

كلام ابن الحنفيّة

اشارة

فقال: أُشير عليك أن تنجو نفسك عن يزيد بن معاوية (أن

تنتحي بنفسك عن يزيد _ الخوارزميّ) وعن الأمصار ما استطعت، وأن تبعث رسلك إلي الناس وتدعوهم إلي بيعتك، فإنّي (فإن بايعك الناس حمدت الله علي ذلك _ الخوارزميّ) إن بايعك الناس وتابعوك حمدت الله علي ذلك، وقمت فيهم بما (كان) يقوم فيهم النبيّ (صلي الله عليه و آله) والخلفاء الراشدون المهديّون من بعده، حتّي يتوفّاك الله وهو عنك راضٍ، والمؤمنون كذلك (والمؤمنون عنك راضون) كما رضوا عنأبيك وأخيك، وإن أجمع (اجتمع) الناس علي غيرك حمدت الله علي ذلك (وسكتّ ولزمت منزلك)، وإنّي خائفٌ عليك أن تدخل مصراً من الأمصار أو تأتي جماعةً من الناس فيقتتلون، فتكون طائفةٌ منهم معك وطائفةٌ عليك، فتقتل منهم (بينهم).

تتضمّن الإشارة علي سيّد الشهداء (عليه السلام) الواردة في هذه الفقرة من كلام مولانا السيّد محمّد بن أمير المؤمنين (عليه السلام) عدّة موادّ تُنفَّذ في مراحل متتاليةٍ متعاقبة، وكأنّه يرسم للإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) معالم الطريق الذي ستؤول _ عاقبة _ إلي إفلاته من المنيّة وتنجيه من القتل الّذي يلاحقه في الظاهر المنظور بفعل يزيد الخمور والفجور.

المادّة الأُولي: التنحّي عن يزيد وعن الأمصار

قال: أُشير عليك أن تنجو نفسك عن يزيد بن معاوية (أن تنتحي بنفسك عن يزيد _ الخوارزمي) وعن الأمصار ما استطعت..

تنجو نفسك:: تخلّص نفسك ([(1)](#)، وفي لفظ الخوارزمي: تنتحي» بنفسك، والمعني واحد..

فالمادّة الأُولي الّتي يراها مولانا السيّد محمّد أن يختفي أبو عبد الله (عليه السلام) ويجتنب أيّ ظهورٍ مُعلَنٍ يكشف عن مكانه ويوفّر الفرصة للأدعياء بملاحقته ومتابعته..يريده أن ينجو بنفسه ويخلّصها من مخالب يزيد من خلال التغيّب عن عيونه وجواسيسه وجلاوزته وأذنابه، وإنّما يتحقّق ذلك بالابتعاد عن الأمصار ما استطاع أبو عبد الله (عليه السلام) إلي ذلك سبيلاً!

الابتعاد عن الأمصار يعني أن يسكن البوادي والقفار، وأن يبقي متنقّلاً بين السهول والجبال، متخفّياً بين الأحراش والأدغال!!

عجباً والله لا ـ ينقضي! حبيب الله ووليّه ووصيّ النبيّ (صلي الله عليه و آله) وخامس أصحاب الكساء (عليهم السلام) ، ومَن هو أَولي بالناس من أنفسهم، يعيش مشرّداً لا يأوي إلي بلد، في الصحاري والقفار وشعوب الجبال؟!! أيكون ذلك؟!

يبدو أنّ وحوش الأُمويّين الكاسرة قد علقت مخالبها به، ولا حيلة عند المحبّ إلّا يفترض أيّ فرضٍ مهما كان لينجو بحبيبه!

المادّة الثانية: الدعوة للبيعة

اشارة

تنصّ المادّة الثانية من موادّ مشروع ابن الحنفيّة أن يبعث الإمام

1- أُنظر: لسان العرب: مادّة «نجو».

رسله إلي الناس ليدعوهم إلي بيعته: وأن تبعث رسلك إلي الناس وتدعوهم إلي بيعتك..

كانت الظروف واضحة المعالم أنّ الإمام (عليه السلام) سوف لا يستقرّ به المقام في مكّة، وسوف تنبو به اليمن، فلابدّ من الخيار الآخر في المادّة السابقة، وهي أن يلحق الإمام (عليه السلام) بمن معه، ولا ـ شكّ أنّ المولي محمّد ابن أمير المؤمنين سوف لا يكون معهم، لأنّه يتحدّث عمّا يفعله سيّدالشهداء (عليه السلام) ومَن معه بضمير الخطاب ولا يحشر نفسه النفيسة معهم..

وبعد أن يلحق الإمام سيّد الكائنات (عليه السلام) بشعوب الجبال ومطاوي الرمال، ويختفي في الصحاري والفيافي والقفار، يبعث مِن هناك، مِن الموضع المجهول، حيث لا يعرفه أحدٌ إلي الناس، ويطلب منهم البيعة!!

وهنا أيضاً يحتمل أن لا يجيبه أحد، فماذا يفعل؟! هذا ما سيجيب عليه المولي ابن الحنفيّة في المادّة الرابعة بعد قليل.

والبيعة إنّما تكون لأغراضٍ عديدة، وتقوم بمهامّ شتّي مختلفة، إذ تختلف مؤدّياتها باختلاف موارد الإلزام فيها، فربّما أُخذت البيعة من أجل الخروج علي الحاكم المتسلّط بغرض تغيير النظام وإقامة نظامٍ آخَر مكانه، وربّما أُخذت من أجل الدفاع عن شخصٍ ما مهدَّد ويريد الدفاع عن نفسه، فيجتمع حوله الرجال ويبايعونه علي الدفاع عنه والإخلاص له ضدّ العدوّ الّذي قصده.. وربّما كانت البيعة تؤخذ لأغراضٍ أُخري يجمعها جميعاً وفاء المبايع للمبايَع..

فأيّ نوعٍ من أنواع البيعة اقترحها المولي محمّد ابن الحنفيّة علي

الإمام (عليه السلام) ؟!

كأنّ عباراته توحي إلي نوعٍ خاصّ يريد من خلاله أن يُقنِع الإمام (عليه السلام) أنّ في بقائه حيّاً واجتنابه القتل الّذي لابدّ منه، ولو في شعوب الجبال ومطاوي الرمال والكهوف ومجاهيل الوديان، قد يكون مُثمِراً علي احتمال، ممّا يوفّر فرصةً محتملَةً للقيام بأعباء الحكم، مضافاً إلي البقاءعلي قيد الحياة..

ويمكن أفادت ذلك من الاحتمالات الّتي عرضها المولي ابن الحنفيّة، وكانت جميعها سلبيّة غير مؤثّرة في حلّ المعضلة الّتي أراد حلّها، فهو يفترض الخروج من مكّة، وعقم الذهاب إلي اليمن، والالتجاء بعيداً عن الأمصار، وبعد ذلك كلّه يحتمل أن يكون هذا السلوك نافعاً علي الاحتمالين، فهو إمّا أن يكسب الناس وتسنح له الفرصة، فيعود حاكماً مظفّراً، وإمّا أن يعيش ولا يُقتَل باعتباره نأي بنفسه بعيداً عن الأمصار، فلا تلاحقه العيون والأنظار ويبقي بعيداً عن متناول يد الظالم الغشوم..

وهنا ينبغي التنبيه إلي قضيّةٍ مهمّةٍ جدّاً:

تنبيه مهمّ:

يبدو أنّ ثمّة خلطاً خطيراً وقع عند دراسة الأهداف أو العلل الغائيّة والفاعلة أو الدوافع أو المسوّغات لقيام سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فانبروا يحملون ما في تصوّرات الناس والأفراد وتصريحاتهم علي مواقف سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فلمّا سمعوا أهل الكوفة مثلاً يدعون الإمام (عليه السلام) إلي البيعة والإطاحة بالحاكم الظالم وإخراج الوالي وما شاكل من المزاعم

والادّعاءات الّتي ارتفعت من حناجر الجهلة والغوغاء والانتهازيّين والسفلة، أو من بعض الشيعة المؤمنين الموالين الّذين استشعروا في هلاك معاوية شيئاًاًَ من الفضاء السياسيّ والتخلخل الحكومي؛فاغتنموها فرصةً لنصر الحقّ وتكريس الفرصة لإعادة الخلافة الربّانيّة.

أمّا الشيعة الخلّص والموالون العارفون العالمون، من قبيل عابس بن أبي شبيب وحبيب بن مظاهر، فإنّهم «أدركوا بالحسين أكبر عيدٍ»، وأعلنوا استعدادهم ليكونوا «في منى الطفوف أضاحي»، ذَوداً عن شخص الإمام وعياله، وحفظاً لرسول الله في ذرّيّته وودائعه.. ويبدو ذلك جليّاً في تصريحاتهم ومواقفهم وما أصحروا به بين يدَي المولى الغريب مسلم بن عقيل (عليهما السلام) .

وقد رأينا ذلك واضحاً أيضاً في كلمات الإمام الشهيد (عليه السلام) ردّاً على رسائل القوم وكتبهم وبيعتهم وتحمّسهم وهيجانهم، فكتب لهم المرّة تلو الأُخرى أن ينتظروا حتّى يقدم عليهم بنفسه ((1)) _ فداه العالمين _..

** * * * *

المهمّ في المقام أن نفرّق بين دعوات الناس وصرخاتهم وشعاراتهم وتصريحاتهم ومواقفهم أيّاً كانوا، وبين تصريحات سيّد الشهداء (عليه السلام) وأقواله ومواقفه!

إذا اتّضح هذا البيان، نعرف أنّ اقتراح مولانا ابن الحنفيّة هنا إذا كان

1- أتينا على ذكر رسائل الإمام (عليه السلام) إلى أهل الكوفة في مجموعة (المولى الغريب.. وقائع السفارة)، وسيأتي تفصيلها في محلّه إن شاء الله تعالى.

المقصود منه توفير البيعـة من الناس من أجل الإطاحـة بيزيد وسـلطان بني أُميّة، فهو تصوّره خاصّة، وربّما كان من أجل ما ذكرناه قبل قليل، حيث أنّه كان يريد أن يُقنِع الإمام (عليه السـلام) أنّ في اعتزاله وابتعاده عنالأمصار ومراسـلة الناس من وراء شـعوب الجبال ومطاوي الرمال قد يكون سبباً للبقاء وإقامة حكم الله، ومحفّزاً له علي الابتعاد عن مواطن القتل الّتي كانت تشمل جميع الأمصار يومها..

والمفروض أنّ مولانـا ابن الحنفيّـة يعلم _ وقـد عـاش بنفسه _ ما جري للناس من بيعتهم ليزيـد ومبادرتهم ومسارعتهم للتهافت علي قيء القرود الأُمويّـة منذ أيّام معاوية، إذ أخذ البيعة ليزيد علي الناس في الأمصار، ثمّ جدّدوا البيعة له بعد هلاك معاوية، وهم في طاعة الشـيطان لا يسمعون سوي هتوفه..

وكانت المدينـة يومها في قبضة الأُمويّين تماماً، بناسـها وعقائدها وأفكارها وتوجّهاتها، حتّي عاد سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) بينهم غريباً مضيَّعاً وحيداً مخذولاً.. فعقائد السقيفة تحتبل القلوب والعقول والقوّات النظاميّة والشرطة والغوغاء كلّها في طاعة الوالي..

وكذا الأمر في مكّة المكرّمة؛ فالناس أعرضوا عن سـيّد الشـهداء (عليه السلام) وقبلة القلوب وكعبة الرضي الربّاني، وجعلوا يطوفون بأحجار، وكأنّ سـيّد الشـهداء (عليه السلام) لـم يخرج من بين ظهرانيهم بأهله وعياله إلي القتل، ولم يسمعوه وهو يخطب: «خَطّ الموت علي وُلد آدم مخطّ القلادة علي جيد الفتاة»!

ص: 172

وأمّا الكوفة، فقد كانت ثكنةً لعسكر السقيفة، ولم يتضعضع فيها أيُّ بناءٍ عسكريّ أو إداريّ، لا عند هلاك معاوية ولا بعد أن دخلها المولىالغريب (عليه السلام) سفيراً من سيّد الشهداء (عليه السلام) ولا بعد شهادته ولا عند خروجها لحرب ريحانة النبي (صلي الله عليه و آله) ، ولم يكن مع سيّد الشهداء (عليه السلام) وسفيره إلّا القلّة القليلة، حتّي علي فرض حساب الزبد الاجتماعيّ الّذي طفح وكاتب إمام الأبرار وبايعه ثمّ رجعوا القهقري إلي مواضعهم ومعتقداتهم ومصالحهم الّتي دعتهم لاتّخاذ موقفٍ مع الحقّ من أجل الوصول إلي باطلهم، وقد فصّلنا ذلك في مجموعة المولي الغريب مسلم بن عقيل (عليهما السلام) .

ولا ينبغي التعرّض للشام في مثل تلك الأيّام؛ فإنّهم كانوا عبَدَة القرود الأُمويّة منذ أن دخلوا الإسلام يومها..

فمن ذا الّذي كان يبايع الإمام المغيَّب في الأدغال وشعوب الجبال _ ونستغفر الله من هذا التعبير _ إذا خاطبهم عن طريق الرسل والكتب؟! وإلي متي سيبقي هناك حتّي تفيء القلوب الّتي كانت تنبض بحرارة السقيفة وولائها ومطامعها؟!

إذا كان الوجه المذكِّر برسول الله وخامس أصحاب الكساء وآل رسول الله بينهم وهم يرونهم مهدَّدين ملاحقين، تنبح عليهم كلاب الأُمويّين وتتوثّب عليهم ذئاب السقيفة وتترصّدهم قرود الشجرة الملعونة، وهم لا تهتزّ لهم شعرة ولا تنتفض بهم غيرة ولا حميّة ولا دين، فمتي سترعوي وتستجيب إلي دعوات سيّد الشهداء (عليه السلام) وهو في أقاصي

الأرض ومجاهيل الجبال والوديان والصحاري والقفار؟! وقد قالالإمام الغريب:: «الناس عبيد الدنيا، والدين لَعِقٌ علي ألسنتهم، فإذا مُحّصوا بالبلاء قلّ الديّانون»..

فبأيّ معنيً كانت البيعة في كلام مولانا ابن الحنفيّة لا يمكن تصوّر حصولها بالهيّن والوقت اليسير، وبنو أُميّة أحرص علي الوقت، وقد وظّفوا الترهيب والترغيب والتضليل منذ عهد السقيفة إلي يوم الحسين (عليه السلام) في كربلاء، والناس هم الناس والقوم أبناء القوم!

المادّة الثالثة: فرض حصول البيعة

اشارة

بعد أن يبعث الإمام (عليه السلام) رسُلَه إلي الناس ويدعوهم إلي بيعته، يَفترض مولانا ابنُ الحنفيّة أحدَ احتمالين، نذكر الاحتمال الأوّل هنا ونتناول الاحتمال الثاني في المادّة الرابعة.

قال: فإنّي (فإن بايعك الناس حمدت الله علي ذلك _ الخوارزميّ) إن بايعك الناس وتابعوك حمدت الله علي ذلك، وقمتَ فيهم بما (كان) يقوم فيهم النبيّ (صلي الله عليه و آله) والخلفاء الراشدون المهديّون من بعده، حتّي يتوفّاك الله وهو عنك راضٍ، والمؤمنون كذلك (والمؤمنون عنك راضون) كما رضوا عن أبيك وأخيك...

وقفات:

هذا الاحتمال يقوم علي أساس أن تفلح دعوات سيّد الشهداء (عليه السلام) وتؤثّر في الناس كتبه ورسله، فيبايعوه ويتابعوه، فينصرونه نصراً يمكّنه

من القيام بما يقوم به النبيّ (صلي الله عليه و آله) والخلفاء الراشدون من بعده، فيبقي علي هذه الحالة لا ينازعه منازعٌ ولا يتمرّد عليه متمرّد، فتصفو له الأُمور ولا_ تكون كما كانت للنبيّ ولأمير المؤمنين وأخيه الحسن الأمين (عليهم السلام) ، حتّي يدركه الموت ويتوفّاه الله!! فيموت إذ يموت وقد كسب رضي الرحمان وعباده المؤمنين!

الوقفة الأُولي: مبايعة الناس

ذكرنا _ قبل قليلٍ _ أنّ الناس قد فرغوا من بيعة يزيد منذ عهد معاوية، وجدّدوها بعد هلاكه، وهم علي طاعتهم وبيعته، ونضيف هنا أنّ الناس قد فرغوا من بيعة يزيد منذ يوم السقيفة، وقُضيَ الأمر، وهم علي ما هم عليه لا تزحزحهم الأحداث عن معتقداتهم الّتي فيها مصالحهم ودنياهم، وقد استغفلوا أنفسهم ودلّسوا الدين ولبسوه لبس الفرو مقلوباً، حتّي زعموا أنّ في ذلك آخرتهم أيضاً.

وهذا ما يجعل الناظر في التاريخ يطمئنّ أنّ خذلان القوم لسيّد الشهداء ولأبيه ولأخيه (عليهم السلام) من قبل لم يكن مجرّد موقفٍ عابرٍ أو خوفٍ قاهرٍ أو طمَعٍ يسيل اللعاب ويدع الفم فاغراً.. وإنّما كان موقفاً عقائديّاً يتديّنون الله به حسب زعمهم، بل زعموا أنّهم يتقرّبون إلي الله بقتلهم سيّد شباب أهل الجنّة وريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) ..

هكذا كانت الأكثريّة الكاثرة الغالبة علي كلّ الأُمّة، وما الشيعة الّتي تتديّن بإمامة سيّد الشهداء (عليه السلام) وتعتقد فرض طاعته وتبايعه علي بيعة الغدير إلّا أقلّيّة لا تكاد تبين..

ص: 175

ومَن كان هـذا دينهم وقـد عرف طيلة الستّين سـنة ديدنهم لا يمكن أن يفترض فيهم الانصـياع للحقّ والبيعة للإمام والاتّباعه والإعراض عمّن اتّخذوهم أرباباً من دون الله وقتلوا من أجلهم سيّد المرسلين وسيّدة نساء العالمين وسيّد الوصيّين والإمام الحسن المجتبي (عليهم السلام) ، والإمام لا يدعوهم بشخصه ولا يلتقيهم بنفسه، وإنّما سيباشرهم من خلال بعث الرسل!!

الوقفة الثانية: ملاحقة الأعداء

لا- يفترض في أعـداء سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) وأعـداء الله ورسوله (صـلي الله عليه و آله) أن يبقوا مكتوفي الأيـدي، فيتركون ملاحقته وتسـكن عنه أحقادهم وتخفت نيران ضـغائنهم، وكأنّهم لا يعرفون الجغرافيا ولا يملكون جيوشاً ذات عديـدٍ وعـدّةٍ يمكنها أن تسـدّ الفروج وتملأ- الغيطـان وتتعقّب سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) أين مـا كـان وحيث ما كان، إذ أنّه سيسـتمرّ في بعث الرسل ودعوة الناس إلي بيعته وتخذيلهم عن آل أبي سفيان وجند الشيطان.

لقد تقبّض سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) عن البيعة وأبي أن يُعطي بيده إعطاء الذليل، فلاحقوه حتّي قتلوه ومَن معه وسبوا عياله؛ لإبائه البيعة فقط، فكيف إن عمل علي دعوة الناس إلي البيعة وهدّد كيانهم وعمل مباشرةً لإسقاط كلّ القرود الّتي نزت علي منبر النبيّ (صلي الله عليه و آله) ؟ أكانوا يتركونه ولوكان في الثريّا؟!

الوقفة الثالثة: الإعلام المضادّ

لقد دأب جرذان السقيفة علي تضليل الناس وإبعادهم عن أهل

البيت (عليهم السلام) والعملِ بما جاء به خاتم المرسلين (صلي الله عليه و آله) ، حتّي أقنعوا أتباعهم بما أرادوا وأخرجوا الحقّ عن أهله وقلبوا الموازين، ولم يكفّوا عن التضليل لحظةً من أيّامهم البائسة المشؤومة، حتّي أطلقوا علي سيّد الشهداء (عليه السلام) عنوان (الخارجيّ)، وصار آل النبيّ غنائم وسبايا يُساقون، ليستشرفهم أهل المناقل والمناهل من بلدٍ إلي بلد! وفعلوا ما فعلوا حتّي لعنوا أمير المؤمنين ومولي الموحّدين وأخا النبيّ وصهره ووليّ الله وسيفه علي منابر الأُمّة في صلوات الجمعة والجماعة، والشواهد والمشاهد علي ذلك كثيرة..

وفي مثل هذا الجوّ وهذه الظروف وهذا العدوّ الغاشم اللئيم الظالم، أيُترَك سيّد الشهداء (عليه السلام) _ وهو في غياهب الصحاري وشعوب الجبال _ من دون محاربةٍ ومواجهةٍ إعلاميّةٍ شاملةٍ تضلّل الناس؟

كأنّ الاحتمال يفترض أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) يعمل لوحده، فيبعث الرسل لمن شاء متي شاء، ويقبله الناس فوراً أو بعد حين، فيحمد الله علي ما أنعم ويشكره علي ما يسّر وألهم!

لو كان الأمر كذلك لَما احتاج سيّد الشهداء (عليه السلام) للهجرة عن مسقط رأسه ومهبط الوحي الّذي نزل في بيته ومدينة جدّه.. لكان حريّاً بالناسأن يسمعوا استغاثته واستنصاره وشكواه إلي جدّه ونصروه، أو علي الأقلّ لَمنعوه ودفعوا عنه وهو بين ظهرانيّهم!

الوقفة الرابعة: القيام بما كان يقوم به النبي (صلي الله عليه و آله) والخلفاء الراشدون

علي فرض استجاب الناس لسيّد الشهداء (عليه السلام) وبايعوه ونصروه

ص: 177

حتّي قام فيهم بالأمر، قام فيهم بما كان يقوم فيهم النبيّ (صلي الله عليه و آله) والخلفاء الراشدون المهديّون من بعده..

مَن هم الخلفاء الراشدون المهديّون؟!

ثمّة احتمالاتٌ يمكن أن يكتشف منها المقصود من الخلفاء الراشدين المهديّين الواردة في كلام مولانا ابن الحنفيّة، وكذا في متن الوصيّة، كما سنسمع بعد قليل..

الاحتمال الأوّل: الأئمّة الهداة (عليهم السلام)

ربّما كان المقصود بالخلفاء الراشدين المهديّين هم أئمّة الهدي المعصومون (عليهم السلام) ، فإن كان مقصوده الأئمّة جميعاً مَن سبق سيّد الشهداء (عليه السلام) منهم ومَن لحق من أبنائه (عليهم السلام) فهو لا ينسجم مع السياق، وذلك:

أوّلاً: لأنّ السياق يشير إلي أنّ المقصود منهم مَن سبق سيّد الشهداء (عليه السلام) ، بقرينة قوله: «كان يقوم فيهم النبيّ والخلفاء..»، وفيه إشارةٌ واضحةٌ إلي الماضي..ثانياً: لم تنحصر سيرة الإمامين السابقين علي سيّد الشهداء (عليه السلام) بالقيام بالأمر بالحكم وإدارة شؤون الدولة والناس، فقد صبر أمير المؤمنين (عليه السلام) وفي العين قذي وفي الحلق شجيً يري تراثه نهباً خمسةً وعشرين سنة، ثمّ اشترطوا عليه سيرة الشيخين فأبي، حتّي بايعه الناس بعد عثمان خليفةً رابعاً، ولا نعتقد أنّهم قد جدّدوا له بيعة

الغـدير، وإنّما بايعوه بنفس النَّفَس والطريقـة والـدِّين والأساس الّـذي بايعوا فيه من سـبقه، بمعني أنّهم بايعوه وفق موازين السـقيفة لا باعتبار التعيين والنصب الإلهيّ علي لسان النبيّ (صـلي الله عليه و آله) .. وعمل فيهم بالتقيّـة والمداراة، وصبر علي صـرخاتهم في وجهه: وا سُـنّة عُمراه! .. وتمرّد عليه الناكثون والقاسطون والمارقون، وقاتلوه وخرجوا عليه.

وأمّا أخوه الإمام الحسن المجتبي (عليه السـلام) ، فلم يقم بالأمر بالمعني الّـذي يريـدوه أكثر من شـهور معدودة لم تصـفو له فيها القلوب الوغرة، ثمّ صالح معاوية علي ما هو مسطورٌ في التاريخ ومنصوصٌ عليه في الحديث.

فهذه هي سيرة الخليفتين الراشِدَين المعصومَين السابقَين علي سيّد الشهداء (عليه السلام) !!

أمّا إذا كان المراد هم الأئمّة (عليهم السـلام) من بعده والتسـعة من ذرّيّته، فإنّ المفروض أن يقوموا هم بما قام به جدّهم سيّد الشهداء (عليه السلام) ويسيرون بسيرته، لا أن يسير هو بسيرتهم، والحال نري أنّهم جميعاً لم يفعلواذلك، بل عملوا بالتقيّة ومداراة السلاطين، وأجّلوا ذلك جميعـاً من النـبيّ الخـاتم (صـلي الله عليه و آله) إلي وارث الأنبيـاء الإمـام الحسن العسـكري (عليه السـلام) إلي اليوم الموعود، يوم يقوم الصـاحب (عجـل الله تعـالي فرجه الشـريف) (عجـل الله تعالي فرجه الشـريف) لانفراده بالأحكام، وهو المـدّخر لإقامـة حكم الله علي الأرض.

الاحتمال الثاني: الخلفاء بعد النبي (صلي الله عليه و آله)

ربّما كان المقصود بالخلفاء الراشدين المهديّين هم مَن حكم بعد النبيّ (صلي الله عليه و آله) ، ويشير إليه السياق ويؤكّده قوله: «من بعده»!

ص: 179

فهو إمّا أن يكون تقيّة! وهو بعيد؛ إذ أنّ المفروض أنّ الكلام يدور بين سيّد الشهداء (عليه السلام) وأخيه في ظروفٍ خاصّة، لا تساعد علي حملها علي التقيّة.

وإمّا أن يكون تأليفاً لقلوب أتباع العجل والسامريّ، واحتواء المجتمع القائم علي تلك الأُسس، وهو بعيدٌ وعجيبٌ جدّاً..

فإن كان الأمر كذلك فلمَ امتنع أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الشوري البائسة؟! ولمَ أبي سيّد الشهداء (عليه السلام) البيعة ليزيد؟! أوَليس يزيد إفرازاً من إفرازات السقيفة وموازينها؟ أوَليس معاوية منصوباً من قِبَل عمر!!! ويزيد منصوباً من قِبل معاوية؟ وبالتالي تكون البيعة ليزيد مفردةً ممّا قام به «الخلفاء الراشدون المهديّون»!!

ثمّ كيف يمكن لمثل ابن الحنفيّة أن يعبّر عن مثل هؤلاء الغاصبينوالعتاة المردة بالخلفاء الراشدين المهديّين؟! ثمّ يعبّر عنهم سيّد الشهداء بنفس التعبير؟! من غير ظرف تقيّةٍ توجِب ذلك في اللحاظ المنظور لنا!

الاحتمال الثالث: التحريف

ربّما زعم أحدٌ أنّ هذا اللفظ لم يُستعمَل من قبل، وأنّ اصطلاح «الخلفاء الراشدين» مُحدَث، وأنّه «أضافت يد التحريف: "وسيرة الخلفاء الراشدين المهديّين رضي الله عنهم"، وأنّ الراشدين اصطلاحٌ تأخّر استعماله عن عصر الخلافة الأُمويّة، ولم يرد في نصٍّ ثبت وجوده قبل ذلك، ويقصد بالراشدين الّذين أتوا إلي الحكم بعد رسول الله متوالياً من ضمنهم الإمام عليّ، فلا يصحّ أن يعطف الراشدين علي اسم

الإمام، كلّ هذا يدلّنا علي أنّ الجملة أُدخلَت في لفظ الإمام الحسين» ((1)).

ويمكن أن يُجاب:

أوّلاً: وروده في مسانيد العامّة عن النبي (صلي الله عليه و آله)

إنّ لفظ «الخلفاء الراشدين المهديّين» قد ورد بالحرف في ما رواه العوامّ عن النبيّ (صلي الله عليه و آله) في مسانيدهم وكتبهم، كمسند أحمد وسنن ابن ماجة والترمذي وسنن سعيد بن منصور والسُنّة لابن أبي عاصم وعشرات الكتب والمسانيد الأُخري ((2)).ثانياً: ورد في أهل البيت (عليهم السلام)

القول بأنّه ورد في الأحاديث النبويّة وغيرها من الأحاديث، والمقصود منها أئمّة الهداة الخلفاء الحقّ المنصوبين يوم الغدير من الله، فلا شكّ في ذلك عندنا، بيد أنّ العوامّ رووها وحرّفوا معناها وطبّقوها وفق أهوائهم علي من شاؤوا، وهو موضع الخلاف بيننا وبينهم، فهي مستعملةٌ وفق موازين السقيفة في رجالها، وليس هذا اللقب هو الوحيد الّذي سُرق

1- هامش معالم المدرستين لمرتضي العسكري: 3 / 50.

2- أُنظر: سنن ابن منصور: 1 / 202، مسند أحمد: 4 / 126، سنن ابن ماجة: 1 / 15، سنن الترمذي: 4 / 150، المستدرك للحاكم: 1 / 96، السنن الكبري للبيهقي: 7 / 255، المصنّف للصنعاني: 6 / 288، السنة لابن أبي عاصم: 30، كتاب ابن خزيمة: 4 / 325، كتاب ابن حبّان: 1 / 179.

من أهل البيت (عليهم السلام) وألصق بأعدائهم وغاصبيهم، بل إنّهم سلبوا جميع ألقابهم وخلعوها علي أصنامهم، حتّي الألقاب الخاصّة من قبيل «أمير المؤمنين»، وقد ورد الحديث عنهم (عليهم السلام) في ذلك.

ثالثاً: وروده علي لسان مروان في تلك الأيّام

لقد ورد هذا المصطلح في كتاب ابن أعثم نفسه، وفي نفس تلك الأيّام علي لسان مروان، يقصد منه المتسلّطون علي الأُمّة بعد النبيّ (صلي الله عليه و آله) حسب الترتيب الّذي رسمَته السقيفة، وعدّ يزيد فيهم:

قال: فأرسل مروان إلي وجوه أهل المدينة، فجمعهم في المسجد الأعظم، ثمّ صعد المنبر، فحمد الله وأثني عليه وذكر الطاعة وحضّ عليها، وذكر الفتنة وحذّر منها، ثمّ قال في بعض كلامه: أيّها الناس، إنّ أمير المؤمنين قد كبر سنّه، ورقّ جلده وعظمه، وخشيَ الفتنة من بعده،وقد أراه الله رأياً حسناً، وقد أراد أن يختار لكم وليّ عهدٍ يكون من بعده لكم مفزعاً، يجمع الله به الأُلفة ويحقن به الدماء، وأراد أن يكون ذلك عن مشورةٍ منكم وتراض، فماذا تقولون؟

فقال الناس من كلّ جانب: إنّا لا نكره ذلك إذا كان لله فيه رضي. فقال مروان: إنّه قد اختار لكم الرضي الّذي يسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين المهديّين، وهو ابنه يزيد. قال: فسكت الناس ... ((1)).

وفي (المقتل) للخوارزمي: فقال مروان: فإنّه قد اختار لكم الرضي

1- الفتوح لابن أعثم: 4 / 232.

الّذي يسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين المهتدين، وهو ابنه يزيد. قال: فسكت الناس ((1)).

رابعاً: تحوّل المصطلح إلي ميزانٍ شرعيّ!

كان هذا المصطلح قد تحوّل من قبل إلي قيمةٍ وميزانٍ شرعيّ يوازي الأمر الإلهيّ والسيرة النبويّة.

وهذا ما يشهد به التاريخ ونظريّات السقيفة وسلوكيّاتها، وقد عرضوا الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) علي سيرة الشيخين وسُنّة النبيّ (صلي الله عليه و آله) في الشوري، فطُولب _ وهو الّذي يدور الحقّ معه حيثما دار _ أن يستنّ بسنّتَيهما ويسير بسيرتَيهما، فأبي، وقبل عثمان فملَك.

وورد علي لسان مروان في أحداث سنة ستٍّ وخمسين أنّه قال حين خطبهم وحضّهم علي الطاعة وحذّرهم الفتنة ودعاهم إلي بيعة يزيد،وقال: سنّة أبي بكر الهادية المهديّة ((2))..

وغير ذلك كثيرٌ ممّا يفيد أنّ هذا المصطلح كان قد راج يومها بفعل رجالات السقيفة، لتكون سُنّةً بسنّة النبيّ (صلي الله عليه و آله) ومنهاجاً مقابل منهاج الله.

خامساً: ذكر الخاصّ قبل العامّ

أمّا أن «لا يصحّ أن يُعطَف الراشدين علي اسم الإمام» لأنّه من

1- المقتل للخوارزمي: 1 / 171.

2- العِقد الفريد لابن عبد ربّه: 4 / 371.

ضمن الخلفاء الراشدين، فإنّ في التركيز علي ذكر الخاصّ قبل العامّ مقاصد تصحّحها الاستعمالات اللغويّة، سيّما إذا أفادت ولو من خلال الإشارة إلي وجود ثمّة فوارق بين السيرتين، أو أنّ هناك سيرتين، إذ إنّه ذكر سيرة جدّه وأبيه، وسيرة الخلفاء، فكأنّ ثمّة سيرتان وهو يريد أن يجمع بينهما، إحداهما سيرة الجدّ والأب، والأُخري سيرة الخلفاء! فلا مانع من الاستعمال..

علي أنّ كلام المولي ابن الحنفيّة يخلو من هذا العطف، وكلام سيّد الشهداء (عليه السلام) في الوصيّة ناظرٌ إلي كلام ابن الحنفيّة.

سادساً: متي امتدّت يد التحريف؟

هل امتدّت يد التحريف إلي كلام سيّد الشهداء فقط، أم أنّها وصلت إلي كلام ابن الحنفيّة أيضاً؟! فإنّ العبارة واردةٌ في الموضعين.

ثمّ إنّ المصدر الأوّل لهذه الوصيّة وكلام ابن الحنفيّة إنّما هو كتابالفتوح لابن أعثم حسب فحصنا، والنسخ المطبوعة للكتاب تتضمّن هذه العبارة في الموضعَين، وإنّما كنسها ابن أبي طالب، وربّما اعتقد أنّها تحريفٌ ففعل ذلك، بيد أنّ هذا لا يكفي لإثبات التحريف، وربّما كانت هذه العبارة من الشواهد الّتي دعت جميع العلماء والمؤرّخين الشيعة إلي الإغماض عن الوصيّة وكلام ابن الحنفيّة، حتّي أُولئك الّذين شهدَت كتبهم وعباراتهم بأخذهم عن ابن أعثم، بل حتّي أُولئك الّذين صرّحوا بالأخذ عنه.

سابعاً: من قال بالتحريف فَهِم أنّ المقصود رجال السقيفة

يفيد قول القائل: إنّ هذا ممّا امتدّت له يد التحريف، أنّه لم يفهم من النصّ أنّ المراد منه هم أئمّة الهدي (عليهم السلام) ، وإنّما انحصر الفهم من العبارة بالحكّام بعد النبيّ (صلي الله عليه و آله) مباشرة، ولذا قال بالتحريف، ولو كانت قابلةً للتأويل عنده بالأئمّة الراشدين المهديّين المنصوبين من الله (عليهم السلام) لَمال إلي هذا التأويل واستدلّ له.

ثامناً: غضّ النظر عن العبارة

كيف كان، إن كانت هذه العبارة دخيلة أضافتها يد التحريف فلتسقط، فالكلام في أصل دلالات الوصيّة، وقد قرّرنا _ من قبل عند الحديث عن السند والاعتبار _ التعامل معها، بغضّ النظر عن المضعّفات.

المادّة الرابعة: فرض عدم حصول البيعة

اشارة

المادّة الرابعة: فرض عدم حصول البيعةمن الطبيعيّ أن تردّ المادّة الرابعة هنا، إذ إنّ نتيجة مراسلات الإمام (عليه السلام) من موضع اختفائه في شعوب الجبال ومطاوي الرمال إمّا أن تكون استجابة الناس، فيكون الّذي أحبّ، وإمّا أن لا يستجيبوا واختاروا غيره.

وإن أجمع (اجتمع) الناس علي غيرك حمدت الله علي ذلك [وسكتّ ولزمت منزلك]».

ويمكن أن يُلاحَظ هنا:

الملاحظة الأُولي: الإمامة فرضٌ وليست اختيار

ص: 185

قد يوحي كلام المولي ابن الحنفيّة _ حسب هذا النصّ _ أنّ الإمام (عليه السلام) يعرض نفسه علي الناس، والناس بالخيار إن شاؤوا اختاروه وإن شاؤوا رفضوه واختاروا غيره.

والحال أنّ الإمامة في الإسلام ليست كذلك، وإنّما هي فرضٌ من الله، وهو _ تعالي _ الّذي ينصب الإمام ويختاره للناس، و(مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ)، وإنّما علي الناس أن يختاروا الطاعة أو يختاروا المعصية، لا أن يختاروا الإمام (عليه السلام) ، والكلام في ذلك يطول، والبحث فيه عقائديٌّ دقيق ليس هذا محلّه.

الملاحظة الثانية: سكوت الإمام (عليه السلام) في المدينة

إنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) كان قد لزم الصمت ولم يُقدِم علي أيّ موقف، حتّي بعث الوالي الرسلَ تتري تطلب منه أن يحضر عنده في جوف الليل وفي غير الوقت المعتاد الّذي يجلس فيه، ليأخذوا بيعته قبل أن يفشوا خبر هلاك طاغيتهم، فهم مَن بدؤوا بملاحقة الإمام (عليه السلام) ومتابعته والإلحاح عليه ((1))، وأزعجوه وركزوا بين السلّة والذلّة، وقد سمعنا _ كما ورد في

1- أُنظر: ترجمة الحسين (عليه السلام) من الطبقات لابن سعد: 55، تهذيب ابن بدران: 4 / 327، مختصر ابن منظور: 7 / 138، بغية الطلب لابن العديم: 6 / 2607، تهذيب الكمال للمزّي: 6 / 415، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 162، الإمامة والسياسة لابن قُتيبة: 1 / 175، جُمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 5 / 314، الأخبار الطِّوال للدينوري: 229، تاريخ اليعقوبي: 2 / 215، تاريخ الطبري: 5 / 339، المنتظم لابن الجوزي: 5 / 323، تاريخ الطبري: 5 / 347، الفتوح لابن أعثم: 5 / 13 _ 17، العِقد الفريد لابن عبد ربّه: 4 / 376، جواهر المطالب للباعوني: 2 / 263، الأمالي للصدوق: 151، بحار الأنوار: 44 / 312، الإرشاد للمفيد: 2 / 30، روضة الواعظين للفتّال: 146، الاستيعاب لابن عبد البرّ: 1 / 381، تاريخ الخميس للدياربكري: 2 / 331، نور الأبصار للشبلنجي: 256، الأمالي للشجري: 1 / 170، 190، إعلام الوري للطبرسي: 222، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 2 / 181، المناقب لابن شهرآشوب: 10 / 141، الكامل في التاريخ لابن الأثير: 3 / 264، نفَس المهموم للقمّي: 68، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 387، مثير الأحزان لابن نما: 9، تذكرة الخواصّ لسبط ابن الجوزي: 135، اللهوف لابن طاووس: 22، كتاب الفخري لابن طقطقي: 104، تهذيب الكمال للمزّي: 6 / 422، سيَر أعلام النبلاء للذهبي: 3 / 198، تاريخ الإسلام للذهبي: 2 / 341، مرآة الجِنان لليافعي: 1 / 132، تاريخ ابن خلدون: 3 / 19، تهذيب التهذيب لابن حجر: 2 / 348، الإصابة لابن حجر: 1 / 332، الفصول المهمّة لابن الصبّاغ: 182، المنتخَب للطريحي: 2 / 419، شذرات الذهب لابن العماد: 67.

جميع المصادر ـ بنَهَم ابن الزرقاء دبّاغة الأدم طريد النبيّ (صلي الله عليه و آله) وابن طريده للولوغ في دم سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وتأكيدِه علي الوالي أن لا يدعه يخرج حتّي يُبايع أو يضرب عنقه..

قال الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) مخاطباً ابن عبّاس حينما اعترضه هو وابن عمر:

يا ابن عبّاس، فما تقول في قومٍ أخرجوا ابن بنت رسول الله (صلي الله عليه و آله) من داره وقراره ومولده، وحرمِ رسوله ومجاورة قبره ومولده ومسجده وموضع مهاجره، فتركوه خائفاً مرعوباً، لا

يستقرّ في قرارٍ ولا يأوي في موطن، يريدون في ذلك قتله وسفك دمه، وهو لم يُشرِك بالله شيئاً ولا اتّخذ من دونه وليّاً، ولم يتغيّر عمّا كان عليه رسول الله (صلي الله عليه و آله) والخلفاء من بعده؟!! ((1))فالإمام (عليه السلام) قد لزم بيته ولم يبدر منه أيّ إقدامٍ لولا أنّهم أزعجوه وأخرجوه وتركوه في الحال الّتي وصفها هو ـ فداه العالمين ـ.

الملاحظة الثالثة: إجماع الناس علي بيعة غيره

لقد بايع الناس يزيداً في أقطارهم في عهد مُلك أبيه، وجاءته الوفود من الأمصار ((2))، وقد أكّد الناس بيعتهم في أعناقهم، وأعطوا عهودهم علي ذلك ومواثيقهم ((3))، وبايع أهل مصر والشام والعراق ((4))، وبايع أهل الحجاز، ولم يبقَ صقعٌ له موقعٌ في الأهمّيّة إلّا وقد بايع أهلُه ليزيد القرود.

وبهذا قد حصل إجماع الناس واجتماعهم علي غيره قبل أن يغيب في مطاوي الرمال وكهوف الجبال.. فلْيحمد الله وليلزم منزله ويسكت، ولا يتكلّف هو وأهل بيته الميامين التغرّب عند مسقط رأسه ومهبط الوحي وتربة سلفه الطاهرين!

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 38.
2- أُنظر: الكامل للمبرد: 1 / 30، الفتوح لابن أعثم: 4 / 232، العِقد الفريد لابن عبد ربّه، 4 / 369، مروج الذهب للمسعودي: 3 / 36، الكامل لابن الأثير: 3 / 250، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 353، شرح النهج لابن أبي الحديد: 17 / 45.
3- من كلام لمعاوية مع عائشة،أُنظر: تاريخ اليعقوبي: 2 / 206.
4- أُنظر: الفتوح لابن أعثم: 4 / 232، العِقد الفريد لابن عبد ربّه: 4 / 370.

وقد فعل (عليه السلام) ، لولا أنّهم بعثوا الرسل ولاحقوه وطالبوه بالبيعة للقرد المخمور، وركزوا بين السلّة والذلّة.

الملاحظة الرابعة: لو لزم الإمام منزله وسكت!

لو أنّ الإمام (عليه السلام) لزم منزله وسكت، فإنّهم لن يتركوه فيما بعد، وذلك أنّ دم الإمام (عليه السلام) مطلوبٌ علي كلّ حال، ويؤكّد ذلك أنّ القرد المخمور المتهوّر كتب إلي واليه علي المدينة الوليد بن عتبة كتاباً يطلبفيه رأس ريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) علي كلّ حال، وقال له:

أمّا بعد، فإذا ورد عليك كتابي هذا، فخُذ البيعة ثانياً علي أهل المدينة بتوكيدٍ منك عليهم، وذر عبد الله بن الزبير؛ فإنّه لا يفوتنا ولن ينجو منّا أبداً ما دام حيّاً، ولْيكن مع جوابك إليّ رأسُ الحسين بن عليّ، فإن فعلتَ ذلك فقد جعلتُ لك أعنّة الخيل، ولك عندي الجائزة والحظّ الأوفر، والنعمة واحدة، والسلام ((1)).

يلاحَظ في هذا النصّ التصريح بقتل سيّد الشهداء (عليه السلام) علي كلّ حال، ولم ينتظر البيعة أو الحوار أو أيّ شيءٍ آخَر، إنّما هو يريد رأس الحسين (عليه السلام) مع الكتاب الّذي سيخبره بتجديد بيعة الناس.

وفيما رواه ابن أعثم وغيره كلامًاً لسيّد الشهداء (عليه السلام) مع ابن عبّاس وابن عمر، ذكر الأخير ترك البيعة والدخول في الصلح والإقامة في الوطن

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 25، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 185، وانظر: الأمالي للصدوق: 152، بحار الأنوار: 44 / 312.

وحرم الرسول، فأجابه سيّد الشهداء مرّتين، قال في مفتتح كلامه الأوّل: «أفٍّ لهذا الكلام أبداً ما دامت السماوات والأرض».. وقال في جوابه حينما قال له ثانية:

فارجع إلي المدينة، وإن شئتَ أن لا ـ تبايع فلا تبايع أبداً، واقعد في منزلك.فقال له الحسين: هيهات يا ابن عمر، إنّ القوم لا يتركوني إن أصابوني، وإن لم يصيبوني فإنّهم يطلبوني أبداً حتّي أُبايع وأنا كاره، أو يقتلوني ((1)).

لقد خرج من المدينة مكرهاً، كما روي الطريحي في (المنتخب) أثناء ذكره لمشهد وداعه (عليه السلام) لقبر جدّه، قال:

ثمّ أتي قبر جدّه رسول الله (صلي الله عليه و آله) والتزمه وبكي بكاءاً شديداً، وقال: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، لقد خرجتُ من جوارك كرهاً، وقد فُرّق بيني وبينك، حيث أنّي لم أُبايع ليزيد بن معاوية، شاربِ الخمور وراكبِ الفجور، وها أنا خارجٌ من جوارك علي الكراهة، فعليك منّي السلام ((2)).

كما يشهد له عرضه عليهم مرّةً بعد مرّةٍ أن يرجع من حيث أتي، وما

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 38 _ 44، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 190 وما بعدها، واللفظ للمقتل، وفي الفتوح: ««إنّ القوم لا يتركوني، وإن أصابوني وإن لم يصيبوني، فلا يزالون حتّي أُبايع وأنا كارهٌ أو يقتلوني»».
2- المنتخب للطريحي: 2 / 420.

شاكل، فأبوا إلّا أن ينزل علي حكمهم.

الملاحظة الخامسة: مطالبة الإمام بالبيعة الذليلة

إنّهم كانوا يطالبون الإمام بالبيعة الذليلة، فهم لا يكفّون عنه مِن دون تحقيقها..

ويشهد لذلك قوله (عليه السلام) :: «هيهات منّا الذلّة»؛، تعبيراً عن تلك البيعة.

ويشهد لها أيضاً قول مروان حينما جاء يأمر إمام الثقلين بالبيعة للقردالمخمور..

فقال: أبا عبـد الله، إنّي لك ناصح، فأطعني ترشد وتسدّد!! فقال الحسـين: وما ذلك؟ قل حتّي أسـمع! فقال مروان: أقول: إنّي آمرُك ببيعة أمير المؤمنين يزيـد، فإنّه خَوَلُك في دِينك ودنياك ((1)). فاسترجع الإمام، وأبي وردّ قوله، فغضب الوزغ الطريد مروان من كلام الإمام الحسـين (عليه السلام) ، ثمّ قال: واللهِ لا تفارقني أو تبايع ليزيد بن معاوية صاغراً!! ((2))

وفي خبر عمر بن علي أنّه قال: لمّا امتنع أخي الحسين عن البيعة ليزيد بالمدينة.. فهو لم يذكر سوي امتناع سيّد الشهداء (عليه السلام) ليس إلّا، ثمّ استمرّ يحدّث مجريات لقائه بالإمام (عليه السلام) إلي أن يقول:

فتظنّ أنّك علمتَ ما لم أعلمه؟ وأنّه لا أُعطي الدنيّة من نفسي أبداً، ولتلقينّ فاطمةُ أباها شاكيةً ما لقيَت ذرّيّتُها من أُمّته ...

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 23_ 25، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 184 _ 185.

2- الفتوح لابن أعثم: 5 / 23، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 184.

وهنا لا يعدو الأمر عن الامتناع عن البيعة، الّتي أرادوا فرضها علي الإمام فرضاً مستهجَناً بحيث عبّر عنها الإمام ب- «الدنيّة»!

ويؤكّد ذلك أيضاً ردود سيّد الشهداء (عليه السلام) علي مَن اقترح عليه البيعة، فأخبره أنّه مقتولٌ لا محالة، فهو يقرّر أنّه مطلوبٌ للقتل، سواءً بايع أم لم يبايع ((1)).

الملاحظة السادسة: لو بايع الإمام (عليه السلام) !

الملاحظة السادسة: لو بايع الإمام (عليه السلام) !

حينما همّ بالخروج من مكّة، لقيَه ابن الزبير فقال: يا أبا عبد الله، إنّك مطلوب! فلو مكثتَ بمكّة، فكنتَ كأحد حمام هذا البيت واستجرتَ بحرم الله لكان ذلك أحسن لك. فقال له الحسين (عليه السلام) : يمنعني من ذلك قول رسول الله (صلي الله عليه و آله) : سيستحلّ هذا الحرم من أجلي رجلٌ من قريش، واللهِ لا أكون ذلك الرجل، صنع الله بي ما هو صانع ((2)).

وأكّد سيّد الشهداء (عليه السلام) في كلامه مع ابن الزبير وغيره عند خروجه من مكّة، فقال: «لئن أُقتَل خارجاً من مكّة بشبرٍ أحبّ إليّ من أن أُقتَل فيها، ولئن أُقتَل خارجاً منها بشبرَين أحبّ إليّ مِن أن أُقتَل خارجاً منها بشبر» ((3))، «واللهِ لئن أُقتل خارجاً منها بشبرٍ أحبّ إليّ من أن أُقتَل داخلاً

ص: 192

1- أُنظر: اللهوف لابن طاووس: 26، وما ذكرناه في البحث من مصادر لردود الإمام (عليه السلام) علي المعترضين.

2- شرح الأخبار للقاضي النعمان: 3 / 143.

3- جُمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 3 / 375. وانظر: مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 219، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 161، التهذيب لابن بدران: 4 / 329، المناقب لابن شهرآشوب: 10 / 27 بتحقيق: السيّد علي السيّد جمال أشرف ، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: 14 / 203، سيَر أعلام النبلاء للذهبي: 3 / 293، بحار الأنوار: 44 / 185، ذخائر العُقبي للطبري: 151، الفصول المهمّة لابن الصبّاغ: 186، نور الأبصار للشبلنجي: 258، الصواعق المحرقة لابن حجر: 117.

منها بشبر، وأيمُ الله لو كنتُ في جُحر هامّةٍ من هذه الهوامّ لاستخرجوني حتّي يقضوا فيّ حاجتهم، واللهِ لَيَعتدُنّ علَيّ كما اعتدَت اليهودُ في السبت» ((1)).

وقال (عليه السلام) _ معلّقاً علي كلام ابن الزبير _ : «إنّ هـذا يقول لي: كن حماماً من حمام الحرم! ولئن أُقتَل وبيني وبين الحرم باعٌ أحبّ إليّ من أن أُقتَل وبيني وبينه شبر، ولئن أُقتَل بالطفّ أحبّ إليّ من أن أُقتَل بالحرم».

وفي حديث الإمام الصادق (عليه السلام) : «لا نستحلّها ولا تستحلّ بنا، ولئن أُقتَل علي تلّ أعفر أحبّ إليّ من أن أُقتَل بها» ((2)).وكتب عبد الله بن جعفر لسيّد الشهداء (عليه السلام) كتاباً وهو في مكّة، فأبدي له تخوّفه عليه وعلي أهل بيته من القتل وأن يطفأ نور الأرض، ثمّ وعده أن يأخذ له الأمان من يزيد وجميع بني أُميّة علي نفسه وماله ووُلده وأهل بيته، فكتب إليه الإمام (عليه السلام) جواباً، وكان من جملته: «واللهِ _ يا ابن عمّي _ لو كنتُ في جُحر هامّةٍ من هوامّ الأرض لاستخرجوني حتّي

1- تاريخ الطبري: 5 / 385، شرح الأخبار للقاضي النعمان: 3 / 145، الكامل لابن الأثير: 3 / 275.

2- كامل الزيارات لابن قولويه: 72 _ 73، بحار الأنوار: 45 / 85.

يقتلوني، واللهِ ـ يا ابن عمّي ـ لَيعتدُنّ علَيّ كما اعتدَت اليهودُ في يوم السبت، والسلام» ((1)).

ربّما يُفهَم من كلام الإمام (عليه السلام) الإخبار بالغيب، وهو فهمٌ صحيح، ونحن لا نريد هنا التعامل مع الأحاديث والروايات المتظافرة الواردة في المقام، لأنّنا بنينا البحث هنا علي النصّ التاريخيّ فقط، بيد أنّ في مدلول كلام الإمام (عليه السلام) ما يفيد بوضوحٍ أنّه يريد بيان ملاحقته من قِبَل قرود الأُمويّين الوحشيّة، وأنّه مطلوبٌ للقتل علي كلّ حال، سواءً بايع أم لم يبايع!

وهذا البيان واضحٌ لا يحتاج إلي كثير تأمّل، بغضّ النظر عن الجانب الغيبيّ في إخباره (عليه السلام) بمكان شهادته، فهو (عليه السلام) يريد أن يقول إنّ القوم عزموا علي قتله أين ما ثقفوه، وهو لا يريد أن يكون المقتول في فناء الكعبة، ويريد أن يخرج عنها لئلّا تُستحَلّ به، فسيّد الشهداء (عليه السلام) يرعي حرمة الكعبة، ويعلم أنّهم يطاردونه ليقتلوه أينما كان، وهو لا يريد أن يكون في مكّة.وقد صرّح (عليه السلام) بذلك حينما قال ـ وهو الصدّيق، وأقسم علي ما قال ـ: «أيمُ الله لو كنتُ في جُحر هامّةٍ من هذه الهوامّ لاستخرجوني حتّي يقضوا فيّ حاجتهم».. وفي لفظ ابن أعثم والخوارزميّ: «لاستخرجوني حتّي يقتلوني».

وإنّما خرج الإمام (عليه السلام) من مكّة قبل الحجّ، ولم يحجّ؛ لأنّهم كانوا

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 115، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 217.

عازمين علي قتاله وقتله أو أسره في مكّة، وبذلك ستُهتَك حرمة مكّة والبيت الحرام، فإنّهم قد أعدّوا لذلك، وقدم عمرو بن سعيد بن العاص إلي مكّة يوم التروية في جندٍ كثيف، وقد أمره يزيد أن يُناجز الحسين القتال إن هو ناجزه أو يقاتله إن قدر عليه ((1))، وأوصاه أن يقبض علي الحسين (عليه السلام) سرّاً، ويقتله غِيلة ((2))، فأحلّ الإمامُ من إحرامه وجعلها عُمرة، لأنّه لم يتمكّن من تمام الحجّ، مخافة أن يُقبَض عليه بمكّة فينفذ به إلي يزيد بن معاوية ((3)).

وكذا يمكن أن يُفهَم كلامه (عليه السلام) في كتابه لأخيه محمّد ابن الحنفيّة وبني هاشم، فإنّه (عليه السلام) إنّما قال:: «مَن لحق بي منكم استُشهد» ((4))، أفاد الإخبار الغيبيّ، ويمكن أن يفيد الإخبار عن مجريات الأحداث، إذ إنّهم قد عزموا علي قتله ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة، فهو يريد أن يدعوهم للدفاع عنه ونصرته، ولما كانوا لا يتركونه أبداً حتّي يقتلوه، ومن جاء للدفاع عنه ونصرته لا يدعهم يصلون إليه وفيه عرقٌ ينبض، فهذا

1- اللهوف لابن طاووس: 62.

2- المنتخَب للطريحي: 2 / 289.

3- الإرشاد للمفيد: 2 / 68، روضة الواعظين للفتّال: 152، إعلام الوري للطبرسي: 230، مثير الأحزان لابن نما: 19، بحار الأنوار: 44 / 363.

4- بصائر الدرجات للصفّار: 501 ح 5، كامل الزيارات لابن قولويه: 75، دلائل الإمامة للطبري: 77، نوادر المعجزات: 109، الخرائج للراوندي: 2 / 771، مثير الأحزان لابن نما: 19، اللهوف لابن طاووس: 65، مختصر بصائر الدرجات للحلّي: 6، بحار الأنوار: 45 / 84.

معناه أنّ من لحق به منهم يستشهد جزماً..

فغايتهم قتله، كيف ما كان! ولو اختفي عنهم وابتعد واعتزل وناول وبايع وفعل ما فعل..

وقد اقترح عليه (عليه السلام) كثيرون أن يقيم في مكّة، ويتثبّت حتّي يدخل موسم الحجّ، فيدعوهم إلي نفسه فيبايعه أهل الموسم، يتذكّرون به الناس جدَّه، ويمضي حينئذٍ في جملتهم في جماعةٍ ومنَعَةٍ وسلاحٍ وعدّة ((1))، وقال له الفرزدق: بأبي أنت، لو أقمتَ حتّي يصدر الناس لَرجوتُ أن يتقصّف أهل الموسم معك. فقال (عليه السلام) : «لم آمنهم يا أبا فراس» ((2)).

وهذا يعني أنّ الإمام كان مهدَّداً في تلك الأيّام، مضيَّقاً عليه بحيث لا يسَعه البقاء في مكّة حتّي ينتهي موسم الحجّ.

لو كان الإمام ناول وبايع لَلاحقوه وقتلوه، كما فعلوا بأخيه الحسن المجتبي وباقي أولاده الأئمّة النجباء (عليهم السلام) ، وقد صرّح هو بذلك في أكثر من بيان وموضع: «واللهِ لا يدَعوني حتّي يستخرجوا هذه العلقة من جوفي» ((3)).

1- الإنباء للعمراني: 14.
2- ترجمة الإمام الحسين (عليه السلام) من الطبقات لابن سعد: 63، مختصر ابن منظور لتاريخ ابن عساكر: 27 / 121.
3- أُنظر: ترجمة الإمام الحسين لابن سعد: 50 رقم 280، تاريخ الطبري: 5 / 394، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 169، الإرشاد للمفيد: 2 / 77، بحار الأنوار: 44 / 375، العوالم للبحراني: 17 / 225، إعلام الوري للطبرسي: 232، الكامل لابن الأثير: 3 / 276.

قال العلّامة المجلسي:مع أنّه قد ظهر لك من الأخبار السابقة أنّه؟ (عليه السلام) هرب من المدينة خوفاً من القتل إلي مكّة، وكذا خرج من مكّة بعد ما غلب علي ظنّه! أنّهم يريدون غيلته وقتله، حتّي لم يتيسّ ر له _ فداه نفسي وأبي وأُمّي وولدي _ أن يُتمّ حجّه، فتحلّل، وخرج منها خائفاً يترقّب، وقد كانوا (لعنهم الله) ضيّقوا عليه جميع الأقطار، ولم يتركوا له موضعاً للفرار.

ولقد رأيتُ في الكتب المعتبرة أنّ يزيد أنفذ عمرو بن سعيد ابن العاص في عسكرٍ عظيم، وولّاه أمر الموسم، وأمّره علي الحاجّ كلّهم، وكان قد أوصاه بقبض الحسين؟ (عليه السلام) سرّاً، وإن لم يتمكّن منه بقتله غيلة، ثمّ إنّه دسّ مع الحاجّ في تلك السنة ثلاثين رجلاً من شياطين بني أُميّة، وأمرهم بقتل الحسين؟ (عليه السلام) علي أيّ حالٍ اتّفق، فلمّا علم الحسين؟ (عليه السلام) بذلك حلّ من إحرام الحجّ، وجعلها عُمرةً مفردة.

وقد رُوي بأسانيد: إنّه لمّا منعه؟ (عليه السلام) محمّدُ ابن الحنفيّة عن الخروج إلي الكوفة، قال: واللهِ _ يا أخي _ لو كنتُ في جُحر هامّةٍ من هوامّ الأرض لَاستخرجوني منه حتي يقتلوني.

بل الظاهر أنه (صلوات الله عليه) لو كان يسالمهم ويبايعهم لا

يتركونه؛ لشـدّة عداوتهم وكثرة وقاحتهم، بل كانوا يغتالونه بكلّ حيلة، ويدفعونه بكلّ وسـيلة، وإنّما كانوا يعرضون البيعةعليه أوّلاً لعلمهم بأنّه لا يوافقهم في ذلك، ألا تري إلي مروان (لعنه الله) كيف كان يُشـير علي والي المدينـة بقتله قبل عرض البيعـة عليه؟ وكان عُبيـد الله بن زياد (عليه لعائن الله إلي يوم التناد) يقول: اعرضوا عليه فلْينزِلْ علي أمرنا، ثمّ نري فيه رأينا! ((1))

المادّة السابعة: نتيجة ترك العمل بالرأي

اشارة

بعد أن قدّم المولي ابن الحنفيّة مشورته وعرض رأيه علي إمام زمانه خامس أصحاب الكساء وسيّد الشهداء (عليه السلام) ، قال:

وإنّي خائفٌ عليك أن تـدخل مصـراً من الأمصار أو تأتيَ جماعـةً من الناس فيقتتلون، فتكون طائفـةٌ منهم معك وطائفـةٌ عليك، فتقتَل منهم [بينهم].

ويبدو أنّ هذه الفقرة تتضمّن جملةً من المفادات:

المفاد الأوّل: التعليل والتحذير

بـدأ المولي ابن الحنفيّة وكأنّه يريد أن يحذّر الإمام (عليه السـلام) من عاقبة الإعراض عن رأيه ومشورته، إذ إنّه عرض مشورته ورأيه، ثمّ عقّب علي ذلك بخوفه علي حياة الإمام (عليه السلام) ، فهو يريد أن يقول للإمام: إن لم تقبل

1- بحار الأنوار: 45 / 99، العوالم للبحراني: 17 / 323.

مشورتي فإنّ عاقبتك إلي القتل، فاحذرْ.

وهـذا ما يفيـد قوله: وإنّي خائفٌ عليك ...، الّـذي يفيـد تعليل الخوفالّـذي ذكره في تتمّة كلامه، كما يفيد أنّك إن لـم تقبل قولي فإنّي خائفٌ عليك، فهو تعليلٌ وتحذيرٌ في آنٍ واحد..

المفاد الثاني: ضرورة الأخذ برأيه

لم يـذكر المولي ابن الحنفيّـة أيّ خيارٍ آخَر سوي ما ذكره للإمام (عليه السـلام) في رأيه ومشورته، وكأنّه يقول للإمام (عليه السـلام) : إمّا أن تقبل قولي أو ستكون عاقبتك القتل، ولا خيار لك، فهو يعبّر بشكلٍ من الأشكال عن ضرورة الأخذ برأيه والعمل بمشورته.

المفاد الثالث: افتراض الافتراق

افترض المولي ابن الحنفيّة في كلامه أنّ الإمام (عليه السـلام) إذا دخل مصـراً من الأمصار سينقسم أهله إلي فرقتين، إحداهما معه والأُخري عليه، وسيقع بينهما قتال..

ويقع الكلام في هذا الفرض ضمن نطاقين:

النطاق الأوّل: الناس عبيد الدنيا

قد سمعنا أخبار الأمصار الّتي كانت مرشّحةً لدخول سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فلم نجد ما افترضه ابن الحنفيّة، فهي:

إمّا المدينة: فقد خذلَته وتركته وحيداً مهدّداً، حتّي اضطرّته إلي الخروج منها تحت جنح الليل.

وإمّا مكّة: فقد رأيناها تنبو به وتخذله في فترةٍ أكثر ما تكون مزدحمةًبمَن يسمّونهم المسلمين، إذ خرج منها ريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) أيّام الحجّ، أيّام الوقوف في مني وعرفات، وهي الأيّام الّتي يجتمع فيها الحجيج جميعاً.. فخرج منها.

وإمّا الكوفة: فقد انقلَبت عليه بقضّها وقضيضها، حتّي قتلَته وأهلَ بيته.

أمّا الجماعة الصابرة الثابتة علي الحقّ من الّذين قُتِلوا معه، فهم بالحساب العدديّ لا يكاد يبين، وإن كانوا يعدلون أهل الأرض..

وكيف كان، فإنّ قدوم الإمام (عليه السلام) علي أهل المصر لم يفرّقهم ويميّزهم فرقتين، إحداهما معه والأُخري عليه، وإنّما كانوا جميعاً عليه! قتلوه إرضاءاً لأبناء البغايا وإخلاداً للدنيا، وقد قال ـ فداه العالمين ـ: «الناس عبيد الدنيا، والدين لَعِقٌ [لغوٌ] علي ألسنتهم».. ولو ذهب سيّد الشهداء (عليه السلام) إلي أيّ مصرٍ من أمصار المسلمين يومها في أيّ صقعٍ من أصقاع الأرض لَكانت النتيجة واحدة؛ إذ إنّ القوم قد بايعوا القرد المخمور يزيد،اً وخنعوا له ورضوا بالدنيّة وباعوا الذمم.. وربما أشار إلي ذلك ما ورد في زيارته (عليه السلام) : «ضمّن الأرض ومَن عليها دمَك وثارك يا ابن رسول الله» ((1)).

النطاق الثاني: تحذير الإمام من التفريق

يتضمّن كلام المولي ابن الحنفيّة إشعاراً مكشوفاً بالتحذير من إيقاع

ص: 200

1- أُنظر: كامل الزيارات لابن قولويه: 217 ح 12.

الفرقة بين أهل المصر الّذي سيدخله الإمام (عليه السلام) ، فيأتي جماعة! ولابدّأن تكون تلك الجماعة في مصرٍ من الأمصار، فيختلف أهل المصر ويفترقوا فرقتين.. ربّما يذكر هذا الكلام بمزاعم الأعداء الّذين افتروا علي حبل الله المتين الّذي جعله العروة الوثقي الّتي توحّد البشر وتدفع عنهم التنازع والافتراق، فقالوا: إنّه بالإباء عن البيعة والتقبّض عنها يشقّ عصا المسلمين!!!

النطاق الثالث: افتراض قتل الإمام (عليه السلام)

لقد علمنا من خلال القرائن والشواهد ــ وكثيرٌ منها يرقي إلي رتبة الأدلّة والبراهين ــ أنّ الإمام (عليه السلام) لا مقام له في المدينة ما لم يُبايع أو يُقتَل هناك، وقد علم المولي ابن الحنفيّة بذلك تماماً، لذا اقترح علي الإمام (عليه السلام) أن يلتحق بمكّة أو اليمن أو سفوح الجبال ومطاوي الصحاري والرمال..

وقد قرّر في هذه الفقرة من كلامه مع إمامه (عليه السلام) أنّه إن دخل إلي أيّ مصرٍ من الأمصار! أيّ مصر، أو أتي جماعةً من الناس، فإنّ مصيره إلي القتل لا محالة، لأنّه رسم المشهد بعد دخول سيّد الشهداء (عليه السلام) إلي المصر المفترَض، وأنهاه بعد افتراق أهل المصر إلي طائفتين بقتل سيّد الشهداء (عليه السلام) ، ولم يفترض بتاتاً غلبة الطائفة المنضوية تحت راية الإمام (عليه السلام) الناصرة له.

النطاق الرابع: عدم ذكر الكوفة

هنا لم يفترض المولي ابن الحنفيّة دخول أقدام سيّد الشهداء (عليه السلام)

علي الكوفة في فروضه، فهي لم تكن في الحسبان في تحرّك الإمام (عليه السلام) علي المدي المنظور، فهو لم يقترحها علي الإمام ولم ينهه عنها.

النطاق الخامس: القتل منهم أو بينهم

سبب الخوف الّذي ذكره ابن الحنفيّة إنّما هو افتراق القوم وقتل الإمام (عليه السلام) عاقبة، بيد أنّه لم يقل: إنّي أخاف عليك أن تُقتَل فحسب، وإنّما قال: تُقتَل منهم، أو بينهم ـ علي اختلاف النسخ ـ .. وفي هذه التتمّة إيحاءٌ وإشعارٌ يختلف تماماً عمّا لو كان قد أطلق خوفه عليه من القتل مطلقاً.

وفي لفظ (منهم) إشعارٌ أنّ القوم هم الّذين سيقتلونه، سواءً كانوا معه أو عليه، وهو يتضمّن معني الغدر.

وفي لفظ (بينهم) ـ وربّما كان الأصحّ ـ يفيد معني ضياع الدم وعقم التحرّك، وطمس القداسة المحيطة بالدم الّذي سكن الخلد، إذ إنّه سيكون واحداً منهم ويُقتَل بينهم من دون أيّ امتيازٍ أو تمييز، فيضيع دمه كإنسان ـ فضلاً عن كونه إماماً ـ ، ويكون دمه بين الدماء.

جواب سيّد الشهداء (عليه السلام)

لقد سدّ المولي ابن الحنفيّة كلّ الأبواب، وأطبق علي الأرجاء والأجواء، ولم يدَع لسيّد الشهداء (عليه السلام) ـ حسب كلامه ـ سبيلاً، وأشار عليه أن يتجنّب الدخول إلي أيّ مصرٍ من الأمصار، وحضر عليه أن يأتيأيَّ جماعةٍ من الناس؛ لأنّ عاقبة ذلك كلّه قتل سيّد الشهداء (عليه السلام)

وضياع دمه هدراً!

ثمّ وقف الآن ينتظر الردّ من سبط النبيّ (صلي الله عليه و آله) وسيّد شباب أهل الجنّة، فأجابه الإمام (عليه السلام) ..

فقال له الحسين: يا أخي، إلي أين أذهب؟

لاـ حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.. ما أعظمها من ظليمـة! إلي أين أذهب؟ مالِك الكونين وإمام الثقلين، خِيرة ربّ العالمين، تؤخذ عليه أقطار الأرض وآفاق السـماء، فلا أرض تُقِلّه ولا سـماء تُظِلّه، يُمنع عليه المقام في بلد جدّه ومسقط رأسه، ويُلاحق في وطنه؟!

إنّ ابن الحنفيّة يعلم تماماً أنْ لا مقام لسـيّد الشهداء (عليه السلام) بعد يومه ذاك في المدينة إلّا أن يبايع، وهذا ما لا يكون، أو يُقتَل، وهذا ما لم يرد سـيّد الشهداء (عليه السلام) أن يكون هناك، لئلّا تُهتَك بدمه حرمة حرم جدّه، فإن كان الأوغاد والقرود لا يعرفون للمدينة حرمة، فإنّ ابن النبيّ (صلي الله عليه و آله) الذي حرّمها يحفظها..

فإذن كان لابدّ من الخروج إلي المدينة، من دون الدخول إلي مصرٍ من الأمصار خوفاً علي سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) من القتل وضياع الدم، فإلي أين يذهب؟

ولا شكّ أنّ الإمام (عليه السـلام) إنّما سأل هذا السؤال نزولاً عند رغبة أخيه،وإتماماً للحجّة، وربّما كان فيه اسـتدراجٌ للإقناع.. وإلّا فالإمام غنيٌّ بالله عن العالَمين.

ص: 203

الفقرة الثالثة: إلي مكّة أو اليمن أو..

كلام ابن الحنفيّة:

اشارة

قال: اخرج إلي مكّة، فإن اطمأنّت بك الدار فذاك الّذي تحبّ وأُحبّ، وإن تكن الأُخري خرجتَ إلي بلاد اليمن، فإنّهم أنصار جدّك وأخيك وأبيك، وهم أرأف الناس وأرقّهم قلوباً وأوسع الناس بلاداً وأرجحهم عقولاً، فإن اطمأنّت بك أرض اليمن وإلّا لحقتَ بالرمال وشعوب الجبال، وصرت من بلدٍ إلي بلدٍ لتنظر ما يؤول إليه أمر الناس، ويحكم بينك وبين القوم الفاسقين.

جهد أخو الإمام الحسين (عليه السلام) ابنُ الحنفيّة أن يمنع القتل عن الإمام، ولو بالتغيّب أين ما كان، ولم يكن في حسبان ابن الحنفيّة أنّ الإمام يقوم للأخذ بزمام الأُمور، فهو يريد أن يُبعِد الإمامَ (عليه السلام) عن أنظار يزيد وأعوانه، وهو يبحث عن مكانٍ آمنٍ يقلّ الإمام (عليه السلام) وأهله، وهذا بنفسه شاهد _ بل دليلٌ _ علي أنّ الإمام كان مطلوباً، وإنّما خرج للحفاظ علي حياته وحياة مَن معه من أهل بيته، لئلّا تُهتَك بهم حرمة المدينة، هذا هو الدافع الأصليّ للخروج من المدينة عند ابن الحنفيّة وعند الإمام (عليه السلام) .

هذا هو الواقع الّذي يُحاصر الإمام (عليه السلام) والظروف الّتي تحيط به، وابنالحنفيّة يقدّم في هذه الفقرة للإمام (عليه السلام) خياراتٍ يمكن أن تنجيه من القتل الّذي يلاحقه:

الخيار الأوّل: مكّة

أُخرج إلي مكّة، فإن اطمأنّت بك الدار فذاك الّذي تُحبّ وأُحبّ..

ص: 204

هـذا هو الخيـار الأـوّل، وهو أن يخرج إلي الأـرض المقدّسـة الّتي حرّمهـا الله، وجعـل لكلّ مَن يـدخلها حرمـة، وجعلها بلـداً آمناً حتّي للوحوش، وحرّم فيها إفزاع الطير.. وهي الوجهة الّتي توجّه إليها سيّد الشهداء (عليه السلام) .

فإن اطمأنَّت به الدار، فذاك الّذي يحبّ سيّد الشهداء (عليه السلام) كما فهم وعبّر عنه ابن الحنفيّة، وهو الّذي يحبّه ابن الحنفيّة أيضاً.. فالذي يحبّه الإمام (عليه السلام) وأخوه إنّما هو أن يجدوا داراً يطمئنّ فيها خامس أصحاب الكساء (عليهم السلام) ، فلا يُلاحَق ولا يُقتَل!

هـذا هو الغرض الأـوّل والأـخير، والمهمّ الّـذي يبحث عنه الجميع، المُشـير والمُشار عليه! دارٌ آمنـة، مقامٌ آمن، بعيـداً عن مضايقات قرود الأُمويّين وتهديداتهم..

الّذي يحبّه الإمام (عليه السـلام) وابن الحنفيّة _ حسب هذا التصـريح _ بكلّ صـراحةٍ ووضوحٍ إنّما هو أرضٌ تقلّه وسماءٌ تظلّه، ودارٌ تحميه وتوفّر له الأمان، لا أكثر..الّذي يحبّه ابن الحنفيّة لأخيه، ويُخبِر عن حبّ أخيه أيضاً، أن يذهب الإمام (عليه السـلام) إلي موضعٍ يأمن فيه من القتل..

مكّة البلد الآمن، منذ أن خلقها الله وفي أيّام الجاهليّة.. وقد زاد الإسلام في التأكيد علي حرمتها وأنّها أمن.. يفترض ابن الحنفيّة أن لا تكون داراً آمِنةً لسيّد الشهداء (عليه السلام) وحرم الرسول وعياله، فيقول: وإن تكن الأُخري.. أي: إن لم تكن لك حرماً آمناً!

إن لم يكن حرم الله آمناً لابن رسول الله (صلي الله عليه و آله) ، فأيّ أرضٍ ستكون؟!

الخيار الثاني: اليمن

إن لم تكن مكّـة أرضاً آمنـةً لابن رسول الله (صـلي الله عليه و آله) ، فلا يمكن أن يفترض بعـدها أرضاً آمنـةً أبداً، لذا صار ابن الحنفيّة يقدّم الخيار الآخر، وفي هـذا الخيار ركّز فيه ابن الحنفيّـة علي (الإنسان)، أي إنّه لحّظ جانب الـدفاع الّـذي سـيوفّره البشـر لسـيّد الشـهداء (عليه السـلام) كأنصارٍ يمكن أن يمنعوا القرود عنه (عليه السـلام) ، إذ إنّ المكان الّـذي جعله الله حراماً يأمن فيه الناس والحيوان لم يكن حاجزاً للقرود من الاعتـداء فيه علي ريحانة النبيّ (صـلي الله عليه و آله) ، فاقترح علي الإمام (عليه السـلام) أن يبحث عن أنصارٍ ورجالٍ يمكن أن يدافعوا عنه..

فهو في الخيار الأوّل اقترح الحصانة الربّانيّة والأمان الجغرافيّ، وهنا انحاز إلي توفير العنصر البشريّ، فقال:

وإن تكن الأُخري خرجتَ إلي بلاـد اليمن، فإنّهم أنصار جـدّكوأخيك وأبيك، وهم أرأفُ الناس وأرقّهم قلوباً وأوسع الناس بلاداً وأرجحهم عقولاً..

ذكر المولي ابن الحنفيّة الدافع الّذي جعله يفكّر في اليمن كبديلٍ لمكّة، فأشار إلي علّتين:

العلّة الأُولي: العنصر البشريّ

ذكر المولي ابن الحنفيّـة عدّة صـفاتٍ لأهل اليمن ترجّحهم علي غيرهم لاختيارهم كأنصارٍ يمكن الارتكان إليهم والاعتماد عليهم، ليكونوا ردءاً ويـداً يصول بهم الإمام (عليه السـلام) ويـدفع عن نفسه القتل، وهـذه الصـفات والمؤهّلات هي الّتي ميّزت أهل هذه البلاد وجعلتهم خياراً يتقدّم به

ص: 206

ابن الحنفيّة بين يدَي الإمام (عليه السلام) ، وهي:

المؤهّل الأوّل: إنّهم أنصار جدّك وأخيك وأبيك

يشهد المولي ابن الحنفيّة لأهل اليمن شهادةً يحقّ لأهله أن يفخروا بها جيلاً بعد جيل، إذ يؤكّد أنّهم أنصار رسول الله (صلي الله عليه و آله) وأنصار أمير المؤمنين (عليه السلام) وأنصار أبي محمّد الحسن الأمين (عليه السلام) ، فهم بالتالي أنصار سيّد الشهداء الحسين (عليه السلام) ما داموا قد عُرفوا بنصرة أصحاب الكساء السابقين..

وحينئذٍ قد توفّر العامل البشريّ المشهود له بالنصرة من قبل، وقد أدّواالاختبار حسب شهادة المولي ابن الحنفيّة مع أصحاب الكساء الثلاثة، وخرجوا مرفوعي الرأس بنجاحٍ وامتيازٍ موفّق.

المؤهّل الثاني: هم أرأفُ الناس وأرقّهم قلوباً

هم أرأف الناس، وأرقّهم قلوباً.. تتدفّق جوانحهم عاطفةً ورحمة، يتحسّسون معني الحبّ والمودّة لآل البيت (عليهم السلام) ، وتجيش في أعماقهم حرارة الشوق لرؤية الوجه المذكِّر برسول الله (صلي الله عليه و آله) ، يُدرِكون معني الغَيرة علي حرم الله وحرم رسوله.

ولكي لا ندخل في تفاصيل بيان كلام المولي، نقتصر علي كلمةٍ يمكن أن تكتنز كلّ المعاني الّتي قصدها (رضوان الله عليه) ، فنقول:

لمّا كانوا أرأف الناس وأرقّهم قلوباً، سوف لا ولن يفعلوا ما فعله جيش السقيفة في الكوفة بآل البيت (عليهم السلام) رجالاً ونساءاً وأطفالاً.. لن

يمنعوا الماء عنهم حتّي عن الطفل الرضـيع.. لن يمثّلوا بحبيب الله وحبيب رسوله ويجرّوا الخيل عليه.. لن يسبوا نساءه.. لن يقتلوا أطفاله.. لن يمزّقوا أحشاء شبابه ويقطّعونهم آراباً.. ولَن ولَن، وألف ألف لَن ممّا فعله الوحوش الكواسر في كربلاء..

لمّا كانوا أرأف الناس وأرقّهم قلوباً، فإنّهم يحبّون سـيّد الشـهداء الحسـين وآل الحسـين (عليهم السـلام) ، لأنّهم أهلٌ للمحبّة، وقد أمر الله ورسوله بمودّتهم وحبّهم.

قلوبهم مؤهّلة لحبّ سيّد الشهداء وآله (عليهم السلام) .المؤهّل الثالث: هم أرجح الناس عقولاً

هم أرجـح النـاس عقولاً.. يفهمون إذا فُهّموا، ويفكّرون قبل أن يُقـدِموا، ويختارون الجنّـة علي النار إذا خُيّروا.. فالعقل ما اكتُسِب به الجِنان وعُبد به الرحمان.

قلوبهم سليمة، وهي أرقّ القلوب، تعمرها الرأفة، أحلامهم رزينة، عقولهم راجحة..

العلّة الثانية: العنصر الجغرافيّ

ثمّ هم أوسع الناس بلاداً.. أرضـهم واسعةٌ شاسعة، تمتدّ علي البحر وترتفع شاهقةً في السماء، جبالهم شامخةٌ متعالية، يعانقها السحاب في أدني سفوحها، وتفرشها السهول وتحيط بها السواحل، أرضٌ منيعةٌ حصينةٌ عزيزةٌ مستعصيةٌ علي الغزاة، لا يقتحمها غريبٌ ولا يسلكها

غيرهم إلّا بدليلٍ منهم، يتنقّلون في مدياتٍ واسعة، لا يمكن أن يحصرهم أو يحاصرهم أحد..

فالأرض الّتي حرّمها الله بالأمر الإلهيّ الّتي نبت بسيّد الشهداء (عليه السلام) .. يمكن أن تُستبدَل بأرضٍ أُخري جعلها الله منيعةً بتضاريسها وجغرافيّتها.

إكتمال عناصر الغلَبة والحماية

يلاحَظ في اقتراح ابن الحنفيّة اكتمال جميع العناصر والظروف الّتي توفّر عوامل كافيةً للدفاع عن الإمام (عليه السلام) وتوفير الحماية اللازمة لهوتمنحه المنَعة، وبالتالي العيش الآمن والطمأنينة، والإفلات من القتل الّذي يُلاحقه.

فهم من حيث السوابق أصحاب سوابق نظيفةٍ عامرةٍ بالوفاء والولاء لرسول الله وآله (عليهم السلام) ..

وهم من حيث القلوب والعقول في غاية الكمال إذا قيست إلي غيرهم من البلدان..

وهم من حيث الأرض في سعةٍ ومنعةٍ وحصانة..

وقد سمعنا الطرمّاح حين دنا من الحسين فقال له:

واللهِ إنّي لأنظر، فما أري معك أحداً، ولو لم يقاتلك إلّا هؤلاء الّذين أراهم ملازميك لَكان كفي بهم، وقد رأيتُ قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم ظهر الكوفة، وفيه من الناس ما لم ترَ عيناي في صعيدٍ واحدٍ جمعاً أكثر منه، فسألتُ عنهم، فقيل:

اجتمعوا ليعرضوا، ثمّ يُسرّحون إلي الحسين، فأنشدِك الله إن قدرت علي ألّا تقدم عليهم شبراً إلّا فعلت! فإن أردتَ أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتّي تري من رأيك ويستبين لك ما أنت صانع، فسِرْ حتّي أُنزلك «مناع»، جبلنا الّذي يدعي «أجأ»، امتنعنا واللهِ به من ملوك غسّان وحمير، ومن النعمان بن المنذر، ومن الأسود والأحمر، والله إن دخل علينا ذلّ قطّ،فأسير معك حتّي أُنزلك القرية، ثمّ نبعث إلي الرجال ممّن بأجأ وسلمي من طيء، فو الله لا يأتي عليك عشرة أيّامٍ حتّي تأتيك طيء رجالاً وركباناً، ثمّ أقمْ فينا ما بدا لك، فإن هاجك هيجٌ فأنا زعيمٌ لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بأسيافهم، والله لا يوصل إليك أبداً ومنهم عينٌ تطرف.

فقال له: جزاك الله وقومك خيراً! إنّه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قولٌ لسنا نقدر معه علي الانصراف، ولا ندري علي مَ تنصرف بنا وبهم الأُمور في عاقبة! ((1)) فإن يدفع الله عنّا فقديماً ما أنعم علينا وكفي، وإن يكن ما لابدّ منه ففوزٌ وشهادةٌ إن شاء الله ((2)).

1- أُنظر: تاريخ الطبري: 5 / 406، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 421 _ 422، تجارب الأُمم لمسكويه: 2 / 62، الكامل لابن الأثير: 3 / 281 _ 282، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 174، نفَس المهموم للقمّي: 194.

2- مثير الأحزان لابن نما: 19، بحار الأنوار: 44 / 369، العوالم للبحراني: 17 / 219.

وكان هذا الكلام بعد أن أسـر الحرُّ وجيشُه سيّدَ الشهداء (عليه السلام) ، فلم يكن ثمّة مناص، بيد أنّ كلام الطرمّاح يؤكّد ما قاله ابن الحنفيّة في جميع الجهات من حيث العنصر البشريّ والعنصر الجغرافيّ والولاء والثبات وغيرها..

ويؤكّد أيضاً أنّ المطلوب إنّما هو المكان الآمِن الّذي يمكن أن يدفع عن الإمام الحسين (عليه السلام) وأهلهِ القتل؛ أقم فينا ما بدا لك، فإن هاجك هيجٌ فأنا زعيمٌ لك ((1)).إنصراف سيّد الشهداء عن اليمن!

إقترح المولي محمّد ابن الحنفيّة علي سيّد الشهداء (عليه السلام) _ عند اعتراضه في المدينة المنوّرة قبل خروجه إلي مكّة _ أن يقصد الإمامُ اليمن إن نبَتْ به مكّة، وكذلك فعل عبد الله بن عبّاس حين اعترض الإمامَ (عليه السلام) قبل أن يخرج من مكّة متوجّهاً إلي العراق، وكان التعليل دائماً أنّ للإمام ولأبيه شيعةً في اليمن، وأنّها أرض عُزلة، وهي أرضٌ طويلةٌ عريضةٌ كثيرة الجبال والوديان مترامية الأطراف وفيها حصونٌ وشِع عاب، فيدعو الناس في الآفاق من هناك وهو في عزلة، ويكتب لهم ويُعلمهم مكانه، ويبثّ دعاته وكتبه، يأته الناس ويأتيه الّذي يحبّ في عافية ((2)).

1- سيأتي مناقشة كلام الطرمّاح بالتفصيل إن شاء الله تعالي.
2- أُنظر: جُمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 3 / 373، الأخبار الطِّوال للدينوري: 243، تاريخ الطبري: 5 / 384، الفتوح لابن أعثم: 5 / 114، مروج الذهب للمسعودي: 3 / 64، تجارب الأُمم لمسكويه: 2 / 56، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 216، المنتظم لابن الجوزي: 5 / 328، تذكرة الخواصّ لسبط ابن الجوزي: 137، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 160، الفصول المهمّة لابن الصبّاغ: 185، نور الأبصار للشبلنجي: 257.

وقد اقترح عليه الطرمّاح الذهاب معه إلي اليمن في ظرفٍ حوصر فيه سيّد الشهداء (عليه السلام) في الصحراء وتألّبت العساكر في الكوفة علي حربه..

قال أبو مِخنَف:..

حدّثني جميل بن مرثد من بني معن، عن الطرمّاح بن عَديّ أنّه دنا من الحسين فقال له: واللهِ إنّي لَأنظر فما أري معك أحداً، ولو لم يقاتلك إلّا هؤلاء الّذين أراهم ملازميك لَكان كفي بهم، وقد رأيتُ قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم ظهر الكوفة، وفيه من الناس ما لم ترَ عيناي في صعيدٍ واحدٍ جمعاً أكثر منه، فسألتُ عنهم، فقيل: اجتمعوا ليعرضوا، ثمّ يُسرّحونإلي الحسين، فأُنشدك الله إن قدرتَ علي ألّا تقدم عليهم شبراً إلّا فعلت! فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتّي تري من رأيك ويستبين لك ما أنت صانع، فسِرْ حتّي أُنزلك مناع جبلنا الذي يُدعي أجأ، امتنعنا واللهِ به من ملوك غسّان وحمير، ومن النعمان بن المنذر، ومن الأسود والأحمر، والله إن دخل علينا ذلٌّ قطّ، فأسير معك حتّي أُنزلك القرية، ثمّ نبعث إلي الرجال ممّن بأجا وسلمي من طيء، فو الله لا يأتي عليك عشرة أيّام

حتّي تأتيك طيء رجالاً وركباناً، ثمّ أَقِمْ فينا ما بدا لك، فإن هاجك هيجٌ فأنا زعيمٌ لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بأسيافهم، والله لا يوصل إليك أبداً ومنهم عينٌ تطرف.

فقال له: جزاك الله وقومك خيراً! إنّه قـد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قولٌ لسـنا نقـدر معه علي الانصـراف، ولا ندري علي مَ تنصـرف بنا وبهم الأُمور في عاقبة ((1)).

وروي السيّد في (اللهوف) عن الصادق (عليه السلام) ، أنّ ابن الحنفيّة عاد في مكّة ليقترح علي سيّد الشهداء اليمن، قال في حديث:

سار محمّـد ابن الحنفيّـة إلي الحسـين؟ (عليه السـلام) في الليلـة الّتي أراد الخروج صبيحتها عن مكّة، فقال: يا أخي، إنّ أهل الكوفة مَن قد عرفتَ غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفتُ أن يكونحالك كحال مَن مضي، فإن رأيتَ أن تُقيم، فإنّك أعزّ مَن في الحرم وأمنعه.

فقال: يا أخي، قد خفتُ أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم، فأكون الّذي يُستباح به حرمة هذا البيت.

فقال له ابن الحنفيّة: فإن خفتَ ذلك فصِرْ إلي اليمن أو بعض نواحي البرّ؛ فإنّك أمنع الناس به، ولا يقدر عليك ((2)).

1- أُنظر: تاريخ الطبري: 5 / 406، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 421، الكامل لابن الأثير: 3 / 281، نفَس المهموم للقمّي: 194.
2- اللهوف لابن طاووس: 63، بحار الأنوار: 44 / 364، العوالم للبحراني: 17 / 214، نفَس المهموم للقمّي: 164.

*****

يمكن أن نلاحِظ هنا عـدّة ملاحظات، رغم أنّ البحث يتعلّق بخروجه (عليه السـلام) من مكّـة أكثر، ولكن سنشـير إليه هنا ونتناوله هناك إن شاء الله تعالي..

الملاحظة الأُولي: حضور الاقتراح في مراحل المسير

كان اقتراح اليمن حاضـراً في جميع المحطّات المهمّـة الّتي مرّ بها سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) أثناء مسـيره من المدينـة إلي العراق، ففي المدينة اقترح ابنُ الحنفيّة، وفي مكّة اقترح ابن عبّاس وابن الحنفيّة، وعلي مشارف كربلاء اقترح الطرمّاح.

الملاحظة الثانية: اتّفاق التعليل

اتّفقت أقوال الثلاثـة الّـذين اقترحوا اليمن علي سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) عليتوفّر المتطلّبات في أرض اليمن من حيث الجغرافيّا والعُدّة والعدد والقوّة والولاء، إذ إنّهم جميعاً أكّدوا أنّ أهل اليمن شـيعةٌ لأمير المؤمنين (عليه السـلام) ، وفي بعض النصوص شـيعةٌ للحسين وأبيه (عليهما السلام) ، وأنّها بلادٌ عريضةٌ طويلة، فيها الحصون والشعاب والرجال الأشدّاء، والتضاريس الّتي تزيد في منعتها وصمودها.

الملاحظة الثالثة: علم الإمام (عليه السلام) باليمن

إنّ ما ذكره ابن عبّاس وابن الحنفيّة ليس بالأمر الخفيّ علي سيّد الشهداء (عليه السلام) _ بغضّ النظر عن علم الإمامة _، فقد عاشها سيّد الشهداء (عليه السلام) كما عاشوها وعرفها أفضل ممّا عرفوها، وهي ماثلةٌ بين عينيه، وهو محاصرٌ مهدَّدٌ بالقتل في كلّ ساعةٍ وفي كلّ آن، فليس في اقتراحهم شيءٌ جديدٌ غائبٌ عن سيّد الشهداء (عليه السلام) بحيث يكون تذكيرهم بها إيجاداً لحلٍّ وموضع أمانٍ ربّما غفل عنه سيّد الشهداء (عليه السلام) ، إذ إنّه أعرف منهم دون أدني شكٍّ بناسها وخصوصيّاتها وجغرافيّتها ومؤهّلاتها وما تتوفّر عليه من عُدّة وعديد.

الملاحظة الرابعة: جواب الإمام (عليه السلام)

في جميع موارد الاقتراح، سواءً في المدينة أو في مكّة أو في الطريق، لم يُسمَع جوابٌ بالإيجاب من الإمام (عليه السلام) ولم يعلّق الإمام علي ما ذكروه في تعليل اقتراحهم، ولم يقرّهم علي ما ذكروه بالإثبات أو النفي، فهو لميؤكّد لهم ولاء اليمنيّيين ولم ينفه، وكذلك فعل في الموارد الأُخري من التعليل.

الملاحظة الخامسة: لو كان اليمن جاهزاً لَأعلن

أقام سيّد الشهداء (عليه السلام) في مكّة أربعة أشهرٍ وزيادة، وكانت المدّة كافيةً لبلوغ خبر مضايقته في المدينة وإزعاجه وملاحقته وإخراجه إلي الكوفة، فاجتمع أهل الكوفة وأرسلوا الرسل والكتب يدعونه ليتوجّه إليهم فيمنعونه ويدفعون عنه.

وقد شاع خبر إقامته وأهله في مكّة وذاع، وكانت الفترة كافيةً جدّاً لبلوغ الخبر إلي اليمن لإبداء أهلها استعدادهم للقيام بالواجب تجاه ودائع النبوّة.

فلمّا لم يرد عنهم أيُّ خبرٍ ولا كتابٍ ولا رسول، ولم تبدُ منهم أيّة بادرةٍ تُذكَر في التاريخ المطبوع، يُعلَم أنّ القوم كانوا في شُغلٍ عن إمامهم!

الملاحظة السادسة: اتّصال اليمن بالكوفة

كبري القبائل الّتي كانت تقطن الكوفة يومها كانت منحدرةً من اليمن، ولها امتداداتها في البلدين، من قبيل مذحج وهمدان وغيرهما، وهي علي اتّصالٍ مستمرٍّ وتماسّ دائمٍ بحكم الوشائج القبليّة والأُسريّة والعشائريّة، والعلاقات الاقتصاديّة وغيرها، فمن الطبيعيّ جدّاً أن يكونبينهم ثمّة تواصلٌ لا ينقطع، وهذا يعني أنّ الأخبار إن لم تصلهم عن طريق مكّة ـ علي فرض ذلك ـ فإنّها ستصلهم عن طريق الكوفة، ويبدو أنّ في الوقت سعةً لذلك.

ومن جهةٍ أُخري، فإنّ القبائل في الكوفة هي امتداداتٌ لقبائل اليمن، وبالتالي ستكون الكوفة عبارةً عن مختبرٍ يحكي الوضع النفسيّ والعقائديّ والولائيّ والاستعدادات الّتي يمكن أن تؤثّر في اتّخاذ الموقف، فمذحج هي مذحج في البلدين، ورجالها هم أنفسهم، وكذا بقيّة القبائل الأُخري، فإذا خذلت مذحج في الكوفة فلا يبعد أن تخذل في اليمن، نقول:: لا يبعد، ولا نحكم عليها من خلال هذا التقريب.

ص: 216

الملاحظة السابعة: لم يستنصرهم سيّد الشهداء (عليه السلام)

إنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) لم يستنصر أهل اليمن، ولم يشكُ إليهم، ولم يدعُهم للذبّ عنه، كما لم يفعل ذلك مع أهل المدينة ولا أهل مكّة، ولا أهل الكوفة، وإنّما أهل الكوفة هم ابتدؤوه ودعوه للقدوم عليهم، ولم يُرغِم أحداً في شرق الأرض وغربها علي القيام بواجبه تجاهه، وهو إمامهم ووديعة ربّهم ونبيّهم، بل حتّي مَن لحق به، فإنّه أذن لهم المرّة تلو الأُخري، فتفرّق عنه الكثير وثبت معه القليل.

وغاية ما فعله سيّد الشهداء (عليه السلام) أنّه امتنع عن البيعة، فطلبوه للقتل علي رؤوس الأشهاد، فخرج من المدينة خائفاً يترقّب علي علمٍ من الناس،ودخل مكّة علي علمٍ من الناس، وقد عرفوا التهديد المُحدِق بالإمام (عليه السلام) ، وطار الخبر في الآفاق فبلغ الكوفة والبصرة، ويلزم أن يكون قد بلغ اليمن، وبهذا تكون الحجّة قد قامت عليهم، وبالرغم من ذلك لم يُعلنوا نصرهم واستعدادهم للذبّ عن ابن رسول الله وحبيبه.

الملاحظة الثامنة: دعوة الطرمّاح

سجّل الطبريّ دعوةً لسيّد الشهداء (عليه السلام) أن يتوجّه معه إلي اليمن، وضمن له نصرة أهلها عموماً ونصرة طيّ قبيلته خصوصاً.

وكانت دعوته غير ذات نفعٍ ولا جدوي، لعدّة أسباب:

السبب الأوّل: دعوة رجلٍ واحد

ثمانية عشر ألفاً علي الأقلّ هم الّذين بايعوا وكاتبوا سيّد الشهداء (عليه السلام)

في الكوفة، ولم يثقْ بهم سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وأرسل إليهم أخاه وسفيره المولي الغريب مسلم بن عقيل (عليهما السلام) ليستخبر نيّاتِهم، ويري إن كانوا كما أتت به كتبُهم ورسلُهم، فيكتب بذلك للإمام (عليه السلام) ، والطرمّاح شخصٌ واحدٌ وعد الإمامَ (عليه السلام) وعداً ليس مدعوماً من أحد، فالرسل والكتب القادمة من الكوفة كانت تحكي ما يعلنه المرسلون والمكاتبون من مواقف، ثمّ لم يعتمدها الإمام (عليه السلام) ، فكيف يعتمد قول الطرمّاح وهو لم يخوَّل من أحدٍ قطّ؟!

وكيف يُتولّي عن ثمانية عشر مبايعٍاً لوعد رجلٍ واحدٍ لا يختلفعنهم في مستوي المصداقيّة؟

السبب الثاني: وعدٌ مكذوب!

سمعنا _ قبل قليلٍ _ أنّ مجريات الأحداث تفيد بلوغ خبر سيّد الشهداء (عليه السلام) وركبه إلي أهل اليمن، لقربها من مكّة وتوافر الحجّاج واستمرار حركة التجّار والقوافل وانتشار خبر الإمام (عليه السلام) في مكّة والمدينة وغيرها من العوامل، ولم تبدر منهم بادرةٌ تفيد أنّهم علي نصرة سيّد الشهداء (عليه السلام) والدفاع عنه، ولم يرسلوا رسولاً أو يكتبوا كتاباً أو ينبري أحدٌ منهم ليعد ما وعد به الطرمّاح..

فهو يعد علي قومٍ قد تكشّفت مواقفهم من قبل، فهل يُقام لوعده وزنً ويُبني عليي كلامه بناء؟!

السبب الثالث: الدعوة بعد الأسر

كانت الدعوة بعد أن أسر جيشُ الحرّ الإمامَ (عليه السلام) ومَن معه، ويشهد

لذلك قوله:

ولو لم يقاتلك إلّا هؤلاء الّـذين أراهم ملازميك لَكان كفي بهم، وقد رأيتُ قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم ظهر الكوفة، وفيه من الناس ما لم ترَ عيناي في صعيدٍ واحدٍ جمعاً أكثر منه، فسألتُ عنهم، فقيل: اجتمعوا ليعرضوا، ثمّ يُسرّحونإلي الحسين ((1)).

وكان الحرّ قد أُمر بملازمة سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وأن لا يفارقه حتّي يقدم به الكوفة، فلمّا امتنع عليه سيّد الشهداء (عليه السلام) وترادّا الكلام قال له الحرّ:

لم أُؤمر بقتالك، وإنّما أُمرتُ أن أقدم بك الكوفة، فإذا أبيتَ فخُـذْ طريقاً لا يُـدخِلك الكوفةَ ولا يردّك إلي المدينة، يكون بيني وبينك نصفاً، حتّي أكتب إلي الأمير عُبيد الله بن زياد ((2)).

وهذا يعني أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) قد أُحيط بجيشٍ كان قوامه يزيد علي ألف فارس، وحُوصر محاصرةً تامّة، منعوه بعدها من الرجوع إلي

1- أُنظر: تاريخ الطبري: 5 / 406، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 421، الكامل لابن الأثير: 3 / 281، نفَس المهموم للقمّي: 194.
2- أُنظر: جُمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 3 / 423، الإرشاد للمفيد: 2 / 82، روضة الواعظين للفتّال: 154، بحار الأنوار: 44 / 378، العوالم للبحراني: 17 / 228، نفَس المهموم للقمّي: 190، اللهوف لابن طاووس: 78، البدء والتاريخ للبلخي: 2 / 241.

بلده أو المضيّ في طريقه والانصراف عنهم ((1)).

فما تعني دعوة الطرمّاح في مثل هـذا الجوّ الملتهب الّـذي وصـفه نفسه لسـيّد الشـهداء (عليه السـلام) من الاسـتعدادات المتظافرة لحرب ريحانة النبيّ وركب الإمام (عليه السلام) في أسر جيش الحرّ الّذي أبي عليه أن يتحرّك أيّ حركةٍ تؤدّي إلي خروج الركب من براثن ابن زياد الّذي كان يترنّم بقوله::

الآن وقد علقت مخالبنا به

يرجو النجاةَ، ولات حين مناصِ

إلّا أن يقاتل سيّد الشهداءء (عليه السلام) ومَن معه عسكر الحرّ، ليتوجّه بعدالقضاء عليهم مع الطرمّاح، وأهل البيت لا يبدؤون بقتال!

أضف إلي أنّها دعوةٌ غير مضمونةٍ كما سمعنا!

السبب الرابع: كتب أهل الكوفة ووعودهم

لقد وصـلَت إلي الإمام (عليه السـلام) كتب الكوفيّين ورسـلهم، فهم قد ألزموا أنفسـهم بعهدٍ وبيعةٍ مع الإمام (عليه السلام) ، وإن كانوا قد خذلوا ونكثوا بيعتهم، ولكن يمكن الاحتجاج عليهم بها، فقد احتجّ الإمام (عليه السلام) علي الحرّ وجيشه حين خطب فيهم فقال:

«أيّها الناس! معذرةً إلي الله، ثمّ إليكم، إنّي لم آتِكم حتّي أتتني كتبكم، وقدمَت علَيّ رسلُكم، فإن أعطيتموني ما أطمئنّ

1- أُنظر: جُمـل من أنساب الأشـراف للبلاذري: 3 / 423، الإرشاد للمفيـد: 2 / 82، روضـة الواعظين للفتّال: 154، بحار الأنوار: 44 / 378، العوالم للبحراني: 17 / 228، نفَس المهموم للقمّي: 190، اللهوف لابن طاووس: 78، البدء والتاريخ للبلخي: 2 / 241.

إليه من عهودكم ومواثيقكم دخلنا معكم مصركم، وإن تكن الأخري انصرفتُ من حيث جئت» ((1)).

وكلام آخر يشبه هذا حسب ما ورد في المصادر علي اختلاف ألفاظها.

كما احتجّ علي القوم في كربلاء بالكتب والدعوات التي أرسلوها، فقال:

«يا شبث بن ربعيّ، يا حجّار بن أبجر، يا قيس بن الأشعث، يا يزيد بن الحارث! ألم تكتبوا إليّ أن قد أينعت الثمار، واخضرّالجناب، وطمّت الجمام، وإنّما تقدم علي جند لك مجنَّد؟»».

قالوا: لم نفعل.

ثمّ قال (عليه السلام) : «أيّها الناس! إذ كرهتموني، فدعوني أنصرف إلي

1- أُنظر: جُمل أنساب الأشراف للبلاذري: 3 / 380، الأخبار الطِّوال للدينوري: 247، بُغية الطلب لابن العديم: 6 / 2622، تاريخ الطبري: 5 / 400، الفتوح لابن أعثم: 5 / 134، الإرشاد للمفيد: 2 / 78، روضة الواعظين للفتّال: 153، بحار الأنوار: 44 / 375، العوالم للبحراني: 17 / 225، نفَس المهموم للقمّي: 186، إعلام الوري للطبرسي: 232، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: 1 / 229، الردّ علي المتعصّب العنيد لابن الجوزي: 37، المنتظم لابن الجوزي: 5 / 329، الكامل لابن الأثير: 3 / 279، مطالب السؤول لابن طلحة: 75، كشف الغُمّة للأربلي: 2 / 46، الفصول المهمّة لابن الصبّاغ: 190، نور الأبصار للشبلنجي: 260، اللهوف لابن طاووس: 77، نهاية الأرَب للنويري: 20 / 416، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 172، جواهر المطالب للباعوني: 2 / 279.

مأمني» ([(1)](#)).

وقال في لفظٍ آخَر أو خطبةٍ أُخري:

«يا أهل الكوفة! كتبتُم إليّ في القدوم، ثمّ صنعتم ما أري» ([(2)](#)).

فكان جواب القوم أنّه غير تاركيه حتّي يذوق الموت عطشاً..

بيد أنّ أهل اليمن لم يعِدوا الإمام (عليه السلام) بوعد، ولم يكتبوا له كتاباً، ولم يُبايعوه علي نصرته بحيث يمكن إلزامهم بما ألزموا به أنفسهم وإقامة الحجّة عليهم من هذا الطريق.. فما هو الضمان لو نكل القوم وخذلوا واستنكروا فعلة الطرمّاح وتنكّروا له؟!

خلاصة القول في موقف أهل اليمن

حسب ما قرأنا في النصوص التاريخيّة، لم نجد نصّاً يفيد أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) قد كتب إلي أهل اليمن، وهو العالم بهم وبولائهم وبلادهم، كما أنّ أهل اليمن لم يكتبوا للإمام (عليه السلام) ولم يرسلوا له رسولاً، ولا يبدو أيّ تحرّكٍ أو حماسةٍ أو تأثّرٍ بما جري علي سيّد الشهداء (عليه السلام) وآل

1- أُنظر: جُمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 3 / 396، تاريخ الطبري: 5 / 424، نفَس المهموم للقمّي: 240، الإرشاد للمفيد: 2 / 100، بحار الأنوار: 45 / 6، العوالم للبحراني: 17 / 250، إعلام الوري للطبرسي: 240، المنتظم لابن الجوزي: 5 / 339، الكامل لابن الأثير: 3 / 287، نهاية الأرب للنويري: 20 / 439، سيَر أعلام النبلاء للذهبي: 3 / 202، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 179، جواهر المطالب للباعوني: 2 / 286.

2- جُمل من أنساب الأشراف للبلاذري: 3 / 425.

البيت الّذين معه، رغم شيوع خبر الإمام (عليه السلام) في المدينة ومكّة، وقرب اليمن من مكّة، واستمرار حركة القوافل التجاريّة وقوافل الحجّ في تلك الأيّام، وأقلّ ما يقال فيه: إنّ الصمت المطلق كان مُطبِقاً علي الأجواء في اليمن، ولو كان ثمّة تفاعلٌ وانفعالٌ بمجريات الأحداث لَبان.

أضف إلي ذلك العمومات الواردة في المتون التاريخيّة الّتي تفيد أنّ أهل الأمصار والبلدان قد بايعوا ليزيد منذ زمن معاوية، وجدّدوا البيعة له بعد هلاك أبيه وتسلّقه أعواد المنبر.

الخيار الثالث: اللحاق بالجبال والرمال والترحّل

إذا نبَتْ به الأرضُ الّتي حرّمها الله، ونبَتْ به الأرضُ المنيعة بناسها وتضاريسها وسعتها، فلا حرمة الأرض تمنعه، ولا قوّة الرجال الأوفياء نفعَته، فماذا يصنع؟

قال ابن الحنفيّة: فإن اطمأنّت بك أرض اليمن، وإلّا لحقتَ بالرمال وشعوب الجبال، وصرتَ من بلدٍ إلي بلد...

وهنا لفتتان:

اللفتة الأُولي: البحث عن الاطمئنان

المفروض في كلام المولي ابن الحنفيّة أن ينحصر في البحث عن موطنٍ يحمي أخاه سيّد الشهداء (عليه السلام) فيطمئنّ فيه، ولذا قال له: فإن اطمأنّت بك أرض اليمن، فهو لا يبحث عن أرضٍ منيعةٍ ورجالٍ أقوياءٍ أوفياءٍ أشدّاءٍ إلّا ليدفع القتل عن سيّد الشهداء (عليه السلام) ، ليس إلّا.وفي عباراته عند كلّ احتمالٍ يريد أن يفرض ما بعده إشعارٌ يكاد

يكون صريحاً في بيان وجهة خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة المنوّرة، فهو لا يريد أكثر من مكانٍ يؤويه ويحميه، ويُبعِد عنه أيدي القرود والذئاب المتوحّشة الكاسرة المتعطّشة للدماء الزكيّة.

اللفتة الثانية: التشرّد

علي فرض أنّ اليمن أيضاً عجزت عن تحقيق الغرض والقيام بالواجب مع سيّد الشهداء (عليه السلام) وبضعة رسول ربّ السماء، فالخيار الثالث هو أن يلحق بالرمال وشعوب الجبال، ويصير من بلد إلي بلد!!

يا لله!

كم كان الحصار مطبقاً علي آل الرسول (صلي الله عليه و آله) حتّي دعا المولي ابن الحنفيّة إلي التفكير في هذا الخيار؟!

وكم كانت الظروف قاسيةً بحيث شجّعت المولي ابن الحنفيّة علي النطق بهذا الكلام بين يدي مليك الدنيا؟!

إنّ هذا الكلام يعني أنّ مخالب الأُمويّين قد علُقَت تماماً بريحانة النبيّ وغصن إبراهيم وفرع أمير المؤمنين (عليهم السلام) ..

يعني أنّ حلقة الحصار قد انطبقت تماماً، وليس فيها مجال مغرزٍ ولا سمّ خياط، فهو مُهدَّدٌ في طول الأرض وعرضها، لا يمكن أن يأوي إلي مصر من الأمصار، ولا يسكن في عمران..

إمّا أن يلحق بالرمال، يعني الصحاري والقفار، يعني سواحل البحاروالشطآن، يعني التوغّل في مجاهيل الأرض..

أو يلحق بشعوب الجبال، يغيب في الوديان، ويختبئ في الكهوف،

يعيش بين الحفر والصخور..

أو يتنقّل مشرَّداً بين البلدان، لا يستقرّ به المقام في بلدٍ حتّي يرحل إلي غيره قبل أن يعرفه الناس، يعيش مليك الدنيا وزَين السماوات والأرضين مختفياً مجهولاً لا يعرفه أحد، يدخل البلد ليخرج منه قبل أن يتمّ تشخيصه وتحديد موقعه والانقضاض عليه..

لا ندري والله كيف يمكن أن تُفهَم هذه العبارة ويُدرَك مغزاها ويُسبَر غورها ويُعرَف معناها.. ولا ندري كيف يمكن أن يتخيّل الإنسان الوضع الّذي كان يعيشه المولي ابن الحنفيّة الّذي اضطرّه إلي طرح هذا الخيار، وهو يعرف أخاه سيّد الشهداء (عليه السلام) وقد سمع من أبيه فيه الكثير!!

يبدو أنّ الأفضل أن تُترَك هذه الفقرة بكلّ تشعّباتها من دون إمعان النظر وتدقيق التأمّل فيها؛ فإنّ من حقّ التأمّل فيها أن يموت المؤمن ألف ألف مرّةٍ كمَداً علي الإمام المظلوم المشرَّد المطارَد الغريب (عليه السلام) ، ولا يفي والله إذن أبداً..

وإلّا لحقت بالرمال!! وشعوب الجبال!! وصرت من بلدٍ إلي بلد!!

بيد أنّها تحكي مدي الحرج الّذي يضايق ابن الحنفيّة واضطراره وسلوكه أيّ مسلكٍ مهما كان ليخرج من حيرته، ويجد مخرجاً ينقذ به أخاه من براثن الأعداء ومخالب أولاد البغاء، فلا يُقتَل حبيب ربّالسماء.

أمد التشرّد ومآله

لقد جعل المولي ابن الحنفيّة أمداً لهذا التشرّد والترحّل والتغرّب عن

الأوطان والتخفّي عن عيون السلطان.. فقال:

لتنظر ما يؤول إليه أمر الناس، ويحكم بينك وبين القوم الفاسقين..

وسواءً كان هـذا الأمـد والنهايـة مفترضـةً في الخيارات جميعاً أو في الخيار الأخير، فهو يريـد له أن يبقي حيّاً بعيداً عن القتل، حتّي ينظر ما يؤول إليه أمر الناس.. والظاهر من عبارته هو البقاء في الخيار الأخير، إذ افترض في الخيارين الأوّلين أنّ مكّة واليمن قد نبتا به.

وكيف كان، فإنّ الإمام قـد نظر كما نظر ابن الحنفيّـة ونظر الناس جميعاً ما آل إليه أمر الناس، فهـذه المدينـة قـد أخرجَتْه، ومكّـة قد نبَتْ به، واليمن لم تكن له موطناً آمناً، وقـد أخـذ معاويـة البيعـة لنغله قبل أن يهلك، وجدّد الناس البيعةَ لقردهم الجديد طواعيةً ورغبةً فيه وفي دنياه القذرة، وذلّت له الرقاب وركعت له الرؤوس واستسـلمت له القبائل والأمصار.. فماذا ينتظر؟! لقد حدث كلّ هذا والإمام (عليه السلام) بين ظهرانيهم.

يبدو أنّ مؤدّي كلام ابن الحنفيّة (رضوان الله عليه) أن يبقي سيّد الشهداء (عليه السلام) وريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) وبضعته مشردّاً هو وأهل بيته، حتّي يأتيه الموت في أيّ وادٍ سلك، فيقضي عليه ليرحل إلي ربّه، ليحكم بينه وبين القومالفاسقين!

جواب سيّد الشهداء (عليه السلام)

اشارة

فقال له الحسين: «يا أخي، واللهِ لو لم يكن في الدنيا ملجأٌ ولا مأوي لما بايعتُ واللهِ يزيد بن معاوية أبداً، وقد قال (صلي الله عليه و آله) :

اللّهمّ لا تُبارك في يزيد».

تضمّن جواب سيّد الشهداء (عليه السلام) علي هذه الفقرة عدّة إيعازات:

الإيعاز الأوّل: الخطاب «يا أخي»

تبـدو حرارة الحرقة الّتي تنهش ألسـنة نيرانها أعماق ابن الحنفيّة علي كلماته، وتبيّن الحيرة المتلكّأة في ثنايا الخيارات والاقتراحات الّتي تقدّم بهـا لأخيه.. فهو يبحث عن أيّ سبيلٍ يمكن أن يخرج به من قبضـة الموت المُحدِقـة بأهل بيته، ويريـد أن يفعل أيّ عملٍ يمكن أن يعينه في اسـتلال المخالب الّتي غرزت في أعناق إإخوته.. وربما دفعه إلي ذلك علمه بقدرة الإمام (عليه السلام) المعجزة، لعلّه يري الرخاء والسرور في بقاء خامس أصحاب الكساء علي قيـد الحياة، لا اعتراضاً علي القدَر ولا تمرّداً علي المقدَّر، تماماً كما كانت تتوسّل أُمّ سـلَمة إلي سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) وتقول له: لا تفجعني بنفسك يا بُنيّ.. وهي قـد سـمعَت إخبار النبي (صـلي الله عليه و آله) وكانت لا تزال تحتفظ بالتربـة الّتي ناولهـا إيّاهـا، وإنّما هو قلب الأُمّ الحنون الرؤوم..فكانت كلمات محمّـد ابن الحنفيّـة تنمّ عن خوفه علي الإمام (عليه السـلام) وتوقّيه عليه، بدافع الحبّ والغيرة عليه، فأجابه الإمام (عليه السـلام) بلفظٍ يتجاوب مع أحاسـيسه ويلمس قلبه لمسةً حانيةً رقيقةً عطوفةً دافئة، تحرّك فيه استشعار التناغم، وتحسّس ما يجيش في أعماقه من أمواج المستقبل العاتية..

خاطبه الإمام (عليه السلام) بكلمةٍ رقيقةٍ تثير فيه النخوة، وتُقنِعه بأنّ

الإمام (عليه السلام) قد تجاوب مع الجياشات الّتي خفقت في أعماقه، وتستثير فيه العواطف الّتي استقبلها الإمام (عليه السلام) بطيب خاطر.. «يا أخي»!

الإيعاز الثاني: خيارات الإمام (عليه السلام)

أوعز الإمام (عليه السلام) إلي أخيه في عبارةٍ موجَزةٍ أنّ الخيارات المطروحة بين يدي الإمام (عليه السلام) في المدي المنظور للبشر العاديّ ثلاثٌ لا رابع لها، فهي مساراتٌ لا يمكن العدول عنها بتاتاً، وهي الّتي أشار إليها ابن الحنفيّة نفسه في كلامه تلويحاً أو تصريحاً..

المسار الأوّل: التشرّد

لقد أجاب الإمام (عليه السلام) أخاه بعبارةٍ واضحةٍ من خلال الفرض الّذي فرضه له، وهو: «لو لم يكن في الدنيا ملجأٌ ولا مأوي..»، فأفاده أنّ كلّ الاقتراحات الّتي تقدّمَ به سوف لن تنفع، فلا حرمة مكّةٍ تحفظ دمه، ولا اليمن تحمي حرمته، ولا مطاوي الرمال وشعوب الجبال تُكنّه، ولاالبلدان والأمصار تقلّه.. وسوف لن ينفع ذلك في الدفاع عنه ودفع القتل عن أهله وإخوته وأنصاره المعدودين؛ لأنّهم يريدون قتله علي كلّ حال!

فلو أنّ أهل الأرض كلّهم جميعاً خذلوه، كما فعلوا بالفعل، فإنّه سوف لن يستسلم ولن يُعطي الدنيّة ولن يقرّ قرار العبيد، وحاشاه من ذلك وهو أبيّ الضيم ومظهر العزّ الإلهيّ الّذي لا يُضام.

فالتشرّد لا يخيف الإمام (عليه السلام) ولا يضعف عزائم مَن معه، ولا يدعوه

للبيعـة واختيار الحياة مع الظالمين.. ولا نهاية للتشـرّد إلّا أن يلاحقه الموت فيقضـي عليه كما يقضـي علي الناس أجمعين، وهذا ليس ممّا يليق بسيّد الخلق، وقد نفاه عن نفسه أشدّ النفي في أكثر من موقفٍ وموطن، كما فعل آباؤه المعصومون (عليهم السلام) .

ويبدو من كلام الإمام (عليه السـلام) أنّه لـم يفرض هذا الفرض، أي: أنّ كلامه (عليه السلام) لا يفيد أن يبقي مشرّداً حتّي تأتيه المنيّة، وإنّما يفيـد بوضوح أنّ الأرض لو لـم يكن فيها ملجأٌ ولا مأوي، فإنّه لا يبايع، وإن لـم يبايع سـيُقتَل، وقـد اختار الجنان وجوار ربّ العالمين مأويً وملجأ..

لو لـم يكن في الـدنيا ملجأ ولا مأوي، فلم يكن ما يـدفع عنّي.. فيبقي الخيار بين البيعة والقتل؛ لعدم وجود المأوي والحرز الّذي يمنع القتل عنه، فإنّه لا يبايع، وبالتالي فإنّه سيختار القتل الكريم علي الموت أو الحياة مع اللئام.المسار الثاني: البيعة

لم يصـرّح ابن الحنفيّـة (رضوان الله عليه) في ثنايا كلامه بـدعوة الإمام (عليه السـلام) للبيعـة، ولكن يمكن أن يُشَمّ من جواب الإمام (عليه السـلام) ــ ولو بالتأمّـل العميق ــ أنّه كـان يـدعوه ولو ببواطن الكلمات البعيـدة إلي ذلك، إذ ما معني أن يردّ عليه الإمام (عليه السـلام) بجعل فقدان الملجأ والمأوي في الدنيا بإزاء نفي البيعة المؤبَّد؟!

من هنا ربّما يُفهَم من كلام ابن الحنفيّة أنّه يريد أن يقول: إن لـم تبايع يا أخي، فإمّا أن تبقي مشرَّداً لا ملجأ ولا مأوي لك في هذه الدنيا، أو أن

تُقتَل، أو أن تُبايع، فنفي الإمام (عليه السلام) البيعة، وافترض فقدان الملجأ والمأوي، فلم يبق إلّا أن يُقتَل ويختار السلّة ومصارع الكرام..

كما قد يُفهَم من كلام ابن الحنفيّة «الانتظار» ليري ما يؤول إليه أمر الناس، ما معناه: إن آل أمر الناس إلي الإجماع علي بيعة القرد المجدور، فبايع وادخل فيما دخل فيه الناس، ولا حُجّة عليك بعد أن خذلك الناس ورضوا أن يكونوا عبيداً للقرود! فردّ الإمام (عليه السلام) عليه ردّاً قاطعاً جازماً مؤبّداً مؤكّداً بالقسَم.

* * * * ***

ويبدو من قسَم الإمام (عليه السلام) ونفيه القاطع المؤبَّد أنّ ثمّة خصوصيّة ليزيد الّذي ذكره الإمام (عليه السلام) باسمه واسم أبيه، للتأكيد علي شخصٍ بعينه وذاتٍ قذرةٍ معيّنة، وذكر دليلاً علي امتناعه من البيعة لهذا القرد بالذات، وهوقول النبي (صلي الله عليه و آله) :: «اللّهمّ لا تُبارك في يزيد»، فهو يزيد شؤمٍ قد انتفت عنه البركة ألبتّة بدعوة النبيّ (صلي الله عليه و آله) ..

وقد أكّد سيّد الشهداء (عليه السلام) ذلك أيضاً _ كما في نصّ ابن أعثم نفسه _ لوالي المدينة حينما طلبه للبيعة، فقال: «مثلي لا يبايع مثله»..

وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ أنّ شخص يزيد مرفوضٌ عند سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وأنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) مكلَّفٌ بتكليفٍ خاصٍّ في الامتناع عن بيعة هذا الوغد خاصّة، ولذلك شواهد وقرائن كثيرة، وليس هذا موضع إثباته.

فالبيعة _ إذاً _ لا يمكن احتمالها ولا جعلها بالحسبان، وهي من

المحالات المؤبَّدة الّتي أقسم عليها أصدق الخلق.

المسار الثالث: ملاحقة الموت

لو لم يكن في الـدنيا ملجأٌ ولا مأوي.. وقـد أقسم الإمام (عليه السـلام) أن لا يبايع يزيـد بن معاويـة أبداً، وأقسم يزيد الخمور والفجور بكلّ أوثانه الّتي يعبدها أن ينتقم لشـيوخه الكفَرة الفجَرة، وأن يركز الإمام (عليه السلام) بين طاعة اللئام أو القتل، فلا محيص له من اختيار إحدي الطريقتين، ويأبي الله ورسوله (صـلي الله عليه و آله) وحُجورٌ طابت وطهرت للإمام (عليه السلام) أن يُؤثر طاعة اللئام علي مصارع الكرام.. فقد انحصر الأمر، وتحقّق ما يريده يزيد وشيوخه!

إنّ البغيّ الماجن يزيد يعلم أنّ الإمام (عليه السـلام) لا يناول، وقد اسـتعجل قتلَالإمام (عليه السـلام) في المدينة أو في مكّة أو في أيّ بقعةٍ من بقاع الأرض، ولو كان متعلّقاً بأسـتار الكعبة، فصار الإمام (عليه السـلام) يختار أرض المصرع والموطن الّذي اختاره الله له منذ أن خلق الأرض، فعجّل الخروج من المدينة ومكّة لئلّا تُستباح به حرمة الحرمين.

الفقرة الرابعة: بكاؤهما معاً

قال: فقطع عليه محمّد ابن الحنفيّة الكلام وبكي، فبكي معه الحسين ساعة..

تبيّن من كلام الإمام (عليه السلام) وجوابه أن لا ملجأ ولا مأوي في الدنيا لأخيه، وأنّ القوم سوف لن يتركوه حتّي يقتلوه، وأن لا ناصر له ولا

معين، فقطع عليه الكلام وبكي..

بكي لغربته؟ بكي لوحدته؟ بكي لتشرّده؟ بكي لأنّ سيّد الكائنات الّذي يعرفه ويعلم أنّه الإمام المفروض الطاعة من الله لا يأويه وطنٌ ولا تقلّه أرضٌ ولا تظلّه سماء؟ بكي لأنّه علم أنّ القوم لن يتركوا أخاه حتّي يقتلوه، فهو مقتولٌ لا محالة وعلي كلّ حال؟

بكي لكلّ هذه الأُمور ولأُمورٍ أُخري كثيرة ربّما لا ندركها أبداً..

وبكي معه سيّد الشهداء الحسين (عليه السلام) !

وأطالا البكاء.. إذ إنّهما بكيا ساعة.. بكيا مدّةً من الزمان ملحوظة، فالساعة هنا بمعني الفترة من الزمان.. بكيا ساعة، ولم يبكيا قليلاً..

الفقرة الخامسة: تتمّة كلام سيّد الشهداء (عليه السلام)

اشارة

ثمّ قال: «جزاك الله يا أخي عنّي خيراً، ولقد نصحتَ وأشرتَ بالصواب، وأنا أرجو أن يكون ـ إن شاء الله ـ رأيك موفّقاً مسدّداً، وإنّي قد عزمتُ علي الخروج إلي مكّة، وقد تهيّأت لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي، وأمرهم أمري ورأيهم رأيي، وأمّا أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة، فتكون لي عيناً عليهم، ولا تخف علَيّ شيئاً من أُمورهم».

أشار الإمام في هذه الفقرة من الحوار إلي ثلاث مجالات:

المجال الأوّل: التعليق علي موقف أخيه

اشارة

بعد أن خاطبه بقوله: «يا أخي» بجميع ما تحمله هذه الكلمة الرقيقة

ص: 232

المؤثّرة من شحنات الحنان والعطف والاستقواء والارتكان، وبكي معه وواساه، قال له: «جزاك الله يا أخي عنّي خيراً، ولقد نصحتَ وأشرت بالصواب، وأنا أرجو أن يكون _ إن شاء الله _ رأيك موفّقاً مسدّداً».

ويُلاحَظ في هذه العبارة أنّها قابلةٌ للتقسيم إلي شقّين:

الشقّ الأوّل: الدعاء والشكر للموقف

كرّر الخطاب بلفظ الأُخوّة في جملةٍ دعائيّةٍ معترضة، وجزّاه خيراً عنه.. أي: إنّك قد أردتَ لي خيراً، وجزاك الله بهذه الإرادة خيراً عنّي، وقد بذلتَ ما بوسعك، فلم تقصِّر في النصيحة والإخلاص وإرادة الخير..وهو عبارة عن التعبير عن الشكر للموقف والتقدير لإبداء النصحية.. ما أعظم الإمام (عليه السلام) وأحفظه للأُخوّة والرحم والتواضع!

وأكّد له أنّه قد نصح وأخلص لأخيه.. ويبدو واضحاً من جوّ الحوار أنّ الأجواء المظلّلة عليه إنّما هي أجواء الأُخوّة والعلاقة النسَبيّة، وقد تعاملا فيما بينهما كأخوين، ولم يتعاملا كإمامٍ ومأموم، وسلطانٍ مفروض الطاعة من الله ورعيّةٍ مأمورةٍ بالطاعة والتسليم.

الشقّ الثاني: النصح والإشارة بالصواب

النصيحة: هي الخلوص والصدق، وتقديم المشورة بما يصلح المنصوح وإرادة الخير له.. وقد تقدّم المولي ابن الحنفيّة في ذلك الظرف العسير واليوم العصيب لأخيه سيّد شباب أهل الجنّة (عليه السلام) بما عنده، فبلغ غاية جهده في الإصحار عن كوامنه، واعتصر نفسه اعتصاراً ليفرج عن الأعاصير الّتي كانت تعصف بداخله، فقدّم ما يراه صالحاً وما يعتقده

سبيلاً للنجاة إو إنقاذاً لأهله من القتل.. فشهد له الإمام (عليه السلام) بذلك، فقال: لقد نصحت..

وأشرت بالصواب.. هذه هي المشورة الّتي جاءت من كلّ طاقته ومجهوده، واستجمع لها ابن الحنفيّة جميع قواه ورأيه وفكره وقلبه، فأشار بالصواب وِفق ما هو يفكّر به ويستوعبه ويدركه..

والصواب الّذي احتواه كلامه، يتلخّص في عمل كلّ ما يلزم من أجلالإفلات من مخالب القرد المهارش يزيد، وهذا ما كان يفعله الإمام (عليه السلام) بالفعل..

والخروج من المدينة إلي موضعٍ يوفّر الأمان لمن جعله الله أماناً للعالمين، وهو ما فعله الإمام (عليه السلام) بالفعل..

انتظار ما يؤول إليه أمر الناس بعيداً عن عيون الطاغوت، وهو ما فعله الإمام (عليه السلام) بالفعل..

وبكلمة،: فإنّ عمومات ما جاء في كلام ابن الحنفيّة كان صواباً بغضّ النظر عن التفاصيل.. بيد أنّ الإمام (عليه السلام) قرّر له صواب إشارته، وهي بالفعل كذلك وفق الحسابات الظاهريّة للعقول البشريّة، باستثناء المعصوم، فهذا ما قاله غير ابن الحنفيّة أيضاً، وقد دلّت عليه مجريات الأحداث وأرشدت إليه..

فالإمام (عليه السلام) لم يقل له: إنّي أعتقد صواب إشارتك، وإنّما أخبره عن صواب إشارته علي نحو الإطلاق، وهي كذلك.. والحال أنّ الإمام (عليه السلام) قد نوّه إلي أنّه لا يبايع ولو لم يكن في الأرض ملجأٌ ولا مأوي!

وقد دعا الإمام (عليه السلام) له أن يكون رأيه موفّقاً مسدّداً بعد التعليق علي مشيئة الله تبارك وتعالي..

وأنا أرجو أن يكون إن شاء الله رأيك موفّقاً مسدّداً.

ويبدو أنّ الإمام (عليه السلام) أكّد علي صواب إشارة أخيه في ما يخصّ الخروج إلي مكّة، لذا أخبره بعزمه ووجهته، فكأنّه يقول له: إنّي عاملٌبالخيار الأوّل من مشورتك.

المجال الثاني: بيان عزمه والإعلان عن وُجهته

اشارة

كان الخيار الأوّل الّذي اقترحه المولي ابن الحنفيّة علي أخيه سيّد الشهداء (عليه السلام) أن يخرج إلي مكّة حرم الله الآمن.. فأخبره الإمام (عليه السلام) أنّه عازمٌ علي التوجّه إليها..

وإنّي قد عزمتُ علي الخروج إلي مكّة، وقد تهيّأت لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي، وأمرهم أمري ورأيهم رأيي.

وبهذا نوّه الإمام إلي عدّة تنويهات:

التنويه الأوّل: عزمه علي الخروج إلي مكّة

أخبر الإمام (عليه السلام) أنّه قد عزم علي الخروج إلي مكّة قبل أن يُشير عليه أخوه ابن الحنفيّة، وقد تهيّأ لذلك واستعدّ له، وهذه هي وُجهته الأُولي الّتي لم يذكر وجهةً أُخري غيرها..

فالخيار الأوّل الّذي قدّمه ابن الحنفيّة قد اختاره الإمام (عليه السلام) من قبل وعزم عليه وتهيّأ له، ولم يكن يومها أيّ حديثٍ عن العراق والكوفة والقيام و«الخروج الاصطلاحيّ».. بل يلاحظ أنّ ابن الحنفيّة لم يذكر

الكوفة كخيارٍ لبيان عواقبه لكلّ ذي عينين..

الخروج كان إلي مكّة وانتهي.. لم يذكر له الإمام (عليه السلام) الخطوة الثانية بعد مكّة، وربّما حسب ابن الحنفيّة أنّ الخطوات ستأتي تباعاً كما رسمها.. لا ندري!المهمّ، إنّه سيتوجّه إلي مكّة.. مكّة فقطّ.. أمّا ما بعد مكّة؟ فهذا ما لم يذكره الإمام (عليه السلام) ولم ينوّه إليه من قريبٍ ولا من بعيد، ولم يذكر العراق ولا الكوفة، ولم تكن دعواتهم تصل إليه بعد..

«وإنّي قد عزمتُ علي الخروج إلي مكّة، وقد تهيّأتُ لذلك».

التنويه الثاني: ذكر مَن يخرج معه

أكّد الإمام (عليه السلام) أنّه سيخرج هو بنفسه المقدّسة «أنا»، وذكر إإخوته وبنيي إإخوته وشيعته، لم يستثنِ أحداً من إإخوته، ولا من بني إإخوته، ولا من شيعته.. فأين سيكون المولي ابن الحنفيّة وأبناؤه من هذا الإطلاق؟!

وقد نسب الإمام (عليه السلام) الإخوة وأبناءهم إليه، ولم ينسبهم لابن الحنفيّة! لم يقل له: أنا وإإخوتك وأبناء إإخوتك.. والحال أنّهم إإخوته وأبناء إإخوته أيضاً! ويكفيهم شرفاً وعزّاً في هذه النسبة..

أمّا شيعته الّذين ذكرهم، فهو إمّا عطف تفسيرٍ للإخوة وأبنائهم، وهو بعيدٌ لا يساعد عليه السياق، أو أنّهم مواليه، وهو أيضاً لا يساعد عليه سياق الكلام والاستعمالات الرائجة، أو أنّ ثمة رجالاً من شيعته قد خرجوا معه من المدينة..

فهل هم من رجال المدينة؟ أو أنّهم من غيرها من الأصـقاع قد التحقوا بسيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة ولازموه؟ أو أنّهم سيلتحقون به في الطريق؟ربّما كانوا بعض الرجال الّذين تجاهلهم التاريخ وتغافل عنهم، من قبيل الإخوة الأربعة من فتيان اليمن والمعمّر المغربيّ، وغيرهم ممّن نقرأ في تراجمهم أنّهم لازموا الإمام أمير المؤمنين والإمام الحسن المجتبي الأمين ثمّ لازموا سيّد الشهداء الحسين (عليهم السلام) ، وخرجوا معه إلي كربلاء..

وكيف كان، فإنّ هذه العبارة تفيد أنّ ثمّة مَن خرج مع سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة إلي مكّة من شيعته، وهم غير أهل بيته وإخوته وأبناء إخوته، فلا يصحّ ـ والحال هذه ـ أن يقال: إنّه لم يخرج مع الإمام الحسين (عليه السلام) من المدينة أحدٌ من شيعته أبداً، كما ذهب إليه بعض المحقّقين.

ولا يُدري هل يمكن استشمام التعريض بابن الحنفيّة من هذا القول:

«أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي»!

التنويه الثالث: صفة مَن يخرج معه

يبدو أنّ شيعتي هنا وردت صفةً لمن يخرج مع الإمام (عليه السلام) كصنف غير الأصناف الّذين سمّاهم، أي: إخوته وبني إخوته، ثمّ قال الإمام (عليه السلام) : «وأمرهم أمري ورأيهم رأيي».

كذا أخبر أعلم الخلق بالخلق، والإمام الصادق المبين الناطق عن ربّ العالمين، وقرّر أنّ الّذين يخرجون معه جميعاً إن كانوا إخوته وبني إخوته

أو شيعته، كلّهم مسلّمون له، متوافقون معه، راضون بما هو عازمٌ عليه، وأمرهم أمره، ورأيهم رأيه..

ربّما كان في كلامه (عليه السلام) إشعارٌ يفيد أنّ هؤلاء هم الّذين أطاعوه وصفّوا له من بين العالمين، وهو خارجٌ بهم..

ولا ندري ما إذا كان في هذا المقطع من الكلام أيضاً إشعارٌ بالتعريض بالمولي المكرّم ابن الحنفيّة أو لا.. إذ إنّ الإمام (عليه السلام) يؤكّد له أنّ الخارج معه مسلِّمٌ له مطيعٌ له متوافقٌ معه في الأمر والرأي! سيّما إذا لاحظنا استدراك الإمام بلفظ: «وأمّا أنت يا أخي»..

التنويه الرابع: معني الخروج

سيأتي الكلام عن معني الخروج المقصود في هذا الحوار وما يتلوه في الوصيّة، لذا سنقتصر هنا علي الإشارة البعيدة لمعني الخروج.

لا شكّ أنّ سياق الكلام يكشف بوضوحٍ عن مرامي الحديث ومقاصده، ولا يمكن حمل معني الخروج هنا علي أيّ معنيً اصطلاحيٍّ سوي معناه اللغويّ، والخروج في اللغة ضدّ الدخول، وهو عبارةٌ عن الانطلاق والتحرّك والتوجّه للحركة والانتقال الجغرافيّ من نقطةٍ يغاردها المتكلّم ويتركها كموضعٍ وموطنٍ ومقامٍ ومنزلٍ إلي موضعٍ آخر ومكانٍ غير المكان الّذي هو فيه.

المجال الثالث: بيان تكليف ابن الحنفيّة

اشارة

يبدو من قوله: «وأمّا» كأنّه استدراكٌ علي ما ذكره من حال إإخوته وشيعته الخارجين معه، فقال له: «وأمّا أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم

بالمدينة، فتكون لي عيناً عليهم، ولا تُخفِ علَيّ شيئاً من أُمورهم».

والعبارة تحتمل وجوهاً، ويمكن تفسيرها بالإيجاب والسلب.

أمّا الفهم الإيجابيّ فيقال: أمّا أنت يا أخي فلا تخرج معي، ولكن تقيم بالمدينة، فتكون عيناً، وهذا هو تكليفك تجاهي.. فإذا فعل ذلك فقد أدّي ما عليه، ويكون بقاؤه في المدينة إطاعةً لأمر إمامه، وليس المهمّ أن يُقتَل المؤمن كيف ما اتّفق، وإنّما المهمّ أن يكون في طوع إمامه وطاعته.

وربّما يقال: إنّ الإمام (عليه السلام) يقول لأخيه:: أمّا أنت فلأنّك لا تتّفق معي، ولستَ علي أمري ورأيي، ولا تنوي الخروج معي، ولا تعتزم نصرتي باليد، فلتكن عيناً لي علي الأعداء.

وكيف كان، فمن المؤكّد أنّ المولي ابن الحنفيّة لم يخرج مع إمام زمانه (عليه السلام) ، وهو ابن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن أقرب الناس إلي أخيه أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) ، فلا يمكن أن نحتمل فيه إلّا كلّ الخير والطاعة للإمام، هذا ما نستشعره من تكليفٍ بإزاء ابن الإمام العالم الفقيه ابن الحنفيّة، وما نذكره هنا بمستوي البحث ومعالجة الحدث التاريخيّ وفق الموازين الموظّفة في المقام، ولسنا بصدد الحكم علي ما فعله المولي المكرّم ابن الحنفيّة والموقفِ الّذي اتّخذه، فهو أعرف بما فعل، وهو ابن إمامٍ وأخو إمامٍ وعمّ إمام!

إنّما يدور الكلام هنا بمقدار استنطاق النصوص والبحث العلميّالمحض، من دون اتّخاذ الموقف والحكم، إذ إنّ الباحث وغيره أقلّ وأدون من أن يتطاول إلي قمم الأولاد المباشرين للأئمّة المعصومين (عليهم السلام) ،

سيّما إذا كانوا ممدوحين من قِبَلهم.

نقول: إنّ عبارة الإمام (عليه السلام) الواردة في هذا الحوار فيها إيحاءاتٌ واشعاراتٌ ومعانٍ لا تكشف عن تفاعلٍ تامٍّ وانسجامٍ وتسليمٍ مطلَق، وحماسةٍ وذوبانٍ يمكن التعبير عنه بأنّ أمره أمر الإمام ورأيه رأي الإمام..

وقد أفاد النصّ أنّ التكليف الملقي علي عاتق المولي ابن الحنفيّة هو البقاء بالمدينة، ليكون عيناً علي الأعداء لصالح سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فيخبره بما يحدث ثمّة..

بيد أنّ هذا النصّ يواجه صعوباتٍ ومعارضاتٍ تمنع من الركون إليه والاستسلام له، ونحن لا نريد مناقشته مناقشةً مستفيضةً لئلّا نقع في المحذور ونتجاوز الحدّ المرسوم للعبيد عند التحدّث عن ساداتهم ومواليهم، وفهم وإدراك موقفهم ومعرفة مشاهدهم.. لذا سنكتفي بذكر معارض وصعوبة تعترض القول بهذا النصّ وتعسّر تصوّر هذا التكليف الخاصّ للمولي ابن الحنفيّة.

الأوّل: المعارض

ذكرنا سابقاً ما رواه العلّامة المجلسيّ بعد نقل الوصيّة المشار إليها مباشرة، قال:وقال محمّد بن أبي طالب: روي محمّد بن يعقوب الكليني ((1))

1- رواه الصفّار القمّيّ، قال: حدّثنا أيّوب بن نوح، عن صفوان بن يحيي، عن مروان بن إسماعيل، عن حمزة بن حمران، عن أبي عبد الله (عليه السلام) ، قال: ذكرنا خروج الحسين وتخلّف ابن الحنفيّة عنه،، قال: قال أبو عبد الله:: «يا حمزة،، إنّي سأُحدّثك في هذا الحديث ولا تسألْ عنه بعد مجلسنا هذا: إنّ الحسين لمّا فصل متوجّهاً دعا بقرطاسٍ وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. من الحسين بن عليّ إلي بني هاشم، أمّا بعد، فإنّه مَن لحق بي منكم استُشهد معي، ومَن تخلّف لم يبلغ الفتح، والسلام» (بصائر الدرجات للصفّار: 481 ح 5، اللهوف لابن طاووس: 129، المناقب لابن شهر آشوب: 3 / 23: 10، مثير الأحزان لابن نما: 39، الخرائج والجرائح للراوندي: 2 / 771، بحار الأنوار: 44 / 330 و45 / 84 و42 / 81، العوالم للبحراني: 17 / 179).

في كتاب (الرسائل)، عن محمّد بن يحيي، عن محمّد بن الحسين، عن أيّوب بن نوح، عن صفوان، عن مروان بن إسماعيل، عن حمزة بن حمران، عن أبي عبد الله (عليه السلام) ، قال:

ذكرنا خروج الحسين (عليه السلام) وتخلّف ابن الحنفيّة، فقال أبو عبد الله (عليه السلام) :: «يا حمزة،، إنّي سأُخبرك بحديثٍ لا تسألْ عنه بعد مجلسك هذا: إنّ الحسين لمّا فصَلَ متوجّهاً دعا بقرطاسٍ وكتب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من الحسين بن عليّ بن أبي طالب إلي بني هاشم،: أمّا بعد، فإنّه مَن لحق بي منكم استُشهد، ومَن تخلّف لم يبلغ مبلغ الفتح، والسلام» ((1))..

ويكفي هنا أن ننوّه إلي تعارض هذا النصّ المُسنَد إلي المعصوم (عليه السلام) مقابل النصّ التاريخيّ المرسَل المتفرّد الشاذّ، فالأوّل دعوةٌ للنصرة، والثاني أمرٌ بالقعود، ولا نعلّق أكثر من ذلك امتثالاً لأمر الإمام (عليه السلام) ، وللقارئ أن يستخلص ويتأمّل ويستنتج..

1- بحار الأنوار: 44 / 330.

الثاني: الصعوبة

يلاحظ لمن تابع التاريخ ولاحق الأحداث منذ خروج سيّدالشهداء (عليه السلام) من المدينة إلي شهادته في كربلاء اختفاء أخبار المولي ابن الحنفيّة تماماً، بالخصوص بعد انطلاق ركب الشهادة من مكّة إلي العراق، ولم نسمع في المصادر التاريخيّة القديمة ولا الّتي تليها _ حسب فحصنا _ أنّ المولي ابن الحنفيّة قد كتب إلي سيّد الشهداء (عليه السلام) بخبرٍ أو نقل له معاينةً أو حتّي كتب إليه كتاباً مهما كان..

الجزء الثاني: متن الوصيّة

اشارة

لقد تناولنا الحوار الّذي سبق كتابة الوصيّة علي عجلٍ رغم ما فيه من التفصيل، لأنّه يحتاج إلي دراسةٍ أوفي وأعمق؛ للعلاقة الوثيقة بينه وبين الوصيّة، ولا يسوّغ تناول الوصيّة وحدها مبتورةً عن سوابقها لمن أراد أن يدرسها دراسةً وافيةً تكتمل عنده الصورة، ويكوّن لنفسه إطاراً يتشكّل منه تأسيسٌ لفهم الوصيّة وبلوغ مدياتها واقتناص مداليلها وتحديد معاني ما جاء فيها.

وقد قدّمنا في بداية البحث مقدّماتٍ نحتاجها هنا، بيد أنّنا أعرضنا عن ذكرها لئلّا نعيد.

*****

قال: ثمّ دعا الحسين بدواةٍ وبياضٍ وكتب فيه، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أوصي به الحسين بن عليّ بن أبي طالب لأخيه محمّد ابن الحنفيّة المعروف ولد عليّ بن أبي

ص: 242

طالب (رضي الله عنه) : إنّ الحسين بن عليّ يشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ مِن عنده، وأنّ الجنّة حقٌّ والنار حقّ، وأنّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مَن في القبور. وإنّي لم أخرج أشِراً ولا بطراً ولا مُفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجتُ لطلب النجاح والصلاح في أُمّة جدّي محمّد (صلي الله عليه و آله) ، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي محمّد (صلي الله عليه و آله) وسيرة أبي عليّ بن أبي طالب وسيرة الخلفاء الراشدين المهديّين رضي الله عنهم، فمَن قبلني بقبول الحقّ فالله أَولي بالحقّ، ومن ردّ علَيّ هذا أصبر حتّي يقضي [الله] بيني وبين القوم بالحقّ، ويحكم بيني وبينهم [بالحقّ]، وهو خير الحاكمين. هذه وصيّتي إليك يا أخي، وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكّلتُ وإليه أُنيب، والسلام عليك وعلي مَن اتّبع الهدي، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم».

قال: ثمّ طوي الكتابَ الحسين وختمه بخاتمه، ودفعه إلي أخيه محمّد ابن الحنفيّة، ثمّ ودّعه، وخرج في جوف الليل يريد مكّة بجميع أهله، وذلك لثلاث ليالٍ مضين من شهر شعبان في سنة ستّين، فجعل يسير ويقرأ هذه الآية: (فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قال رَبِّ نَجِّنِي من الْقَوْمِ الظَّالِمِين) ((1)(2)).

ص: 243

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 20.
2- الفتوح لابن أعثم: 5 / 20.

****

يمكن تقسيم الوصيّة إلي بنودٍ تسهّل علينا الوصول إلي مراميها إن شاء الله تعالي، وهي تنقسم إلي ثلاثة أقسام، تحتوي: الإطلالة والمقدّمة، ومتن الوصيّة، ثمّ خاتمة الوصيّة.

البند الأوّل: إطلالة الوصيّة ومقدّمتها

اشارة

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أوصي به الحسين بن عليّ ابن أبي طالب لأخيه محمّد ابن الحنفيّة المعروف ولد عليّ ابن أبي طالب (رضي الله عنه) : إنّ الحسين بن عليّ يشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأّن محمّداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ مِن عنده، وأنّ الجنّة حقٌّ والنار حقّ، وأنّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مَن في القبور»..

تضمّن هذا البند محتويين:

المحتوي الأوّل: المخاطَب بالوصيّة

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أوصي به الحسين بن عليّ ابن أبي طالب لأخيه محمّد ابن الحنفيّة المعروف ولد عليّ ابن أبي طالب (رضي الله عنه) ...».

إنّ المخاطَب في هذه الوصيّة إنّما هو ابن الحنفيّة بعد أن جري الحوار المفصَّل آنفاً بينهما، وكأنّه تفهيمٌ وإقناعٌ وتفسيرٌ للغوامض الّتي أطبقت علي أعماقه، وبيانٌ للمجاهيل الّتي اجتاحته دوّاماتها، وفكٌّللرموز الّتي

أغلقت عليه بعد كلّ الّذي مضي من كلام.

وسيأتي في ختام الوصيّة مخاطَبٌ آخَر يحتاج إلي تفهيمٍ أشار إليه الإمام (عليه السلام) إشارةً من دون تصريح..

أجل، قد يكون الخطاب مع أخيه من باب «إيّاك أعني»، وقد أخذ ابن الحنفيّة عنواناً ليدلف منه إلي الآخرين، ولكن يبقي لابن الحنفيّة موضوعيّة يشهد لها السياق وطول الحوار واختتامه بالدموع! وسنعرف بعد قليلٍ أنّ المخاطَب الآخر المشار إليه له خصوصيّاته أيضاً بقرينة الصياغة والاستعمال.

المحتوي الثاني: إطلالة الوصيّة

إطلالة المتن.. كلامٌ يُنبئ عن مفارقة الدنيا والعزم علي الرحيل إلي الآخرة، و«كأنّ الدنيا لم تكن والآخرة لم تزل»، وهي صياغةٌ معتادةٌ كانت ولا زالت في كتابة الوصيّة، سلك سبيلها الأوّلون ودرج عليها الآخرون ونسل عليها المؤمنون إلي يوم الناس هذا، إذ يبدأ المُوصي بتقديم الشهادات وذكر العقائد.

ولا نريد هنا الدخول في شرح تفاصيل ذلك وتفسير ما ورد في الوصيّة والإسهاب في بيان العقائد المشار إليها؛ فلذلك أهل، وما يخصّنا البحث التاريخيّ وما يتعلّق به في هذه الوصيّة.

البند الثاني: متن الوصيّة

اشارة

«وإنّي لم أخرج أشِراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما

ص: 245

خرجتُ لطلب النجاح والصلاح في أمّة جدّي محمّد (صلي الله عليه و آله) ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي محمّد (صلي الله عليه و آله) وسيرة أبي عليّ بن أبي طالب وسيرة الخلفاء الراشدين المهديّين رضي الله عنهم، فمَن قبلني بقبول الحقّ فالله أَولي بالحق، ومن ردّ علَيّ هذا أصبر حتّي يقضي [الله] بيني وبين القوم بالحقّ، ويحكم بيني وبينهم [بالحقّ]، وهو خير الحاكمين».

هذا المقطع يتضمّن أصل الوصيّة ومتنها الأصليّ المقصود في الكتابة، ويمكن تناول ما ورد فيها عبر عدّة تلويحات:

التلويح الأوّل: ترابط النصّ

لقد أشرنا فيما سبق إلي ما نريد الحديث عنه في هذا التلويح، ونعود إليه للتذكير علي عجل، للأهمّيّة القصوي الّتي يحوزها هذا التلويح في إطار متابعة موادّ الوصيّة، ونحاول تجنّب استخدام الاصطلاحات التخصّصيّة الّتي يحتاجها البحث.

وخلاصة ما نريد التلويح إليه هنا هو أنّ النصّ مترابط، وما جاء فيه تجده يتابع المقصود بعباراتٍ متتاليةٍ متلاحقة، ومتماسكةٍ يكمل بعضهابعضاً، ويتمّم اللاحق السابق منها، غير مقطوعةٍ ولا مبتورة، تتشابك مضامينها من خلال القيود والحكومة والنظر إلي بعضها البعض، سواءً كانت كمقاطع ومفاصل، أو كجُمَلٍ وعبارات، أو مواقف وإشارات، أو تحليل وتفسير وبيانات، أو الإعلان عن عزم أو تكليف أو توضيحات..

فالمقدّمـة الّتي احتوت الإطلالـة ترتبـط تماماً بالوسط الّـذي ذكر متن الوصـيّة وأصل ما يُراد بيانه، وهو مرتبطٌ تماماً بالخاتمـة، إذ يسـتخدم العطف بـ– (الواو) بعد الانتهاء من المقدّمة، ولم يبدأها بجملةٍ منفصلةٍ منعزلةٍ مقطوعةٍ مبتورة عن السابق، كما يشرع الخاتمة باسم الإشارة «هذه وصيّتي» في إشارةٍ إلي ما ذكره في البند الثاني حسب تقسيمنا.

وكـذا يسـتمرّ القيـاس علي باقي الفقرات، فيلاحظ الترابط الوثيق الّـذي يأبي التفكيك والفصل بين قوله:: «وإنّي لم أخرج أشـراً ...»، وقوله: «وإنّما خرجتُ لطلب ...»، وهكـذا باقي عبارات الوصـيّة وموادّها ومضامينها التعبيريّـة، وليس من لطف الاسـتخدام والتوظيف أن يُجتزئ الجزء من العبارة ويُستنبط منه، ويوظَّف في الاسـتنتاج بقطع النظر عن سابقه أو لاحقه مع أنّه متّصلٌ به اتّصالاً يأبي التقطيع، تماماً كالقرينة المتّصلة اتّصالاً مباشراً الواردة ضمن النصّ الواحد، فلا يمكن التعويل علي العموم مع وجود المخصّص ملاصقاً، ولا استفادة الإطلاق مع وجود المقيّـد في نفس التعبير في الجملـة الواحدة والمجلس الواحد، ولا يتّهم النصّ بالإجمال وهو يحتوي علي المبيّن، وهكذا..فهي من قوله: «وإنّي لم أخرج ...» إلي قوله: «وهو خير الحـاكمين» كلٌّ واحـدٌ لا يتجزّأ، يتحـدّث عن مرامٍ واحـد، ويعبّر عن غايـةٍ واحـدة، تسـعي مفرداته لبناء عباراته، وتجتمع عباراته لتكمل الصورة والبناء، وتعبّر عن غايـةٍ وهـدف، وتحكي مشـهداً واحـداً تريد مجموعة أدوات الوصـيّة الحكاية عنه، وإن كان لكلّ واحدةٍ من المفردات والعبارات جمالها الآسر

ص: 247

وتأثيرها المباشـر ودلالاتها الحيّة النابضة المتحرّكة الّتي يمكن توظيفها في مواضع مختلفة.. بيد أنّ الباحث إذا أراد اسـتنطاقها للوصول إلي المراد من كلّ الوصيّة، فلا يصلح له إلّا أن يأخذها ككلٍّ مترابطٍ متماسكٍ متكامل!

التلويح الثاني: العطف بعد المقدّمة

بعد أن ذكر المقدّمة والإطلالة الّتي شـهد فيها مولي الثقلين وإمام الموحّدين بما يشهد به المسلم في حياته وعند وفاته، ويرجو الله أن يبعثه عليه عند حشـره ونشـره من شـهادة التوحيد والشهادة بالنبوّة والقيامة والجنّة والنار وغيرها.. كان بالإمكان أن يقطع الاسترسال ويبتدأ الكلام بجملـةٍ جديـدةٍ ليس لها أيّ علاقـةٍ أو تلويـح للارتباط بما سـبق، بيـد أنّ المتن جاء مبتـدًءاً بالعطف علي ما سـبق للدلالـة علي التمسّـك بالاعتقادات المذكورة، فكأنّه يشير إلي أنّ هذه الاعتقادات الّتي تشترطفي الإنسان لتدخله دائرة المسلم، وتميّزه عن غيره من بني البشر علي اختلاف اعتقاداتهم.. فيقول هذه الشهادات السابقة لي، وإنّي أنا الّذي شهدت بها لم أخرج ...

وهـذه من المحن الناتجـة من الإحن، ومن أعظم مصائب الدهر الّتي ابتُلي بها آل الرسول (صـلي الله عليه و آله) وشـيعتهم، بحيث صادر الأعـداء وعبـدة الأوثان وطواغيت السـقيفة الـدين وشـريعة سـيّد المرسـلين، وجعلوا أهل الدين ورجال الله وأصـحاب الكساء خوارج في إعلامهم وتعاملهم، ونفوا عنهم أيَّ علاقةٍ وارتباطٍ وكرامةٍ علي الله وعلي رسوله (صلي الله عليه و آله) ، وقطعوا أيّ نسبٍ

ص: 248

وانتسابٍ لآل البيت بأبيهم وجدّهم رسول الله (صلي الله عليه و آله) ، فقالوا: أمّا عبد الله فنعم، وأمّا أخو رسوله فلا! وتركوا فاطمة سيّد النساء وابنة سيّد الأنبياء تصرخ فيهم: «اعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمّد».. وشهروا آل الرسول في البلدان سبايا، يتصفّح وجوههنّ القريب والبعيد والشريف والدنيّ والشاهد والغائب، وعرضوهم خوارج علي الدين، كأن لا علاقة لهم بالنبيّ (صلي الله عليه و آله) ولا انتساب لهم ولا اتّصال بدينه..

وممّا يحزّ خيشوم المؤمن بالخناجر، ويقطع أوداج القلب، ويمزّق الحناجر، أن يسمع آخر نداءات سيّد الشهداء (عليه السلام) في كربلاء، فيجده يزأر فيهم في رجزه الأخير لبيان نفس ما انطلق به من وصيّته في المدينة، فيقول:أنا الحسين بن علي

آليتُ أن لا

أنثني

أحمي عيالات أبي

أمضي علي دِين

النبيّ

وهذا ما ختم به سيّد الشهداء (عليه السلام) حياته: «أأمضي علي دين النبي».. يقول لهم وللتاريخ ولمن سمع ويسمع، أنّي مسلمٌ أمضي علي دين النبي (صلي الله عليه و آله) .. أُقتَل وأنا مسلم!! يا لها من مصيبة!!

كذا هو دأب الأُمّة، وانقلابها! وكذا هو حربها مع آل رسول الله (صلي الله عليه و آله) ، إذ حاولوا قطع حتّي الوشائج الأُسَريّة والنسب وارتباط الدم بين النبيّ وآله..

ولإثبات ذلك موضعٌ آخر، إذ يطول بنا المقام لو استرسلنا في بيان ذلك وإثباته بالشواهد والأدلّة والبراهين، وهو واضحٌ للمتأمّل في سير

الأحداث في التاريخ، وللمطلّع علي ظليمة أهل البيت (عليهم السلام) وشكاياتهم من انقلاب هذا الخلق المنكوس المتعوس المنحوس.

لذا من الضروريّ أن يُنقَل النصّ مع «الواو» العاطفة، ولا يصلح نقله كجملةٍ ابتدائيّة «إنّي»؛ ليعرف القارئ أو السامع أنّ العبارة لها ما قبلها، وليست هي كلمة ابتدائيّة مستأنفة، وبهذا يراعي الناقل الدقّة والأمانة في نقله لئلّا يروي نصّاً مبتوراً.

التلويح الثالث: معني الخروج

اشارة

للخروج معنيان:

المعني الأوّل: اللغويّ

الخروج في اللغـة هو ما قابل الدخول، فهو نقيض الدخول ((1)).. ولابـدّ أن يكون لهذا الخروج بداية ومنطلَق، فمن يخرج يلزمه أن يغادر مكاناً ما ويتركه إلي مكانٍ آخر.

ولا يخفي أنّ الوصـيّة كُتبَت بعد أن دار حوارٌ طويلٌ بين سيّد الشهداء (عليه السلام) وأخيه محمّد ابن الحنفيّة، قد أتينا علي ذكره مفصّلاً قبل قليل.. فالوصيّة إنّما هي بيانٌ لخروج محدَّدٍ معيّن.

والمكان الّذي يريد سـيّد الشهداء (عليه السلام) مغادرته في هذه الآونة الّتي تتحدّث الوصيّة عنها هو المدينة المنوّرة الّتي عزم علي الخروج منها..

فهو حينما يقول: «لم أخرج»، أي: لم أخرج من المدينة، و«إنّما

1- أُنظر: مجمع البحرين للطريحي، لسان العرب لابن منظور: مادّة «خرج».

خرجتُ»، أي: إنّما خرجتُ من المدينة..

والوصيّة لم تحدّد الوُجهة الّتي سيتوجّه إليها، أي لم تذكر المكان الّذي سيحلّ فيه بعد أن يغادر المدينة، بيد أنّ الحوار تكفّل بيان ذلك، إذ كان ابن الحنفيّة في حيرةٍ مذهلةٍ يبحث للإمام (عليه السلام) عن مكانٍ آمن، وكان الإمام (عليه السلام) قد أخبره أنّه قد عزم علي الخروج إلي مكّة حرم الله الآمن..

ولم يكن أيّ مكانٍ آخر يُذكر ـ لا في الوصيّة ولا في الحوار ـ سوي هذين المكانين كوجهةٍ أوّليّةٍ للخروج، فموضع الخروج قد عرفناهمن تواجد الإمام (عليه السلام) يومها في وطنه ومسقط رأسه، والموضع المقصود عرفناه من تصريح الإمام (عليه السلام) لأخيه عند الإصحار عن عزمه وعزم من كان معه.

ولا ـ يمكن تحميل العبارة أكثر من ذلك إن بقينا نحن والمعني اللغويّ.. فتكون الوصيّة بياناً وتفسيراً للخروج والانتقال المكانيّ والتحرّك الجغرافيّ من المدينة ليس إلّا، والغاية من الخروج إنّما هي مكّة ليس إلّا !

وكأنّها جوابٌ لسؤالٍ مقدَّر: لماذا تركتَ المدينة وطنَك ومسقطَ رأسك وتربة جدّك وأُمّك وأخيك؟ فأجاب الإمام (عليه السلام) في الوصيّة علي هذا السؤال، علي تفصيلٍ يأتي بعد قليلٍ إن شاء الله تعالي.

فالظاهر إنّ المقصود من «الخروج» هنا هو الخروج من المدينة علي وجه الخصوص؛ للقرائن الحاليّة الحافّة بصدور النصّ، لا ـ مطلق الخروج؛ لانتفاء المعني الاصطلاحيّ من جهة، ولعدم تعيين الوجهة

الأخيرة في المسير من جهةٍ أُخري، فالغاية المعلَنة هي مكّة فحسب، والكلام عن ««خرجتُ»» لا عن المكان الّذي سأقصده وأخرج إليه.

ويشـهد لإرادة المعني اللغويّ استشـهاد الإمام (عليه السلام) بقوله تعالي: (وَخَرَجَ مِنْها خَائِفاً) عند خروجه من المدينة، وغيره من الشواهد الّتي أتينا علي ذكرها في بداية البحث.

المعني الثاني: المعني الاصطلاحيّ

اشارة

في (المِلل والنحل) للشهرستاني:

كلّ مَن خرج عن الإمام الحقّ الّذي اتّفقَت الجماعةُ عليه يُسـمّي خارجيّاً، سواءً كان الخروج في أيّام الصحابة علي الأئمّة الراشدين، أو كان بعدهم علي التابعين بإحسانٍ والأئمّة في كلّ زمان ((1)).

والتعريف الّذي يذكره الشهرسـتانيّ إنّما هو علي قواعد السـقيفة وأُسسـها، إذ عرّف الإمامَ الحقَّ بالإمام الّذي تتّفق الجماعة عليه، ولم يعرّفه بالإمام المنصوص عليه من الله المنصوب من قبل ربّ العزّة.

فالخارجيّ: هو مَن خرج وتمرّد علي الحاكم مهما كان مادامت الجماعة قد اتّفقت عليه لأيّ سببٍ كان.. ولا نريد هنا اقتحام هذا الموضوع والخوض في تفاصيله وجزئيّاته، ويكفينا أنّنا عرفنا تعريف الخارجيّ.

1- المِلل والنحل للشهرستاني: 1 / 114.

فلاـ يمكن ـــ والحال هـذه ـــ حمل «الخروج» في قوله (عليه السـلام) : «وإنّي لم أخرج ... وإنّما خرجتُ» علي المعني الاصـطلاحيّ المعروف الممسوح بشـحنةٍ سياسـيّةٍ فيما سبق ولحق، أي بما يسمّي اليوم في المصطلح السياسيّ والاجتماعيّ: التمرّد علي الوضع القائم.. فـالخروج يعني الانقلاـب علي الشـرعيّة، والتمرّد علي الحـاكم الشـرعيّ، واعتراض مسـيرة الحكم والسـلطان.وهذا ما لا يمكن تصوّره ولا تصويره في حركة سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة، وذلك للموانع التالية:

المانع الأوّل: الإمام هو الشرعيّة

لا نريـد الخوض في أبحاث عقائديّة، وقد عزمنا من أوّل البحث أن نسـتخدم الأدوات التاريخيّة والأحداث في الوصول إلي الغاية، لذا نكتفي هنا بالإشارة السـريعة، بالخصوص أنّنا نخاطب العقل الشـيعيّ في هذا البحث، وهو يُدرك ما نقول ويعرف الدليل عليه، وقد تحوّل عنده إلي بديهيّةٍ وضرورة من ضرورات المعتقد والإيمان..

فـالمؤمن يعلم أنّ الحقّ مع الإمام المعصوم، يـدور معه حيثما دار، والجماعـة هم جماعـة الحقّ وإن قلّوا، فلا معني لإطلاق الخروج علي الإمام المعصوم حينئذ، بل هو إطلاقٌ باطلٌ وحرام، يلزم منه الكفر والخروج عن الملّة! فكلّ سـلطانٍ سوي سلطان الإمام المنصوب من الله زيفٌ باطـلٌ وحقٌّ مغصوب، والأـرض ومَن عليهـا ملكه وطوع إرادته وفي قبضـته وطاعته.. فكيف يقول الإمام (عليه السـلام) عن نفسه: «لم أخرج.. وإنّما

خرجتُ..»؟ فهل يعدّ الإمام (عليه السلام) نفسه خارجيّاً؟! حاشا لله!

المانع الثاني: لم يكن حديث «الخروج الاصطلاحيّ!!!» قد بانت لوائحه يوما

إنّ جميع ما بأيدينا من النصوص، وما توفّر لدينا من مصادر ومتون تاريخيّة، ونصوص مقدّسةٍ تعرّضت لنقل أحداث خروج سيّدالشهداء (عليه السلام) من المدينة، ورواية الظروف والمجريات بعد هلاك الطاغية المتفرعن والقرد المترهّل العجوز معاوية إلي خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة، لم تذكر حديث «الخروج الاصطلاحيّ»، وما يسمّونه الخروج علي الوضع القائم والتعرّض للسلطة بقصد إسقاطها وقطع دابر الولاة والمتسلّطين علي رقاب الناس يومها..

هذا حسب الفحص إلي يوم تسويد هذه الأوراق.

وكلّ ما وجدناه هو أنّ القرد المخمور المسعور يزيد تابع أباه الملعون في ملاحقة سيّد الشهداء (عليه السلام) وتخييره بين البيعة الذليلة ليزيد الخمور والفجور وبين القتل، ويأبي الله لخامس أصحاب الكساء أن يختار الدنيّة!

وإنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) كان مطلوباً مهدور الدم، فكان يريد النجاة بنفسه وأهل بيته بعيداً عن أعين الجبّارين البطّاشين والوحوش الكاسرة المتعطّشة لدمائه الزاكية، لئلّا تُهتَك به حرمة المدينة المنوّرة.

وهذا هو مفاد الأحداث والتصريحات والبيانات ومؤدّي الحوار الّذي دار بين سيّد الشهداء (عليه السلام) وأخيه ابن الحنفيّة، وقد أتينا علي بيان ذلك

قبل قليل..

فلا الإمام (عليه السلام) قد صرّح بشيءٍ يفيد ذلك، ولا الآخرون فهموا ذلك، ولا محمّد ابن الحنفيّة نفسه فهم ذلك، وليس في الأرض بلدٌ يومها في شرق الأرض أو غربها _ لا الكوفة ولا غيرها _ كان قد كتب لسيّد الشهداء (عليه السلام) يدعوه للائتمام به والخروج الاصطلاحيّ بقيادته ضدّالجهاز الحاكم، بل كانت البلدان كلّها خانعةً خاضعة، قد أعلنت الطاعة وجدّدت البيعة، وحسبت كلّ مَن خرج عن ذلك قد فارق الجماعة وشقّ العصا..

ولا_ يمكن توظيف العامل الغيبيّ هنا، والقول بأنّ الإمام (عليه السلام) يُخبِر عن مستقبل حركته وقيامه وإن كان في المدينة؛ لأنّ إدخال العامل الغيبيّ في هذا البحث يقلب الموازين جميعاً، إذ لا_ يوجد في العامل الغيبيّ ما يشير إلي ما يسمّي «الخروج» بالمعني الاصطلاحيّ، كما هو واضحٌ لمن قرأ النصوص المقدّسة والإخبارات الغيبيّة بشهادة سيّد الشهداء (عليه السلام) .

فإذا لم يكن حديث «الثورة = الخروج الاصطلاحيّ» هو المعنيّ بلفظ «الخروج» الوارد في الوصيّة، بغضّ النظر عن المانع الأوّل، فلابدّ أن يُحمَل حينئذٍ علي المعني اللغويّ.

المانع الثالث: الخروج فرية الأعداء

الخروج علي السلطان.. الخروج علي الجماعة.. شقّ العصا.. تفريق جماعة الأُمّة.. وغيرها من المصطلحات الّتي استخدمها جرذان السقيفة وقرود بني أُميّة في قلب الحقائق ولبس الدين لبس الفرو مقلوباً..

تسـمعها بشـكلٍ رتيبٍ متتالٍ متلاحقٍ في جميع لحظات مواجهة القرود المسـعورة وعسلان الفلوات الساغبة لدماء الأبرار مع سيّد الشهداء (عليه السـلام) ، منـذ الساعـة الأُولي الّتي تقبّض فيها أبيّ الضـيم عن البيعة في المدينة، إلي خروجه من المدينة، إلي خروجه من مكّة، إلي مواقف وُلاة القردالمخمور في الكوفة النعمان وابن زياد وخطاباتهم وتهديداتهم لأهل الكوفة، إلي محاججة المولي الغريب مسلم بن عقيل (عليهما السـلام) مع ابن الأَمة الفاجرة عُبيد القرود ابن زياد، إلي نزول سـيّد الشـهداء (عليه السلام) في كربلاء، ودخول السبايا مجلس ابن الأَمة الفاجرة، وطول طريق السبي من الكوفة إلي الشام، ومخاطبات القرد المخمور في مجلسه مع سـبايا آل محمّد (صلي الله عليه و آله) ، وإلي يوم الناس هذا، حيث نسمعها من الأقذار المتعلّقة بذيول القرود الأُمويّة في عصرنا الراهن..

الجميع يفترون علي سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) ويسـمّونه وآله خوارج، ويكرّرون هـذه الكلمة المُقذِعة الّتي يسـيح منها الكفر والبغض والعـداوة والشـنئان والحقد والضـغينة علي آل الرسول (صـلي الله عليه و آله) .. رأس خارجيٍّ خرج علي يزيد.. سـبايا خرج رجالهم علي يزيد.. وغيرها من التعبيرات الّتي كانت ولا زالت تُسـتعمَل بكلّ وقاحةٍ وصـلافةٍ وجرأةٍ علي الله ورسوله (صـلي الله عليه و آله) .. ولا نريد الإطالة في ذكر النماذج والأمثلة للتدليل والاستشـهاد علي ما ذكرناه، إذ أنّنا نمشـي مع الموضوع مسرعين نكتفي بقبسة العجلان، ونعلم أنّ المراجع لصفحات التاريخ يجد ما أشرنا إليه بسهولةٍ ويسر.

ص: 256

فهل يطلق سيّد الشهداء (عليه السلام) علي نفسه ما يفتريه عليه عدوّه، ليكون له اعترافاً وإقراراً وتصديقاً لما يفتريه؟!

المانع الرابع: التعدّي ب-- (علي)

عند تتبّع الاستعمال يُلاحَظ أنّ «الخروج» بمعناه الاصطلاحيّ يتعدّي ب- -(علي)، فيقال: خرج علي السلطان، أو علي الحاكم، أو خرج علي الخليفة، وخرج علي الإمام، وهكذا..

ولافتراض التعدّي ب-- -(علي) نحتاج إلي تقديرٍ تستقيم به الجملة، أي: «إنّي لم أخرج علي السلطان.. وإنّما خرجتُ علي السلطان» مثلاً، وهذا التقدير هو أوّل الكلام، وهو المطلوب إثباته.. فيما تكون العبارة مستقيمةً من دون الحاجة إلي تقديرٍ لو كان المقصود إنّما هو الخروج بالمعني اللغويّ، فهو لم يخرج من المدينة أشراً، وإنّما خرج لطلب النجاح.. ولو احتجنا إلي قرينةٍ فتكفي فيه قرينة الحال والمقام.

وفي خروجه نفسه من المدينة إلي مكّة يتحقّق جميع ما ذكره صلوات الله عليه.

التلويح الرابع: ترابط الجملة

يلاحظ أنّ العبارة الواردة في الوصيّة متماسكة الأطراف، مترابطة الأجزاء، تأبي الاجتزاء الّذي ابتليت به من قِبل بعض المتعاملين معها، إذ أنّ الحصر الوارد فيها ب- -«إنّما» هو تفريعٌ علي الجملة السابقة، وليس استئنافاً وحديثاً جديداً لا علاقة له بما سبقه..

وبعبارةٍ أُخري: إنّ النفي الوارد في المقطع الأوّل قبل الحصر «لم أخرج

أشـراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً» شـرحَته الجملةُ اللاحقة بصـيغة الحصـر والإثبات، فما ورد في القسم الإيجابيّ من الجملة هو نفسه ما يشرح المنفيّ في قسم السلبيّ، فما نفاه (عليه السلام) في المقطع الأوّل أثبت ما يقابله في المقطع الثاني..

فلا يصـلح ـ والحال هذه ـ رواية ما ورد في الوصـيّة مجتزءاً، كأن يروي عنه من قوله:: «إنّما خرجتُ لطلب النجاح والصلاح..»؛ لأنّ هذه العبارة تعدّ شرحاً وبياناً وتتمّةً ومفسّرةً لما ورد من النفي في الجزء الأوّل منها: «إنّي لم أخرج..».

وهذا يعني أنّ شقَّي العبارة مترابط، يحكم الشقّ الثاني ما ورد في الشقّ الأوّل منها.

التلويح الخامس: التفهيم والتفسير ومعالجة الشبهة

من الواضـح جـدّاً للمتأمّل في هذا المقطع من الوصـيّة أنّ الإمام (عليه السـلام) ينفي جملةً من التهم والافتراءات الّتي يمكن أن تتوجّه إليه بسبب خروجه من المدينة ومغادرته وطنه ومسقط رأسه وتربة جدّه وأُمّه وأخيه، ثـمّ يشرح موقفه والفائدة من خروجه ذاك.

فهو دفعُ دَخلٍ، ورفع إشكال، وبيان إعضال، فقد حارت العقول وذهلت الألباب وعجزت الحلوم عن إدراك خروجه، فمن قاسه بعقله هلك، ومن تعامـل معه باعتباره فعلاً معصوماً سـلّم له جعل يبحث له عن عللٍ ومسوّغاتٍ تبرّره، ومن تعامل معه بغير هـذا الاعتقاد وهـذه النظرة جعل يفسّره كما يحلو له ويجد له المخارج والمصحّحات، ومن

عامله بنظرةٍ دنياويّة محضة جعل ينظّر له ويستلهم منه، ومن نظر إليه بمنظار الأعداء أو من يري القداسة في عدوّه فقط أو فيه وفي عدوّه علي حدّ سواء، فربّما خطّأه واتّهمه وافتري عليه ولصق به زوراً وبهتاناً ما نفاه سيّد الشهداء (عليه السلام) عنه في الجزء الأوّل من العبارة..

فالعبارة بمجموعها من النفي والحصر تشرح موقف سيّد الشهداء (عليه السلام) وتبيّن الفائدة من خروجه من المدينة، وتنفي عن هذا الخروج ما يمكن أن يتّهم به لمن أدرك وقائع الخروج وشهدها أو لم يدركها ولم يشهدها وبقي الموقف عنده غامضاً مغبّشاً، فكان يظنّ أن لو بقي سيّد الشهداء (عليه السلام) في المدينة لَبقي في حرزٍ أمينٍ وأمانٍ وعيشٍ رغيد، لن يناله الأذي ولا يمسّه غلواء السلطان، ولا تزعزع عائلته وأهله المخاوف، وغيرها من التصوّرات الباطلة الّتي عرفنا بطلانها ومخالفتها لمجريات الأحداث، وقد ألحّ عليها بعضهم عند كلّ لقاءٍ مع الإمام (عليه السلام) كما فعل ابن عمر، إذ أنّ الإمام (عليه السلام) كان مهدور الدم مطلوب الرأس، خذله أهل المدينة شرّ خذلان، وتركوه وحده يعالج شراسة السلطان، ويقاوم ولع القرد المسعورر المخمور بدمه المقدّس الزاكي..

فكان ولا ـ زال من يزعم أنّ في خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة أشر وبطر و إفساد وظلم، وتجاوز علي السلطان والحكم والحاكم، وغيرها من التشويهات والتصويرات البائسة المريضة التافهة.. فأراد سيّد الشهداء (عليه السلام) أن يُفهِم مَن لم يفهم، ويبيّن الحقيقة لمن لا يعلم، ويردّ علي من اتّهم وزعم ما زعم، وأجاب كلّ من يريد أن يشوّه خروجه

ويتّهمه بهذه التهم الباطلة بنفيها عنه، وإثبات المصلحة في ما فعله، فداه العالمين..

فسيّد الشهداء (عليه السلام) وخامس أصحاب الكساء لم يكن بصدد بيان برنامج عمله الّذي من أجله خرج، وإنّما كان بصدد تفسير خروجه وتسويغه وتبريره، فهو في مقام الدفاع عمّا فعل، وإفهام الآخرين بأنّ في خروجه الصلاح والمصلحة والنجاح للأُمّة، وليس فيه فسادٌ ولا ظلم!

وهذه النكتة في غاية الأهمّيّة، وبها تكمن مفاتيح فهم الوصيّة، والبناء عليها والتعامل معها، ونمط التعامل معها ومعالجة ما ورد فيها.

ويمكن أن تختصّر بكلمة: إنّ النفي والحصر الوارد في العبارة الأُولي من الوصيّة، كمجموع، أي مجموع مفادّات النفي ومؤدّيات الحصر كلّها، كانت عبارةً عن تفسير وتفهيم وبيان للخروج من المدينة لمن لم يدرك ذلك، وليست هي عبارة عن برنامج عمل أراد سيّد الشهداء (عليه السلام) أن يقدّمه لمستقبل أيّامه وأيّام الأُمّة، وإنّما أراد أن يفهّم الأُمّة التي ستسأل، أو لا تكاد تفهم لخروجه سبباً، فيشوّش العدوّ عليها ويغذّيها بسمومه.. أراد الإمام (عليه السلام) أن يقدّم لها خروجه ويفسّره لهذه الأُمّة الّتي لا تعرف الإمام (عليه السلام) ، فهو يحكي ما مضى ويشرحه، لا أنّه يقدّم وصفةً لعمله وعمل الأُمّة في مستقبل أيّامها، لأنّهم ما كانوا يدركون لخروجه سبباً كما هو واضحٌ من تصريحات مثل ابن عمر وابن عباس، وكانوا يرون في مكثه في المدينة صلاحاً ونجاحاً له (عليه السلام) وللأُمّة.

ص: 260

وقد ذكرنا الشواهد الناهضة لهذا الفهم، ومنها كون النصّ وصـيّة، والوصـيّة لا تُفتَح إلّا بعد الموت، وأنّها وردت بلفظ الماضـي، إن كان في النفي أو الإثبات، فقوله: «لم أخرج» يفيد الماضـي بحكم دخول «لم» علي المضارع، فإنّها إذا دخلَت علي المضارع أفادت الماضـي، وكذا قوله في جملة الحصر «خرجت» بصيغة الماضي.. فهو يفسّر ما وقع ويشرح ما مضي، ولم يؤسّس للمستقبل!

التلويح السادس: معاني بعض المفردات المهمّة

اشارة

في النصّ بعض المفردات الدلاليّة المهمّة الّتي ينبغي أن تُشـرَح ويُعرَف معناها اللغويّ قبل الدخول في بيان معني الوصـيّة، إذ إنّها تكشـف الأبعاد المقصودة في الكلام عموماً وفي الوصيّة علي وجه الخصوص.

المفردة الأُولي: الأَشَر

الأَشَرُ: شدّة البطَر والفرح والنشاط، وأشر: بَطِر وكَفَر النعمة فلم يشكُرها، والفرح قد يكون من سرورٍ بحسب قضيّة العقل، والأَشَرُ لا يكون إلّا فرحاً بحسب قضيّة الهوي ((1)).

المفردة الثانية: البطر

البطَر: شدّة النشاط والتبختر والتجبّر، وقلّة احتمال النعمة، وسوء

1- أُنظر: المفردات للراغب، لسان العرب، مجمع البحرين، المصباح المنير: مادّة «أشر».

احتمال الغني، والطغيان عند النعمة وطول الغني، والدهش والحيرة، وبَطِرَ بالأمر: ثَقُل به ودَهِشَ فلم يَدْرِ ما يُقَدِّم ولا ما يؤخّر، والبطر في معنيً كالأشَرِ وغَمْطِ النعمة، يقال: بَطِرَ فلانٌ نعمةَ الله، أي: كأنّه مَرِحَ حتّي جاوز الشكر فتركه وراءه ((1)).

المفردة الثالثة: الفساد

الفسادُ: نقيض الصلاح، وتَفاسَدَ القومُ: تدابَروا وقطعوا الأرحام، والمَفْسَدَةُ: خلاف المصْلَحة، والاستفسادُ: خلاف الاستصلاح، فسّر الفساد بالقحط وقلّة الريع في الزراعات والبيوع ومحق البركات من كلّ شي ء، وقيل: هو قتل ابن آدم أخاه، ودم فاسد: أي ساقطٌ لا نفع فيه.

المفردة الرابعة: الظلم

الظُّلْمُ: وَضْع الشي ء في غير موضِعه. ومن أمثال العرب في الشَّبَه: مَنْ أَشْبَهَ أباه فما ظَلَم، قال الأصمعي: ما ظَلَم، أي ما وضع الشَّبَه في غير مَوْضعه، وفي المثل: مَن استرعي الذئبَ فقد ظلم، وأصل الظُّلم الجَوْرُ ومُجاوَزَة الحدّ، والظُّلْم: المَيْلُ عن القَصد، والعرب تقول: الْزَمْ هذا الصَّوْبَ ولا تَظْلِمْ عنه، أي لا تَجُرْ عنه، والظُّلْمُ: أخذك حقّ غيرك.

المفردة الخامسة: الطلب

الطَّلَبُ: مُحاوَلَةُ وِجْدانِ الشي ءِ وأَخْذِه. وطَلَبْتُ الشي ء أَطْلُبُهُ: أي أردته وابتغيتُه.

ص: 262

1- أُنظر: لسان العرب، وكتاب العين، ومجمع البحرين، وغيرها: مادة «بطر».

المفردة السادسة: النجاح

النُّجْحُ والنَّجاحُ: الظَّفَرُ بالشي ء. وقد أَنْجَحَ وقد نَجَحَتْ حاجتي وأَنْجَحتْ وأَنْجَحْتُها لك، وأَنْجَحَها الله تعالي: أَسْعَفَني بإِدراكها. يقال: نَجَحَ فلان، وأَنْجَحَ، إذا أصاب طَلِبته، وقد أَنْجَحْتُ حاجته إذا قضيتُها له، وتَنَجَّحْتُ الحاجةَ واسْتَنْجَحْتُها إذا تَنَجَّزْتُها، ونَجَحَتْ هي ونَجَحَ أَمْرُ فلان: تَيَسَّرَ وسَهُل، وسار فلانٌ سيراً نَجِيحاً، أَي وَشِيكاً، وسَيرٌ ناجِحٌ ونَجِيحٌ: وَشِيك، ورجلٌ نَجِيحٌ: مُنْجحُ الحاجات، ورأْيٌ نَجِيحٌ: صواب.

المفردة السابعة: الصلاح

الصلاح: ضدّ الفساد، والإصلاح: نقيض الإفساد، والاسْتِصْلاح: نقيض الاستفساد، و«أَصْلَحَ:» أتي «بِالصَّلاحِ،» وَهُوَ الْخَيْرُ والصواب.

وفي (مجمع البحرين): قوله: (أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) التأليف بينهم بالمودّة، وأَصْلَحَ الله المؤمن، أي: فعل تعالي بعبده ما فيه الصلاحُ والنفع، أَصْلَحْتُ بين القوم: وفّقت.

وفي الكتاب العزيز:

البقرة: (وَإِذا قيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ).البقرة: (ويَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامي قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ والله يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ولَوْ شاءَ الله لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

النساء: (لا خَيْرَ في كَثيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ومَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ الله فَسَوْفَ نُؤْتيهِ أَجْراً عَظيماً).

الأعراف: (وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها).

هود: (قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلي بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ورَزَقَني مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وما أُريدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلي ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُريدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وما تَوْفيقي إِلاَّ بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ أُنيبُ).

الحُجُرات:: (وإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَي الْأُخْري فَقاتِلُوا الَّتي تَبْغي حَتَّي تَفيءَ إِلي أَمْرِ الله فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وأَقْسِطُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطين).

الحُجُرات: (إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

ومن نماذج الإصلاح في الحديث:

الكليني، عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن حمّاد بن عثمان، عن الحسن الصيقل قال: قلتُ لأبي عبدالله (عليه السلام) :: إنّا قد روينا عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول يوسف (عليه السلام) : (أَيَّتُها العِيرُ إِنَّكُم لَسَارِقون)َ، فقال:: واللهِ ما سرقوا،، وما كذب! وقال إبراهيم (عليه السلام) :: (بَل فَعَلَهُ كَبيرُهُم هَذا فَسئَلوهُم إن كانُوا يَنطِقون)، فقال:: واللهِ ما فعلوا،، وما كذب! قال: فقال أبو عبد الله (عليه السلام) :: ما عندكم فيها يا

صيقل؟

قال: فقلت: ما عندنا فيها إلّا التسليم. قال: فقال: إنّ الله أحبّ اثنين وأبغض اثنين، أحبّ الخطر فيما بين الصفّين، وأحبّ الكذب في الإصلاح، وأبغض الخطر في الطرقات، وأبغض الكذب في غير الإصلاح، إنّ إبراهيم (عليه السلام) إنّما قال: (بَل فَعَلَهُ كَبيرُهُم هَذا) إرادة الإصلاح، ودلالةً علي أنّهم لا يفعلون، وقال يوسف (عليه السلام) إرادة الإصلاح.

الكافي، عنه، عن أبيه، عن صفوان، عن أبي مخلّد السرّاج، عن عيسي بن حسّان قال:: سمعتُ أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: كلّ كذبٍ مسؤولٌ عنه صاحبه يوماً، إلّا كذباً في ثلاثة: رجلٌ: كائدٌ في حربه فهو موضوعٌ عنه، أو رجلٌ أصلح بين اثنين يلقي هذا بغير ما يلقي به هذا يريد بذلك الإصلاح ما بينهما، أو رجلٌ وعد أهله شيئاً وهو لا يُريد أن يتمّ لهم ((1)).

الكليني، عن عليّ بن إبراهيم وغيره بأسانيد مختلفة رفعوه، قالوا: إنّماهدمت قريشُ الكعبة لأنّ السيل كان يأتيهم من أعلي مكّة فيدخلها، فانصدعت وسرق من الكعبة غزال من ذهب رجلاه من جوهر، وكان حائطها قصيراً، وكان ذلك قبل مبعث النبيّ (صلي الله عليه و آله) بثلاثين سنة، فأرادت قريش أن يهدموا الكعبة ويبنوها ويزيدوا في عرصتها، ثمّ أشفقوا من ذلك وخافوا إن وضعوا فيها المعاول أن تنزل عليهم عقوبة، فقال الوليد ابن المغيرة:: دعوني أبدأ، فإن كان لله رضيً لم يصبني شي ء، وإن كان غير ذلك كففنا. فصعد علي الكعبة وحرّك منه حجراً، فخرجت عليه

1- الكافي: 2 / 342 ح 17.

حيّة وانكسفت الشمس، فلمّا رأوا ذلك بكوا وتضرّعوا وقالوا: اللّهمّ إنّا لا نريد إلّا الإصلاح، فغابت عنهم الحيّة، فهدموه ونحّوا حجارته حوله حتّي بلغوا القواعد الّتي وضعها إبراهيم ((1)).

التلويح السابع: موارد الاتّهام المردودة في الوصيّة

ماذا كان يقابل الخروج من المدينة؟!

لو لم يخرج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة، فما هي الخيارات المتاحة الّتي يمكن أن يأخذ بها _ والكلام دائماً حسب البحث التاريخيّ فقط _ ؟

الجواب الجاهز الواضح لهذا السؤال: أن يكون الإمام مخيَّراً _ وفق سلوكيّات القرد المخمور _ بين خيارين لا ثالث لهما: إمّا أن يبايع، أو أن يُقتَل.. الخيار بين السلّة والذلّة.. وهو لا يُقتل إلّا أن تكثر القتلي بينالطرفين، إذ يأبي الله له أن يختار الدنيّة، ويأبي سيّد الشهداء (عليه السلام) أن يعطي بيده إعطاء الذليل ((2)).

وهذا ما عجزت عنه العقول والأوهام والأحلام أن تدركه وتعيه وتستوعبه، فظنّ الناس _ سيّما مَن لا يعتقد بعصمة الإمام (عليه السلام) وإمامته _ أنّ عمله هذا غير مبرّر، ويلزم منه ما سينفيه من محاذير في متن الوصيّة.

فقد بايعت الأُمّة جمعاً في شرق الأرض الّتي يقطنها المسلمون يومها

1- الكافي: 2 / 217 ح 4.

2- نرجو أن لا يتعب المتابع من تكرار هذه الخيارات طيلة البحث، لأنّها العماد الّذي قام عليه، فلابدّ أن يتكرّر في كلّ مفصلٍ من مفاصله.

وغربها، ولم يبقَ من البلدان بلادٌ إلّا وقد خضعَت وخنعَت وأعلنت الطاعة، وما يسمّونه بلزوم الجماعة، فلماذا يخرج الإمام الحسين (عليه السلام) تاركاً المدينة إلي مكّة؟

فإنّ التقبّض عن البيعة ورفضها بالكامل واختيار القتل عليها، لا يهضمه الجاهلون ولا يدركه العالمون، فهم يرونه في حساباتهم الباطلة أشراً وبطراً و إفساداً وظلماً..

وهذه التهم الأربعة البائسة والتصوّرات الفاسدة قالها وتصوّرها الكثيرون ممّن عاصر الإمام (عليه السلام) ، والكثيرون ممّن لحق إلي يوم الناس هذا، وقد عبّروا عنها بتعابير مختلفة، فمنهم من صرّح بذلك ومنهم من لوّح، سواءً كان من الأصدقاء أو من الأعداء أو من المقرّبين أو من المبعّدين.

وقد تبيّن لنا في التلويح السابق معني الكلمات التي ذكرها الإمام:«الأشر، البطر، الفساد، الظلم»..

وهي عناوين أربعة دأب الخصوم والجهلة من المعاصرين ومَن تبعهم إلي اليوم علي ذكرها، وقد حصر الإمام (عليه السلام) جميع ما يمكن أن يقال أو يفسّر به خروجه أو يختلج في صدرٍ لم يفقه ما فعله الإمام (عليه السلام) ، فهي عناوين جامعة شاملة تستوعب أيّ تصوّر أو تفسير أو تهمة وافتراء يمكن أن يُرمي به خروجه من المدينة ورفضه للبيعة..

فلا يقال عنه: إنّه كان أشراً أو بطراً _ والعياذ بالله _، وإنّه كان في راحة بالٍ وسعة حالٍ يبحث عن المغامرة ويرتكب المخاطرة، لأنّ النعمة

قد أطغته وفراغ البال قد دعاه لركوب أمواج الفتن والتفنّن في تذوّق المحن، والخروج من السرّ الّذي يجعله مجهولاً مغموراً إلي العلن والتعريف باسمه والتنويه بموقفه ودعوة الناس إلي الإشادة به..

إنّه ليس مغامراً، كما يعبَّر عنه في هذا الزمان، وليس ممّن يبحث عن المواقف الصعبة ويهوي المجازفة وتستخفّه المخاطرة..

كما إنّه لم يكن في خروجه هذا مُفسِداً للأُمّة، ولا مفسداً للمجتمع، ولا مفسداً كما هم المفسدون الخارجون عن القانون، الباحثون عن الهرج والمرج وإرباك الأمن الاجتماعيّ، وطلّاب الجاه والوجاهة والدنيا ولو مزّق النسيج الاجتماعيّ وسلب الأمن والأمان من الناس..

هكذا يُتّهم خامس أصحاب الكساء (عليهم السلام) ، وقد تعاملوا ولا زالوا يتعاملون معه بهذا النفَس الّذي يُزكم بخره الأُنوفَ والأرواح، إذ قالواويقولون عنه: إنّه شقّ العصا، وفرّق الجماعة، وتمرّد علي السلطان، وورّط الناس، وأجبر الحاكم علي قتله لأنّه نازعه سلطانه، وهو يعلم أنّه لا يبلغ ذلك، وفي هذا فساد الأُمّة وإفسادها، وشقٌّ لعصا الأُمّة ...

فردّ سيّد الشهداء (عليه السلام) علي هذه الطائفة من الجهلة وقاصري النظر والعتاة والأوغاد والطغاة والمتمرّسين في قلب حقائق الدين والأخلاق والقيم..

تماماً كما ردّ (عليه السلام) علي مَن زعم زُوراً أنّ في رفضه للبيعة وخروجه من المدينة تجنّباً لإراقة الدم الحرام فيها وهتك حرمتها ظلماً، فأجابهم أن ليس في خروجه هذا تجاوزاً للحدّ ولا وضعاً للشيء في غير موضعه، وإنّما

هو ذات العمل بحدود الله وهو عين الحكمة والصواب.

ولا ـ نحسب أنّنا نحتاج ـ ونحن نقصد الاختصار وتناول الموضوع علي عجل ـ إلي ذكر الشواهد والأدلّة والأقوال من المعاصرين للإمام (عليه السلام) ومن تبعهم إلي اليوم، ممّن اجترأ ووصف خروج الإمام (عليه السلام) بما نفاه هو عن نفسه (عليه السلام) .

فكأنّ لسان حال القوم مَن صرّح منهم ومن لم يصرّح: لماذا يخرج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة؟ فليبقَ فيها ويناول ويبايع ويدخل فيما دخل فيه الناس طرّاً، فلا يعرّض نفسه للقتل ولا الهجرة والتشريد، أمّا وقد أبي فخروجه إإذن يكون أشراً وبطراً أو فساداً وظلماً ـ والعياذ باللهمن هذا القول ـ ..

فردّ سيّد الشهداء (عليه السلام) علي هؤلاء بهذه الوصيّة؛ ليفهمهم أنّ خروجه ليس كما يزعمون!

التلويح الثامن: الحصر تفسيرٌ للنفي

اشارة

لمّا لم يكن خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة أشراً ولا ـ بطراً ولا إفساداً ولا ظلماً، فهو خروجٌ حكيمٌ موزونٌ مدروسٌ وفق الموازين الشرعيّة علي كلّ المباني والمعتقدات.

لذا جاءت جملة الحصر بعد النفي هنا؛ لتبيّن هذه الحقيقة، وتشرح أنّ الخروج الّذي نفيَت عنه تلك الأوصاف يتّصف بالأوصاف المذكورة في جملة الحصر.

فجاءت عبارة الحصر لتفسير الخروج نفسه، ويمكن أن نفهم الحصر

علي أحد الوجوه:

الوجه الأوّل:

أن يكون الحصر خاصّاً بما جاء بعده علي نحو الخصوص.. «لطلب النجاح والصلاح»، وما تلا هذه الجملة كلّه يكون شرحاً لها وتفصيلاً لإجمالها، فيكون المعني حينئذ:

إنّي إنّما خرجتُ لطلب النجاح والصلاح، وسأطلب النجاح والصلاح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

الوجه الثاني:

أن تكون فقرات الجملة كلّها مورداً للحصر كلٌّ علي حِدة، أي: إنّما خرجتُ لطلب النجاح والصلاح، ولطلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهكذا.

الوجه الثالث:

أن يكون الحصر خاصّاً بطلب النجاح والصلاح، وما بعدها يكون عملاً جديداً يريد أن يقوم به، ويشهد له اختلاف الفعل واختفاء العطف.. «طلب، أُريد، أسير».. رغم أنّ المعني قد يكون واحداً في الفعلين الأوّلَين، بيد أنّ التغيير له دلالاته.

التلويح التاسع: التقابل بين النفي والحصر

يُلاحَظ أنّ الموارد الّتي نُفيَت في أوّل الكلام ترتبط ارتباط تقابلٍ مع الموارد الّتي وردَت في جملة الحصر.

فقد نفي في أوّل الكلام أن يكون خروجُه أشراً أو بطراً، وأثبت مقابله أنّه خرج لطلب النجاح والصلاح..

ونفي أن يكون في خروجه مُفسِداً، وأثبت بإزائه أنّه يريد أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر.

ونفي أن يكون في خروجه ظالماً، وأثبت في مقابله أنّه يسير بسيرة جدّه وأبيه والخلفاء الراشدين!فالأشر البطر ليس له هدفٌ معقولٌ منطقيّ، وهو عبثيّ لا يروم من عمله سوي المغامرة وركوب الأهوال واستشعار لذّة المخاطرة، وحبّ المغامرة يأتي من الفراغ والشبع والطغيان علي النعمة بعد الاستمكان منها.. وهذا ما نفاه سيّد الشهداء (عليه السلام) عن حركته وخروجه من المدينة..

وأثبت في مقابله أنّ الخروج له هدفٌ محدَّد، ويقصد النجاح والصلاح، فليس هو أشِرٌ ولا بطر، وليس في خروجه شقٌّ للعصا ولا تفريقٌ للأُمّة، وفق معني الصلاح الّذي ذكره الطريحي في (المجمع): (أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ): التأليف بينهم بالمودّة، وأَصْلَحَ الله المؤمن: أي فعل تعالي بعبده ما فيه الصَّلاحُ والنفع، أَصْلَحْتُ بين القوم: وفّقت.

ثمّ ذكر الإفساد، وقابله بما يصلحه ويعالجه ويقضي عليه، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أهمّ وأعظم وأقوي الوسائل الفاعلة لمحاربة الفسادد والقضاء عليه، فدواء الفساد والوصفة الناجعة لمعالجته إنّما يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

ثمّ ختم بنفي الظلم، والظلم: هو مجاوزة الحدّ والميل عن القصد ووضع

الشـيء في غير موضـعه وأخذ حقّ الغير.. وقابله بأنّه لم يفعل شيئاً ممّا يعنيه الظلم، لأنّه إنّما يخرج عملاً بسيرة النبيّ (صلي الله عليه و آله) والوصيّ (عليه السلام) والخلفاء..

ومَن سار بهذه السيرة فهو ليس ظالماً ولا متجاوزاً للحدّ ولا معتدياًعلي حقّ أحد..

وبهذه المقابلة يمكن أن يفكّ لغز استعمال «الخلفاء الراشدين»، حيث يُقال باختصارٍ شديد:

إنّ مَن يعتقد بسـيرة النبيّ (صـلي الله عليه و آله) والوصـيّ (عليه السـلام) ، يري خروج الإمام (عليه السـلام) موافقاً لها، ومَن يعتقد بسـيرة الخلفاء يري ذلك أيضاً، فخروجه (عليه السـلام) موافقٌ لسـيرة الماضـين حقّاً كانوا أو باطلاً.. فهو لـم يظلم بخروجه علي كلّ تقديرٍ ووفق أيّ اعتقاد، وتقبّضه عن البيعة للقرد المخمور الّذي سـلّطه بالقهر والجور أبوه علي رقاب المسـلمين لا يحيد عن سيرة حتّي الخلفاء الّذين سبقوه الّذين يصـفهم الناس بـ-- «الراشدين».. وبهذا أقام سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) الحجّة علي العالمين، لا يخرج عن دائرة إلزامه أحدٌ من المؤمنين وممّن تسمَّوا بالمسلمين!

التلويح العاشر: معني عبارة الحصر

اشارة

يمكن أن نفهم ما ورد من دلالاتٍ سوّرها الحصر من خلال التلميحات التالية:

التلميح الأوّل: اتّحاد الخروج

ربّما تكشّف لنا من خلال ما ذكرناه آنفاً أنّ الخروج المنفيّ هو نفسه الخروج الوارد في الحصـر، فهو (عليه السلام) نفي خصالاً عن خروجه منالمدينة، وأثبت خصالاً لنفس ذلك الخروج من المدينة، ولم يقصد خروجاً آخر في قوله: «وإنّما خرجتُ لطلب..».

وهـذا التلميح في غاية الأهمّيّة؛ لأنّ أخذه بنظر الاعتبار يجعل الحديث محصوراً عن الخطوة الأُولي من خطوات الحركة الحسـينيّة كحركة انتقالٍ جغرافيّ ومغادرة بلد والاتّجاه نحو بلدٍ آخَر بعينه، ولا يشمل والحال هذه الحديث عن مجمل الخروج والانتقال.

ولو تسامحنـا في الاسـتعمال وعمّمنـا الخروج في الموضـعين، وقلنـا إنّ المقصود هو مطلق خروجه (عليه السـلام) ، فـإنّه يبقي المعني لا يتجاوز إرادة حركة الانتقال الجغرافيّ والسير في الأرض حيثما كانت الوجهة، إن مكّة أو غيرها ممّا سيليها من البلدان بما فيها العراق.

التلميح الثاني: اتّصاف نفس الخروج بالخصال المذكورة

في مواجهة مَن زعم أو اتّهم أو سـيفتري ويتّهم في المستقبل، ويُخضع عمل سيّد الشهداء (عليه السلام) للسؤال والتشكيك بجدوي مغادرة المدينـة، لأنّهم كانوا يعتقـدون أنّ البقاء فيها والمناولـة أسـلم وأحكم وأبلغ في التأثير، وأتمّ وأكثر احتياطاً للدين ولشؤون المسـلمين وحفظ عصاهم من الانشـقاق وكلمتهم من الاختلاف، والحيلولة دون تجرّأ القرود علي الدماء المقدّسة ومحاولة إبقاء سـيّد الشهداء (عليه السلام) علي قيد الحياة، لئلّا تأخذه سيوف الظالمين والمعتدين، كذا كانوا يزعمون، ولا يزالون..

في مواجهة هذا النمط البائس من التحليل والتفسير والتشخيص العليلالكليل المريض العاجز الفاشل، سطّر سيّد الشهداء (عليه السلام) في وصيّته ما يدفع عن هذا الخروج بالذات، وبيّن لهم أنّ ذات هذا الخروج والانتقال الجغرافيّ من بلدٍ إلي بلدٍ فيه هذه الخصال..

ففي خروجه هذا يتحقّق النجاح والصلاح للأُمّة، وفي خروجه هذا يتحقّق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي خروجه هذا يقيم السنّة ويتحقّق السير بسيرة النبي (صلي الله عليه و آله) والوصيّ (عليه السلام) ..

فنفس الخروج نجاحٌ وصلاحٌ وأمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر وسيرٌ بسيرة النبيّ (صلي الله عليه و آله) والوصيّ (عليه السلام) ..

فالحديث ينصبّ ـ أوّلاً وبالذات ـ علي هذه الحركة الجغرافيّة، وأنّ الخصال المذكورة تتحقّق بهذا الفعل الخارجيّ الّذي عزم عليه الإمام (عليه السلام) ومضي فيه، وأنّ مجرّد الخروج يفي بالمقصود.

ويشهد لذلك ـ بالإضافة إلي ما مرّ ـ قوله (عليه السلام) : «وأسير بسيرة جدّي ...»، ولم يقل: أسير فيكم.. فهو لا يريد ـ حسب هذا الفهم من السياق ـ أن يسير بسيرة جدّه بالتعامل مع أحد، وإنّما يريد أن يسير هو بنفسه بسيرة جدّه ويقيمها بفعله الخاصّ، وهو (الخروج) هنا، لا أنّه يريد أن يقيمها بين الناس بأفعالٍ تأتي فيما بعد.

وربّما يفهم من ذلك معني «طلب النجاح والصلاح»، بل حتّي معني «طلب الإصلاح»، فالإصلاح هو التوفيق وردم الخلاف أيضاً.

فيكون فعل المضارع «أُريد» و«أسير» للدلالة علي الحاضر الحاصل

بعد الخروج، لا للدلالة علي المستقبل القريب أو البعيد.

وبكلمة: فإنّ الخروج من المدينة تترتّب عليه هذه الخصال ويُنتِج هذه الفوائد والثمار.

التلميح الثالث: خرج ليحقّق الغرض

يمكن أن تُفهَم العبارة بفهمٍ آخَر، بأن يقال: إنّ ما بعد الحصر ورد كتعليل للخروج، علي نحو العلّة الغائيّة، والفرق بين هذا التلميح والتلميح السابق أنّ التلميح السابق كان يفسّر نفس الفعل، فيما يرتّب هذا التلميح الخصال المذكورة كمعلولاتٍ مستهدفةٍ مقصودةٍ من الخروج، لا أنّها تتحقّق بمجرّد حصول الخروج..

فالإمام (عليه السلام) يذكر أنّه إنّما ترك وطن جدّه وغادر إلي مكّة، ليطلب ويبحث عن النجاح والصلاح لهذه الأُمّة، إذ لا يمكن أن يحقّقها في المدينة، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فهو خارجٌ لأداء ما لم يتحقّق بالبقاء في المدينة، كأن يكون حضوره في مكّة يوفّر له فرصة الإصلاح والأمر بالمعروف مثلاً، بل مطلق الخروج، سواءً كان إلي مكّة أو غيرها من البلدان.

التلميح الرابع: الخروج بمعني الحركة المعارضة

لو فرضنا أنّ معني الخروج هنا هو «المعني الاصطلاحيّ» الخاصّ، أي: إنّما قمتُ للمعارضة ومواجهة النظام الحاكم وغيرها من المؤدّيات الراشحة عن المعني المصطلح..

فإنّ هذا المعني لا يستقيم مع سياق الوصيّة السابق، ولا ينسجم مع سياقها اللاحق.

أمّا عدم الاستقامة مع السابق، فقد مرّ الحديث فيه بلحاظاتٍ شتّي وعباراتٍ مختلفة، وعرفنا ثمّة أنّ الخروج يأبي تفسيره بالمعني المصطلح والمواجهة للنظام.

وأمّا عدم الانسجام مع اللاحق، فإنّ الوصيّة تتحدّث عن جملةٍ من الشعارات الّتي رُفعَت _ حسب هذا الفهم _ كطلب النجاح والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة سيرة النبيّ (صلي الله عليه و آله) والوصيّ (عليه السلام) ، بيد أنّها تستمرّ لتبيّن الخيارات المترتّبة علي قبول الآخر أو ردّه.

وليس في أيّ خيارٍ منها ذكرٌ أو إشارةٌ أو تصريحٌ أو تلويحٌ أو أيّ دلالةٍ ظاهرة أو باطنة تفيد أنّ المواجهة أو مقابلة السلطة أو الحكّام سواءً كانوا محلّيّين أو رؤوس السلطة بالقوّة والحرب والنزاع المسلّح والتهديد بالإبادة والسحق والإسقاط وغيرها من لوازم الخروج المصطلح.. إذ إنّه جعل ما يقابل الشعارات فرض قبولها، لأنّها الحقّ، أو ردّها فهو يصبر، كما سيأتي بعد قليل.

التلويح الحادي عشر: الخيارات علي فرض القبول والردّ

اشارة

هكذا شرح الإمام _ وفق الوصيّة _ موقفه وفسّر خروجه من المدينة كإجراءٍ تلا ما جري عليه في المدينة، ثمّ قال بعد ذلك:فمَن قبلني بقبول الحقّ فالله أَولي بالحقّ، ومن ردّ علَيّ هذا أصبر حتّي يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ، ويحكم بيني وبينهم بالحقّ وهو خير الحاكمين.

بعد أن تبيّنت المسوّغات الكافية لخروجه من المدينة، افترض

الإمام (عليه السلام) أنّ الناس سيكونون علي صنفين في طريقة تعاملهم معها واستيعابهم وإدراكهم وتفهّمهم:

الصنف الأوّل: مَن يقبل

اشارة

نحاول استجلاء ما تضمّنَته هذه العبارة من الوصيّة من خلال الإشارات التالية:

الإشارة الأُولي: مَن قبلني

في تعبير الوصيّة إشعارٌ يحسن الالتفات إليه، إذ إنّ الوصيّة نفَت ما نفَت وأثبتَت ما أثبتَت، وفيها ركنٌ مهمّ من أركانها، وهو كاتب الوصيّة نفسه، وكان بالإمكان أن يقول الإمام (عليه السلام) : فمن قبل منّي أو من قبل ما جئتُ به وذكرته كتفسير أو كأهداف لخروجي، بيد إنّه ركّز هنا علي قبوله هو بشخصه صلوات الله عليه: «قبلني»، وفرّع بالفاء علي ما سبق، ولم يقل: قبل ما أقول.. فالقبول والردّ عليه يتعلّق به شخصيّاً، وإن كان باعتباره قد صرّح بقصده لتلك الأهداف والأغراض الّتي رتّبها علي خروجه، فمحور الوصيّة الذات المقدّسة المتمثّلة بسيّد الشهداء (عليه السلام) ، وهذا الوجود الخارجيّ المقدَّس، إمّا أن يُقبل هو الحسين (عليه السلام) أو يُردّعليه.

الإشارة الثانية: الإمام هو الحقّ

يبدو أنّ «الباء» في قوله: ««بقبول الحقّ»» باء السببيّة، أي: مَن قبلني بسبب قبوله للحقّ، إذ إنّ الإمام (عليه السلام) هو الحقّ بعينه، يدور معه الحقّ (عليه السلام) حيثما دار، فمن يقبل الحقّ فإنّه لا شكّ سيقبل الإمام (عليه السلام) ،

ومَن قَبِل الإمام (عليه السلام) فإنّه لا محالة يكون قد قبل الحقّ..

فالإمام (عليه السلام) هو الحقّ، وما جاء به هو الحقّ، ومن قبله إنّما قبل الحقّ.

الإشارة الثالثة: الله أَولي بالحقّ

قال (عليه السلام) :: فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولي بالحقّ..

يمكن أن تُفهَم العبارة بأحد فهمين:

الفهم الأوّل:

الإمـام هو الحقّ المطلَق الّـذي لا يشوبه الباطل أبـداً، فمن قبله إنّما يقبله بسـبب قبوله الحقّ، فمن يقبل الحقّ يقبل الإمام، ومن يقبل الإمام إنّما هو قبل الحقّ، إذ إنّ الحقّ يدور معه حيثما دار.. والله هو الحقّ، ومَن أَولي من الحقّ بقبول الحقّ.

الفهم الثاني:

إنّ الإمـام هو الحقّ، ومن يقبله إنّمـا يقبـل الحقّ لأنّـه يتّبعه، والله أَوليبقبول الحقّ.. إلي هنـا يشترك الفهمـان، ويفترق هـذا الفهم من حيث النتيجـة اللازمة، فكأنّ الإمام يقول: إنّما خرجتُ خروجاً حقّاً، والله أَولي بقبول الحقّ منّي، فإذا قبلني الله فلا تأخذني بعد ذلك لومة لائم ما ضمنتُ رضي الله برضاه للحقّ، ومن قبلني من بعد فإنّما يقبل الحقّ ويتّبعه.

المهمّ أن يقبلني الله، فإن قبلني الله فليس لغيره عندي أثر.

وقد فسّر الإمام جوانب الحقّ في خروجه، فمن قبل فلنفسه، ومَن أبي

فإنّ الله أولي بقبوله وهو الغاية والمبتغي، ولا قيمة لرضـي غيره وسـخطه وقبوله وردّه وتفهمّه وعدم إدراكه إن كان لا يأتي في طول رضي الله تبارك وتعالي.

*****

كيف كان، فإنّ هذا الصنف يقبل الإمام لقبوله الحقّ، والله أَولي بالحقّ، فالله أَولي بقبول الإمام، وإذا قبل الله استغني عن غيره.. ويكون هذا الصنف من الفائزين، لأنّه قد قبل ما قبله الله.

الصنف الثاني: مَن لم يقبل

اشارة

نحـاول اسـتكشاف مـا ورد في هـذه الفقرة الّتي تُعـدّ من أهمّ فقرات الوصـيّة، بـل لعلّهـا هي الأهمّ علي الإطلاق، لأنّها تحكي وتعلن عن الموقف النهائيّ والنتيجـة الّتي تحسم الموقف وتُنهي المشـهد، وتسـلك المقـدّمات في خيطٍ يربطها بالنتيجة المتوخّاة، وسوف نتناولها من خلالالإضاءات التالية:

الضوء الأوّل: تقابل القبول والردّ

قـال قبـل قليـل: «مَن قبلني»، ويقول هنا: «ومَن ردّ علَيّ».. ولـم يقل: مَن ردّني، فهو الحقّ والحقّ لا يُردّ، وهو الإمام، وليس للناس أن يردّوه وقد نصبه الله وعيّنه.

أجل! ربما ردّ عليه المبطلون العتاة المردة العصاة الجحدة.

الضوء الثاني: ارتباط الصدر والذيل

ربّما كان من الأنسب أن يقدَّم هذا الضوء في بداية التلويح الحادي

ص: 279

عشر، وقد أشرنا إليه إجمالاً فيما سبق في المقدّمات، بيد أنّنا ذكرناه هنا للأهمّيّة ولارتباطه الوثيق بهذه النتيجة المفاجئة.

إنّ فرضَي القبول والردّ المنصوص عليها في هذه الوصيّة يترتّب علي ما ذكره سيّد الشهداء (عليه السلام) في وصيّته، أي إنّه أبان علل خروجه وفسّره، ثمّ جعل يقسّم الناس إلي صنفين في تعاملهم مع ما قاله في الوصيّة، فهم إمّا في صنف من قَبِلَه، أو في صنف من ردّ عليه، والمقصود ردّ ما كشف عنه من أغراض لخروجه.

فلا يمكن ـ والحال هذه ـ أن يُبتَر الصدرُ عن الذيل، أو يُفترَض أنّ هذا الكلام مُستأنَفٌ لا علاقة له ولا ارتباط بما سبق، وإنّما هو كلامٌ مترابطٌ متماسكٌ محبوكٌ تمتدّ وشائجه لترسم موقفاً واحداً لسيّدالشهداء (عليه السلام) منذ خروجه لهذه الأغراض إلي موقفه وتعامله مع الناس علي اختلافهم في ردود أفعالهم في القبول والردّ..

وقد ذكر ـ قبل قليل ـ موقفه ممّن قَبِلَه، وقال: إنّه يقبله بقبول الحقّ، والله أَولي بالحقّ..

وهنا يذكر موقفه ممّن يردّ عليه ولا يقبله، ويشهد له قوله: «مَن ردّ علَيّ هذا»، إذ جاء باسم الإشارة للدلالة علي ما قال.

الضوء الثالث: معني الصبر

في كتاب (العين): الصبر نقيض الجزع.

وفي (المجمع): الصبر وهو حبس النفس عن إظهار الجزع. وعن بعض الأعلام: الصبر حبس النفس علي المكروه امتثالاً لأمر الله تعالي،

وهو من أفضل الأعمال.

وفي (اللسان) و(النهاية): في أسماء الله تعالي: (الصَّبُور)، هو الّذي لا يُعاجِل العصاة بالانتقام، وهو من أبنية المبالغة، ومعناه قريبٌ من معني الحَليم، والفرق بينهما أنّ المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور كما يأمنها في صفة الحليم.

الضوء الرابع: تقابل الردّ والصبر

يبدو أنّها مفاجأةٌ غير محسوبة،، ومباغتة غير متوقّعة، وأخذة سريعة خاطفة، وانفراج بعد كظمة حبست الأنفاس في الصدور، وإيقاع يدعو القارئ إلي الاستبطان العميق والتفكّر البعيد، وخاتمة تُشعِر الإنسان بلوعةٍ تذوب لها القلوب وتغرق لها الآماق بالدموع، واستشعار يحكّ في أعماق الصدور جروحاً صكّ عليها الملح من المظلوميّة الّتي تبهر الأنفاس بشهيق البكاء وتدمي الحناجر بخناجر الغصص..

خرجت.. وأبنت.. وفسّرت.. وطلبت النجاح والصلاح.. وأرادت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وعزمت علي السير بسيرة النبيّ (صلي الله عليه و آله) والوصيّ (عليه السلام) .. فمن ردّ علَيّ.. أصبر!!

من ردّ علَيّ.. أُواجهه.. أُحاربه.. أُقاتله.. أقتله.. أمحقه.. أكرهه؟!

خرجت لأُقاتل من أجل ما شرحت؟

مَن فسّر الخروج بمعناه الاصطلاحيّ، الخروج ضدّ الطغيان ومواجهة السلطان، يجد في هذه النهاية مفاجأة مروّعة.

مشهد ينتهي بغصّةٍ واحتمالٍ لا توصف صعوبته، ولا تبتلع غصّته،

ص: 281

إذ إنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) ختم الموقف بالصبر.. مَن ردّ علَيّ أصبر!

لقد عرض سيّد الشهداء (عليه السلام) ما عنده وقدّمه بوضوحٍ وبلاغةٍ وفصاحةٍ معهودة في أهل البيت (عليهم السلام) ، فمن قبله بقبول الحقّ فالله أَولي بالحقّ، ومن ردّ عليه، فقد أدّي ما عليه، وسيواجهه بالصبر!

من ردّ علَيّ أصبر.. أصبر.. أصبر..

لقد عزم سيّد الشهداء (عليه السلام) علي الصبر عن القوم حتّي يقضي الله بينه وبينهم، بيد أنّهم عاجلوه ولم يصبروا عليه.. عزم علي الصبر وصبر، ولكنّهم استعجلوا قتله ولم يصبروا..لم يقل: ومَن ردّ علَيّ فإنّي سأُقاتله وأقتله وأقضي عليه وأحكم عليه.. وإنّما قال: أصبر!

يبدو أنّ علينا أنّ نصبر أيضاً ولا نتعجّل.. نصبر ولا نكمل الحديث، فالصبر علي هاتا أحجي!

الضوء الخامس: أمد الصبر

لقد ذكرت الوصيّة أمدَين يكاد يكون أجلهما واحد، إذ إنّ الحكم هو نتيجة القضاء:

حتّي يقضي [الله] بيني وبين القوم بالحقّ، ويحكم بيني وبينهم [بالحقّ]، وهو خير الحاكمين.

متي سيقضي الله بينه وبينهم، ويحكم؟ في الدنيا؟ في الآخرة؟ في الدنيا والآخرة؟ العبارة مطلَقة تشمل الجميع، والله العالم.

ما هو القضاء؟ وكيف قضي ويقضي؟ وما هو الحكم الّذي حكم به

ويحكم وهو خير الحاكمين؟ هذا ما يحتاج إلي بحثٍ مفصَّلٍ مستقلّ لا يسعه هذا المختصر.

الضوء السادس: الصبر بمعني القتل!

في (لسان العرب):

الصَّبْرُ: نَصْب الإِنسان للقَتْل، فهو مَصْبُور. وصَبْرُ الإِنسان علي القَتْل: نَصْبُه عليه، يقال: قَتَلَه صَبْراً، وقد صَبَرَه عليه.

ورجل صَبُورَة ـ بالهاء ـ : مَصْبُورٌ للقتل، حكاه ثعلب. وفي حديثالنبيّ (صلي الله عليه و آله) أَنّه نهي عن قَتْل شي ءٍ من الدواب صَبْراً، قيل: هو أَن يُمْسك الطائرُ أَو غيرُه من ذواتِ الروح يُصْبَر حَيّاً ثمّ يُرْمَي بشيءٍ حتي يُقْتَل. قال: وأَصل الصَّبْر الحَبْس، وكلّ مَن حَبَس شيئاً فقد صَبَرَه، ومنه الحديث: نهي عن المَصْبُورة، ونَهَي عن صَبْرِ ذِي الرُّوح، والمَصبُورة الّتي نهي عنها هي المَحْبُوسَة علي المَوْت، وكلّ ذي روحٍ يصبر حيّاً ثمّ يُرمي حتّي يُقتَل، فقد قُتِل صبراً.

فربّما يقال: قوله: أصبر، يعني أصبر للقتل..

بيد أنّه لا يستقيم، إذ أنّ السياق لا يساعد عليه بتاتاً، وهو معنيً أجنبيّ لا ينسجم مع استرسال العبارة.. هذا من جهة.

ومن جهةٍ أُخري: ينبغي أن يُقرأ بضمّ الهمزة: «أُصبر»؛ لتعطي المعني المذكور، وهو غريب، باعتبار أنّ هذه القراءة لا تنسجم مع السياق، ولم يعهد أنّ أحداً من الأوّلين والآخرين قرأها بهذه القراءة، وباعتبار أنّ هذه الصيغة لم تعهد في الاستعمال، لأنّ الصبر هنا صفةٌ للقتل، فلا يصاغ

منها فعل، فيقال: أَقتَل صبراً، ولا يقال: أَصبر.

ثمّ إنّ «أُصبر» ـ بالضمّ ـ فِعل غيره وليس فعله، ولا تستقيم العبارة، إلّا أن يقول مثلاً: «أُقاتل حتّي أُصبر»، أو: «أَصبر حتّي أُصبر»..

ولو سلّمنا هذه القراءة، فإنّ النتيجة لا تتغيّر، وستبقي النهاية شجيً وغصصاً، وتحمل نفس الدلالات في معني الصبر، إذ إنّه سيكون بمعني أنّ من ردّني فإنّي مستسلمٌ للقتل الّذي يلاحقني، ثمّ لا أُعطي بيديإعطاء الذليل، وبمعني قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة.. وإنّي سأختار القتل الكريم، وسيقضي الله بيني وبينهم، فهي علي كلّ حالٍ لم تخرج عن سياق باقي كلماته (عليه السلام) الّتي أخبر فيها أنّه ملاحقٌ ومطلوب الدم، وأنّ مثله لا يبايع مثل يزيد..

الضوء السابع: جامع الأضواء

تبيّن لنا من خلال ما ذكرته الوصيّة من الموقف مقابل مَن يردّ علي الإمام (عليه السلام) ، ومن مجموع المقدّمات واللواحق، أنّ الوصيّة أجنبيّةٌ تماماً عمّا يحمّل علي ألفاظها إذا لوحظت بشكلٍ عامّ واستوعبت النظرة جميع فقراتها ودُرسَت بمجموعها ككلٍّ مترابطٍ يفسّر بعضها بعضاً ويتبع لاحقها سابقها..

تبيّن أنّ حملها علي معني الخروج بالمعني الاصطلاحيّ أو ما يعبّر عنه اليوم بمواجهة السلطة والخروج إلي ميادين القتال والحرب من أجل أغراض معيّنة، لا يستقيم ولا يساعد عليه نصّ الوصيّة، وإنّما هو فهمٌ حاصلٌ من اجتزاء عبارةٍ مبتورةٍ منقطعةٍ من جملةٍ كاملة، وتحميلها كلّ

ما قد لا تحتمله من المعاني، ومن افتراض سوابقٍ ذهنيّةٍ قبل الدخول في دلالات النصّ..

أمّا إذا أخذتَ بمجموعها، ضمن ظروف صدورها بكلّ تفاصيلها، يتبيّن أنّ الإمام (عليه السلام) فسّر خروجاً معيّناً ووجهه، وكشف عن مسوّغاته وفوائده ونتائجه، ثمّ قال: إنّ مَن ردّ عليه هذا التفسير والمسوّغاتوالفوائد وزعم خلاف ذلك، فإنّه سيصبر حتّي يقضي الله ويحكم بينه وبينهم.

البند الثالث: خاتمة الوصيّة

اشارة

«هذه وصيّتي إليك يا أخي! وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكّلتُ وإليه أُنيب، والسلام عليك وعلي مَن اتّبع الهدي، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم».

تضمّنت الخاتمة نكاتاً مهمّةً أشرنا إلي بعضها في المقدّمات بحكم ضرورة البحث، ونشير إليها هنا إجمالاً مع تتبّع باقي النكات.

النكتة الأُولي: عودٌ علي بدء

أكّدت الوصيّة في أوّلها علي المخاطَب بها، فكانت العبارة صريحةً واضحةً محدّدةً لا لبس فيها ولا تغبيش:

هذا ما أوصي به الحسين بن عليّ بن أبي طالب لأخيه محمّد ابن الحنفيّة المعروف ولد عليّ بن أبي طالب.

فهي منذ البداية موجَّهةٌ لأخيه محمّد بالذات، المحدَّد بالأب والأُمّ،

بحيث يصعب سرايتها إلي غيره من إخوان سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وهم كثيرون، فضلاً عن غيرهم، لا سيّما أنّ الوصيّة صدرت بعد حوارٍ طويلٍ دار بينهما، حيث كانت علامات الحيرة والذهول باديةً علي المولي ابن الحنفيّة.ثمّ عادت في النهاية لتؤكّد هذا الاختصاص بقوله: «هذه وصيّتي إليك يا أخي».. فهي وصيّةٌ لأخيه المميّز في صدرها المشهور بابن الحنفيّة!

من هنا ربّما كان من العسير جدّاً تعميم الوصيّة لغيره، واستفادة كونها وصيّة لجميع العالمين من الأوّلين والآخرين، والحال أنّها لا تتضمّن أيّ إشارةٍ أو قيدٍ أو توضيحٍ أو بيانٍ أو إفادةٍ تساعد علي سراية الوصيّة لغيره.. إلّا أن يقال: إنّها من باب «إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة»، وهو احتمالٌ لطيفٌ يحتاج إلي قرائن لإثباته.

أجل! ربّما كان فيها إشارة ذكرناها في المقدّمة وسيأتي الحديث عنها بعد قليل.

النكتة الثانية: الخطاب بالأُخوّة

كما بدأ الوصيّة بخطاب «لأخيه محمّد»، ختمها أيضاً بخطاب الأُخوّة، فقال: «هذه وصيّتي إليك يا أخي».. وهي بالإضافة إلي ما ذكرناه سابقاً من إشعاراتٍ احتواها «الخطاب بالأخوّة»، فإنّ فيه إشعاراً إضافيّاً هنا ربّما استشعر منه التأكيد علي الأُخوّة، وهذا يعني أنّ الإمام (عليه السلام) لا زال علي أُخوّته مع المولي ابن الحنفيّة، وأن ليس بينهما أيّ كدَرٍ أو حزازةٍ أو مشكلةٍ بسبب ما جري بينهما من حوار وجرّت إليه المواقف من بقاء ابن الحنفيّة وخروج سيّد الثقلين الإمام الحسين (عليه السلام) ، فالمولي المكرّم ابن

الحنفيّة لا زال محبوباً غير ذميم عند سيّد الشهداء (عليه السلام) ..

النكتة الثالثة: وما توفيقي إلّا بالله!

«هذه وصيّتي.. وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكّلتُ وإليه أنيب ...».

قوله: ««وما توفيقي»» مقطعٌ من آية، يمكن أن تكون وحدها شرحاً كافياً وبياناً وافياً، إذ إنّها تجمع كلّ ما ورد في الوصيّة.

قال تعالي:

(قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلي بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَني مِنْهُ رِزْقاً حَسَ ناً وَما أُريدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلي ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُريدُ إِلّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفيقي إِلّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنيبُ) ((1)).

النكتة الرابعة: سلام الختام

ختم الوصيّة بالسلام علي أخيه، سلام المودّع الّذي لا يعود، والمفارقِ الّذي لا يجتمع بعد ذلك اليوم.. وربّما كان في ذلك تأكيدُ بقاءِ علاقة الوداد والمحبّة بين الإمام (عليه السلام) وأخيه.. كما تحتوي علي تأكيد اختصاص الوصيّة بمحمّد ابن الحنفيّة الّذي سلّم عليه بالخصوص بضمير الخطاب.

1- هذه هي الآية 88 من سورة هود، ويحسن تلاوتها مع ما قبلها وما بعدها، فإنّها ترسم مشهداً يوضّح الصورة تماماً.

ثمّ أردف السلام عليه بالسلام علي مَن اتّبع الهدي، وقد تحدّثنا عن ذلك آنفاً، وربّما استشعر من هذا السلام إمكان سراية الوصيّة لغير المخاطَب الأوّل فيها، بيد أنّنا عرفنا أنّ هذا الغير قد ميّزه الإمام (عليه السلام) عنأخيه الّذي بجّله وأكرمه بخطاب أخي، وبالسلام الخاصّ به، ثمّ خاطب من لا يريد أن يسلّم عليه بتحيّة الإسلام (السلام عليكم)، وإنّما خاطبه بالسلام العامّ الّذي يُخاطَب به غير المؤمن عادة، فإن كان ثمّة مخاطبٌ آخَر غير المولي المكرّم، فإنّه ليس ممّن يُعتَدّ بإيمانه، وإنّما هو ممّن يُخاطَب بسلامٍ عامّ يشترط أن يدخل في الإيمان والهدي أوّلاً ليشمله ذلك، تماماً كما علّم الله نبيّه موسي (عليه السلام) ليخاطب فرعون، وكما فعل النبيّ (صلي الله عليه و آله) في كتبه إلي الملوك قبل إسلامهم.

وربّما قيل: إنّه سلامٌ مقيَّدٌ لمن اتّبع الهدي، ليُخرج غير المؤمنين من سلامه، وليس فيه تعريض، وهو إنّما يفيد تماماً عكس ما تقرّر سابقاً، وهو بالتالي استعمالٌ جديدٌ لهذا النمط من السلام.

فيقال: إن صحّ هذا الفهم _ رغم غرابته وندرة استعماله، بل لم نجد له استعمالاً بهذا المعني حسب فحصنا _ فإنّ هذا يعني إنّ الإمام (عليه السلام) سلّم علي القسم الأوّل ممّن ذكرهم في الوصيّة، وهم الّذين قبلوه بقبول الحقّ، إذ إنّ هؤلاء هم مَن اتّبع الهدي.

فإنّ هؤلاء الّذين سلّم عليهم الإمام (عليه السلام) سلاماً عامّاً هم إمّا من يحتاج إلي تفسيرٍ للموقف، لأنّه علي غير هديً فسيتّهم الإمام (عليه السلام) ويفتري عليه بالافتراءات الّتي نفاها الإمام (عليه السلام) بالوصيّة، أو ممّن فهم

كلام الإمام (عليه السلام) الوارد في الوصيّة وقبله بقبول الحقّ، وإن كان الثاني يأباه السياق.وكيف كان، فإنّ الموصي له _ أوّلاً وبالذات _ إنّما هو أخو الإمام الحسين (عليه السلام) مولانا المكرّم محمّد ابن الحنفيّة، وإن كان معه أحدٌ _ أيّاً كان _ فإنّه قد أُشير له إشارةً بعيدةً جدّاً علي فرض خروج الوصيّة منه إلي غيره.

النكتة الخامسة: ختام الخاتمة

أشبعت الخاتمة في الوصيّة بالرجوع والإرجاع إلي الله تبارك وتعالي، فما التوفيق إلّا بالله، وعليه التوكّل وإليه الإنابة، ومنه الحول والقوّة لا من غيره.. إنّه إقدامٌ علي أمرٍ عسيرٍ لا يفقهه الناس، ولا يحتملونه وهم يستهزؤون به، تماماً كما استهزأ قوم شعيبٍ بنبيّهم حينما دعاهم إلي الحقّ، فأجابهم نبيّهم إنّه إنّما يريد الإصلاح ما استطاع، وما التوفيق إلّا من عند الله، فإليه الإنابة وعليه التكلان، ومنه الحول والقوّة، وهو العليّ العظيم.

النكتة السادسة: حياة ابن الحنفيّة

لمّا كان الموصي هو الإمام المعصوم الخامس من أصحاب الكساء (عليهم السلام) ، والوصيّة لا تُفتَح إلّا بعد وفاة الموصي، فهذا يعني أنّ الإمام المعصوم (عليه السلام) قد أخبر بفعله أنّ المولي ابن الحنفيّة سوف يبقي حيّاً إلي ما بعد شهادة أخيه الإمام (عليه السلام) ، إذ لو كان في علم الإمام (عليه السلام) موته قبل ذلك لما جعله وصيّاً، إلّا أن تكون ثمّة مصلحةٌ في الوصيّة له

ص: 289

مطلقاً.

ص: 290

لماذا لم يوصِ الإمامُ لولده زين العابدين (عليهما السلام) ؟

جرت العادة أن يوصي الإمام (عليه السلام) قبل رحيله إلي ولده المعصوم الإمامِ من بعده، وإذا كان سيّد الشهداء (عليه السلام) مُقبِلاً علي عملٍ خاصّ رسم معالمه وخطواته المستقبليّة في هذه الوصيّة، فمَن أَولي بها من ابنه زين العابدين (عليه السلام) الإمام من بعده، ليكمل المشوار ويسير بسيرة أبيه وينفّذ له «مشروعه»!!! الّذي منعوه من إتمامه بقتله؟!

إنّه حدّد أهداف قيامه _ حسب هذه النظرة _ ورسم معالمها وخطواتها ودعا الناس إلي اتّباعها، وعيّن لهم المسار والأهداف وطرق التنفيذ، وقدّم لهم النموذج الأرقي والأسمي والأعلي لترويجه والتضحية والفداء من أجله.. فالأَولي والأجدر به الإمام من بعده؛ فهو الإمام، وبه تقوم مصالح الأنام وصلاحهم ونجاحهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وهو الأولي والأجدر والأكفأ والمكلّف بالسَّير بسيرة النبيّ (صلي الله عليه و آله) والوصيّ (عليه السلام) ، فلماذا يوصي سيّد الشهداء (عليه السلام) لأخيه ويترك ابنه؟!

يمكن الجواب علي هذا السؤال الكبير العريض بعدّة أجوبة، تنسجم مع رأي من ذهب إلي أنّ الوصيّة كانت برنامج عملٍ لمستقبل القيام

الحسينيّ، وليست تفسيراً لخروجه من المدينة خائفاً يترقّب، ويمكن أن يتقدّم هذه الأجوبة إشارةٌ لا يمكننا البتّ بها، وإنّما نذكرها وليس لنا عليها إلي تسويد هذه الأوراق أدلّةٌ ولا شواهد، ولم نجد متَّسعاً من الوقت لإثباتها، وخلاصتها:

ربّما كان ابن أعثم ممّن يقول بإمامة مولانا محمّد ابن الحنفيّة، فجعل الوصيّة له!

نقول هذا ولا نزيد علي ذلك؛ لعدم توفّر المعطيات الكافية للتدليل علي ما ذكرناه، غير أنّه يبقي بمستوي الاحتمال مهما كان ضعيفاً.

*****

وربّما أُجيب علي هذا السؤال: إنّ الإمام (عليه السلام) اختار أخاه ابن الحنفيّة لأنّه يعلم أنّه لم يخرج معه، وأنّه سيبقي حيّاً، وهي في الحقيقة وصيّة لابنه عليّ بن الحسين السجّاد (عليه السلام) الإمام من بعده، وإنّما دفعها إلي أخيه عملاً بالتقيّة، وحمايةً لولده زين العابدين (عليه السلام) ، لئلّا يكون مطمعاً للأعداء وغرضاً لسهامهم، وقتلِه والقضاءِ عليه عاقبة.

بيد أنّ هذا الجواب لا يكاد يصمد، وذلك:

لأنّ الإمام الحسين (عليه السلام) قد نصّ فيها علي اسم أخيه ابن الحنفيّة ونعَتَه نعتاً يجعله المقصود بالذات فيها، وأنّه الموصي له علي وجه الخصوص.

ولأنّ التاريخ والحديث لم يروِ لنا أنّ هذه الوصيّة كانت أمانةً عند ابن الحنفيّة ليدفعها إلي ابن أخيه زين العابدين (عليه السلام) ، ولم يرو لنا _ حسب

فحصنا _ أنّ المولي المكرّم ابن الحنفيّة قد دفعها بالفعل إلي الإمام السجّاد (عليه السلام) .

ولو كانت الوصيّة تخصّ بشكلٍ من الأشكال الإمامَ زين العابدين (عليه السلام) ، لعرف كيف يحتفظ بها ولا يُعلِم بها أحداً، بحيث يكون في مأمنٍ رغم الوصيّة له، تماماً كما فعل مع باقي وصايا الإمامة وأماناتها.

ثمّ إنّ الإمام زين العابدين (عليه السلام) قد خرج مع أبيه سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وبهذا كان قد تعرّض للقتل بالفعل.

والأهمّ من هذا كلّه، أنّنا لم نجد _ في ما رُوي لنا من التاريخ والحديث _ ما يفيد أنّ الإمام زين العابدين (عليه السلام) قد نفّذ هذه الوصيّة بالمعني الّذي يطرحه أصحاب هذا الرأي، إذ إنّ الإمام (عليه السلام) لم يُعهَد عنه سوي ما سمعناه في سيرته من التكتّم والبكاء والنياحة وممارسة مهامّ الإمامة المفوّضة له من الله وفق الأمر الإلهيّ..

وبكلمةٍ:: لم نسمع أنّه فعل ما فعل أبوه، لا هو ولا أولاده الّذين جاؤوا من بعده، وهم الأئمّة المعصومون (عليهم السلام) .

فلو كانت هذه الوصيّة عامّةً شاملةً ترسم برنامج عملٍ لمستقبل حركة سيّد الشهداء (عليه السلام) ومستقبل الأُمّة جمعاء، ودعوةً للاقتداء به، وسلوك نفس الدرب الّذي سلكه، بمعني التزام الخروج بالمعني الاصطلاحيّ من أجل تحقيق الأغراض المرسومة كـ «مشروع عمل»، فلماذا لم يلتزمه أولاده المعصومون (عليهم السلام) ، وهم أَولي الناس بتنفيذ وصيّة أبيهم الحسين (عليه السلام) ؟!

ص: 293

أمّا أن يقال: إنّ الأئمّة (عليهم السـلام) جميعاً قد مارسوا طلب الصـلاح والنجاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسـير بسـيرة النبيّ (صـلي الله عليه و آله) والوصـيّ (عليه السلام) ، لكن لا بنفس الطريقة الّتي عمل بها أبوهـم سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فهذا ما لا ينسجم مع مديات القول بالخروج بالمعني الاصـطلاحيّ.. وإن كانت النصوص المقدّسة مسـتفيضةً للدلالة علي أنّ الأئمّة (عليهم السلام) جميعاً قد فعلوا ذلك، لكن ضمن ضوابط زمن الهدنة.

هل نفّذ ابن الحنفيّة الوصيّة؟

اشارة

إنّ البقيّة من أصحاب الكساء (عليهم السلام) وسيّد الشهداء (عليه السلام) يعلم _ وهو الإمام _ أنّ أخاه ابن الحنفيّة أهلٌ للوصيّة فأوصي له، وخصّه بها دون غيره.

ولا_ يشكّ أحدٌ في سموّ مقام المولي ابن الحنفيّة وعلوّ مرتبته وعظيم منزلته، وأنّه كان ممدوحاً أوصي به الإمام أمير المؤمنين والأئمّة الميامين (عليهم السلام) من بعده، وأنّ الدرجة الرفيعة من التُّقي والتديّن والالتزام وحميّة الدين والغيرة علي الإمام الحسين (عليه السلام) ما بارحت مولانا المكرّم ابن الحنفيّة حتّي أتاه اليقين..

وتنفيذ الوصيّة والعمل بها من لوازم التقوي وضرورات الدين، وقد قبل الوصيّة حسب الفرض، فإن كانت الوصيّة هي برنامج عملٍ ودعوة للتنفيذ، فلابدّ أن يفترض فيه أنّه قد عمل بها ونفّذها، لأنّه هو المخاطب الأوّل فيها علي كلّ تقدير.

فهل نفّذ ابن الحنفيّة الوصيّة؟

لقد أثبت التاريخ والحديث أنّ أولاد سيّد الشهداء المعصومين (عليهم السلام) لم ينفّذوا الوصيّة، إن كانت الوصيّة عمليّة ودعوة.

كما أنّنا لم نسمع في التاريخ قطّ _ حسب فحصنا _ أنّ عمّنا المعظّم

قـد فهم منها أنّها وصـيّة كما فهمها المتأخّرون، إذ إنّنا لم نسـمع عنه موقفاً في التاريـخ يفيـد أنّه قـد فعل ما فعل أخوه الإمام الحسـين (عليه السـلام) مع الحكّام والسلاطين الّذين عاصروه، بل لقد روي لنا ابن أعثم نفسه موقفاً يتنافي مع صلب الوصيّة، وفق هذا الفهم، ونحن نذكره هنا بغضّ النظر عن النفي والإثبات، ومن دون مناقشـته ودراسـته دراسـةً دقيقـة، حيث إنّنا لا نقصد من الإشارة إليه سوي بيان أنّ مولانا عمّ الأئمّـة (عليهم السـلام) لو كان قد فهم منها ما فهمه المتأخّرون لاعتبرها وصـيّةً يلزمه تنفيذها، والحال أنّ ما يرويه عنه ابن أعثم يضادّ ذلك تماماً.

موقف ابن الحنفيّة مع يزيد المخمور حسب رواية ابن أعثم

روي ابن أعثم تحت عنوان (ذكر كتاب يزيد بن معاوية إلي محمّد ابن الحنفيّة ومصيره إليه وأخذ جائزته)، قال:

ثمّ كتب يزيد بن معاوية إلي محمّد بن علي وهو يومئذٍ بالمدينة، فكتب إليه:

أمّا بعـد، فإنّي أسألُ الله لي ولك عملاً صالحاً يرضـي به عنّا، فإنّي لا أري اليوم في بني هاشم رجلاً هو أرجح منك فهماً وعلماً، ولا أحضـر فهمـاً وحكمـاً، ولاـ أبعـد من كلّ سـفَهٍ ودنس، وليس من يتخلّق بالخير تخلّقاً ويتبجّل بالفضل تبجّلاً كمن جبله الله علي الخير جبلاً، وقد عرفنا ذلك منك قـديماً وحديثاًوشاهـداً وغائباً، غير أنّي قد أحببتُ زيارتك والأخذ بالحظّ من رؤيتك ورأيك، فإذا نظرتَ في كتابي هذا فأقبِل إلينا آمناً

مطمئنّاً، أرشدك الله أمرك وغفر لك ذنبك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فلمّا ورد الكتاب علي محمّد بن عليّ، أقبل عليي ابنه جعفر وعبد الله فاستشارهما في ذلك، فقال له ابنه عبد الله: يا أبت! اتّقِ الله في نفسك ولا تصر إليه، فإنّي خائفٌ عليك أن يُلحقك بأخيك الحسين ولا يبالي. فقال محمّد: يا بنيّ، ولكنّي لا أخاف ذلك منه. فقال له ابنه جعفر: يا أبت! إنّه قد ألطفك في كتابه إليك، ولا أظنّ أنّه كتب إلي أحدٍ من قريش، أرشدك الله أمرك وغفر لك ذنبك، أرجو أن يكفّ الله شرّه عنك. فقال محمّد بن علي: يا بُنيّ، إنّي توكّلتُ علي الله الّذي يُمسك السماء أن تقع علي الأرض إلّا بإذنه، وكفي باللّه وكيلاً.

قال: ثمّ تجهّز محمّد بن علي وخرج من المدينة، وسار حتّي قدم علي يزيد بن معاوية بالشام، فلمّا استأذن أذن له وقرّبه وأدناه وأجلسه معه علي سريره، ثمّ أقبل عليه بوجهه فقال:

يا أبا القاسم، آجرنا الله وإيّاك في أبي عبد الله الحسين بن علي، فو الله لئن كان نفعك فقد نفعني، ولئن كان أوجعكفقد أوجعني، ولو كنتُ أنا المتولّي لقتله لَما قتلتُه، ولَدفعت عنه القتل ولو كان بذهاب ناظري!! ولفديتُه بجميع ما ملكت يدي!! وإن كان قد ظلمني وقطع رحمي ونازعني حقّي، ولكنّ عُبيد الله بن زياد لم يعمل برأيي في ذلك، فعجّل عليه القتل

فقتله، ولن يستدرك ما فات، وبعد فإنّه ليس يجب علينا أن نرضي بالدية في حقّنا، ولكن يجب علي أخيك رحمه الله أن ينازعنا حقّنا وما قد خصّنا الله به دون غيرنا، وعزيز علَيَّ ما ناله، والسلام، فهاتِ الآن ما عندك يا أبا القاسم!

قال: فتكلّم محمّد بن علي، فحمد الله وأثني عليه، ثمّ قال:

إنّي قد سمعتُ كلامك، فوصل الله رحمك، ورحم حسيناً وبارك له فيما صار إليه من ثواب ربّه والخُلد الدائم الطويل عند المَلِك الجليل، وقد علمنا أنّ من نقصك فقد نقصنا، ومن عزاك فقد عزانا من فرحٍ وترح، وأظنّ أنّك لو شهدت ذلك بنفسك لكنتَ تري أجمل الرأي والعمل، ولَجانبت أسوأ الرأي والفعل والخطل، والآن فإنّ حاجتي إليك أن لا تُسمعني فيه ما أكره، فإنّه أخي وشقيقي وابن أبي، وإن زعمتَ أنّه ظلمك وقد كان عدوّاً لك كما تقول.

قال: فقال له يزيد:

إنّك لا تسمع فيه إلّا خيراً، ولكن هلمّ فبايعني، واذكر ماعليك من الدَّين حتّي أقضيه عنك!

فقال محمّد بن علي؟ (رضي الله عنه) :

أمّا البيعة فقد بايعتُك، وأمّا ما ذكرتَ من أمر الدَّين فما علَيّ دَينٌ والحمد لله، وإنّي من الله _ تبارك وتعالي _ بكلّ نعمةٍ سابغةٍ لا أقوم بشكرها.

ص: 298

قال: فالتفت يزيـد إلي ابنه خالـد فقال: يا بُنيّ، إنّ ابن عمّك هذا بعيدٌ من اللوم والدنس والكذب، ولو كان غيره كبعض مَن عرفت لقال: علَيّ من الدَّين كذا وكذا؛ ليستغنم أخذ أموالنا.

قال: ثمّ أقبل عليه يزيد فقال: بايعني يا أبا القاسم! فقال: نعم يا أمير المؤمنين.

فقال: إنّي قد أمرتُ لك بثلاثمئة ألف درهم، فابعث مَن يقبضها، إذا أردت الانصراف عنّا أوصلناك إن شاء الله.

قال: فقال له محمّد بن علي؟ (رحمة الله) : أيّها الأمير، لا حاجة لي في هذا المال ولا فيما جئت به.

فقال يزيد: فلا عليك أن تقبضه وتفرّقه فيمن أحببتَ من أهل بيتك. قال: فإنّي قد قبلتُه.

قال: فأنزله يزيد في بعض منازله، وكان محمّد بن عليّ يدخل إليه صباحاً ومساءً، وإذا وفدُ المدينة قد أقبلوا علي يزيد وفيهم المنذر بن الزبير وعبـد الله بن [أبي] عمرو بن حفص بن المغيرةالمخزوميّ وعبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الأنصاريّ، فأقاموا عند يزيد أيّاماً، فأجازهم يزيد لكلّ رجلٍ بخمسين ألف درهم، وأجاز المنذر بن الزبير بمئة ألف درهم.

فلمّا أراد الانصراف إلي المدينة أقبل محمّد بن علي؟ (رضي الله عنه) حتّي دخل علي يزيد، فاستأذنه في الانصراف معهم إلي المدينة، فأذن له في ذلك، ووصله بمئتَي ألف درهمٍ أُخري، وأعطاه

عروضاً بمئتي ألف درهم، ثمّ قال:

يا أبا القاسم، إنّي لا أعلم علي وجه الأرض في مثل اليوم رجلاً هو أعلم منك بالحلال والحرام، وقد كنتُ أحببتُ أن لا تفارقني، وأن تعظني وتأمرني بما فيه حظّي ورشدي، فواللهِ لا أُحبّ أن تنصرف عنّي وأنت ذامٌّ لشيءٍ من أخلاقي.

قال: فقال له محمّد بن علي:

أمّا ما كان منك إلي الحسين فذاك شيءٌ لا تستدرك، وأمّا الآن فإنّي ما رأيتُ منك منذ قدمتُ عليك إلّا خيراً، ولو رأيتُ منك خصلةً أكرهها لَما وسعني السكوت دون ما أنهاك عنها، وأُخبرك بحقّ الله فيها الّذي أخذ الله تبارك وتعالي علي العلماء في علمهم أن يبيّنوه للناس ولا يكتمونه، ولستُ مؤدّياً عنك مَن إلي ورائي من الناس إلّا خيراً، غير أنّي أنهاك عنشرب هذا الخمر المُسكر، فإنّه رجسٌ من عمل الشيطان، وليس من ولي أُمور الأُمّة ودع ي له بالخلافة علي رؤوس الأشهاد علي المنبر كغيره من الناس، فاتّقِ الله في نفسك وتدارك ما فات من أمرك، والسلام.

قال: فسُرّ يزيد بما سمع من محمّد بن عليّ سروراً شديداً، ثمّ قال:

إنّي قابلٌ منك ما أمرتني به، وإنّي أُحبّ أن تكاتبني في كلّ حاجةٍ تعرض لك من صلةٍ أو تعاهد،، ولا تقصّرنّ في ذلك.

ص: 300

فقال محمّد بن علي: أفعل ذلك إن شاء الله، ولا أكون إلّا عند ما تحبّ.

قال: ثمّ ودّعه محمّد بن علي، ورجع إلي المدينة، ففرّق ذلك المال كلّه في أهل بيته وسائر بني هاشم وقريش، [وما] ما سائر النساء والرجال والذرّيّة والموالي إلّا صار إليه شيءٌ من ذلك المال.

ثمّ خرج محمّد بن عليّ من المدينة إلي مكّة، فأقام بها مجاوراً، لا يعرف شيئاً غير الصوم والصلاة ((1)).

****قلنا:: ليس المقام مقام مناقشة الخبر ولا ردّه أو قبوله، بيد أنّنا أردنا أن نشير إلي أنّ ما صدر من سيّد الشهداء (عليه السلام) لأخيه ابن الحنفيّة إن كانت وصيّةً بالمعني المشهور لتفسيرها لَفهم ذلك عمّنا المعظّم ولنفّذها بلا تردّدٍ ولا مواربة، والحال أنّ هذا الخبر رسم لنا مشهد تعامل المولي ابن الحنفيّة مع القرد المخمور..

بل في الخبر دلالةٌ قويّةٌ علي أنّ الوصيّة خرجت مخرج التفسير والبيان والردّ علي الافتراءات والبهتان، حيث أنّ القرد المخمور زعم زوراً أنّ سيّد الشهداء (عليه السلام) كان ظالماً له، وقد نازعه سلطانه الّذي جعله الله له، ونازعه حقّه وقطع رحمه، وأنّه كان يمكنه اجتناب ذلك، وهذا ما نفاه الإمام (عليه السلام) في وصيّته، ففي امتناعه عن البيعة وخروجه من المدينة

1- الفتوح لابن أعثم: 5 / 137 وما بعدها.

تحقيقٌ للصلاح والنجاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو سيرٌ بسيرة النبيّ (صلي الله عليه و آله) والوصيّ (عليه السلام) ، بل وحتّي الخلفاء الّذين يسمّونهم الناس بالراشدين.

ابن الحنفيّة لا يأذن لأبنائه بالخروج مع الإمام؟ (عليه السلام)

اشارة

روي ابن سعد وابن عساكر وابن العديم والمزّي والذهبي وغيرهم، قالوا:

وتبعهم [بني عبد المطّلب] محمّد ابن الحنفيّة، فأدرك حسيناً بمكّة، وأعلمه أنّ الخروج ليس له برأي يومه هذا، فأبيالحسين أن يقبل.

فحبس محمّد بن علي وُلده، فلم يبعث معه أحداً منهم، حتّي وجد الحسين في نفسه علي محمّد، وقال: ترغب بولدك عن موضعٍ أصاب فيه؟ ((1))

فقال محمّد: وما حاجتي أن تُصاب ويصابون معك، وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم ((2)).

1- أُنظر: سيَر أعلام النبلاء للذهبي: 3 / 205 _ عن ابن سعد.

2- ترجمة الإمام الحسين (عليه السلام) من الطبقات لابن سعد: 61، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: 14 / 211، تهذيب ابن بدران: 4 / 331، مختصر ابن منظور: 7 / 143، بُغية الطلب لابن العديم: 6 / 2612، تهذيب الكمال للمزّي: 6 / 421، تاريخ الإسلام للذهبي: 2 / 343، البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 165.

*****

يمكن التعامل مع هذا المتن التاريخيّ من خلال النقاط التالية:

النقطة الأُولي: مَن هو أوّل مَن روي هذا المتن؟

اشارة

قال أحد المحقّقين: «ادّعي ابن عساكر في تاريخه ومن بعده المزّي والذهبي أنّ ابن الحنفيّة لمّا يئِس في مكّة من تغيير عزم الإمام الحسين (عليه السلام) ومنعه من الخروج إلي العراق، منع وُلده من الالتحاق بالإمام (عليه السلام) »..

ثمّ قال: «لم نعثر علي هذا _ أي: حبس محمّد أولاده عن الالتحاق بالإمام (عليه السلام) _ في كتبنا، بل في تواريخ غيرنا، سوي ما أورده ابن عساكر، ثمّ المزّي ثمّ الذهبي. وقد أورد الذهبيّ هذه الرواية مرسلة، وكذلك أوردها المزّي، ولعلّهما أخذاها عن ابن عساكر الّذي أوردها بسندٍ فيهاأكثر من مجهول، وفيه مَن اتّهمه ابن عساكر نفسه برقّة دينه كالبزّاز، وفيه مَن هو ليس بالقويّ في حديثه كابن فهم» ((1)).

*****

نحن لا نريد الوقوف عند هذه المناقشة طويلاً؛ احتراماً وتقديراً وتعظيماً وتكريماً للكتاب ومؤلّفه، بيد أنّها ضرورة البحث العلميّ، ولذا سنقف عندها وقوفاً مستعجلاً بكامل الخضوع.

فربّما أمكن الإيراد علي هذه المناقشة:

1- مع الركب الحسيني: 2 / 264.

الإيراد الأوّل: أوّل مَن روي

يبدو أنّ أوّل مَن روي هذا المتن هو ابن سعد في طبقاته، وقد أخرجه السيّد المحقّق المرحوم عبد العزيز الطباطبائي في النسخة الّتي حقّقها وطبعها.

فيكون الناقل الأوّل أقدم بكثير من ابن عساكر، ويشهد لذلك أنّ الذهبي نقله في (سيَر أعلام النبلاء) عن ابن سعد.

وقد نقله أيضاً ابن العديم وابن بدران وابن منظور وابن كثير، وهم _ عاقبةً _ ينقلون عن ابن سعد أو ابن عساكر، فالنقل ليس منحصراً بالثلاثة المذكورين.

الإيراد الثاني: ملاحظة منهجيّة

ربّما يكون هذا الإيراد في غير موضعه، لاختلاف المباني في التعامل مع النصّ التاريخيّ، وإنّما نذكره بناءاً علي ما قرّرناه في (مجموعة المولي الغريب مسلم بن عقيل (عليهما السلام) _ الجزء الأوّل _ تحت عنوان: المدخل)، فإنّ ضعف السند بالموازين المقرّرة في علم الرجال لا يمكن أن تؤثّر تأثيراً بليغاً في الخبر التاريخيّ، ولا يمكن إعمال موازين التشدّد السنديّ فيه، إذ إنّ ذلك سيؤدّي مؤدّياتٍ خطيرة، منها: نسف التاريخ إلّا القليل منه.

أجل، يمكن أن يكون ضعف السند وقوّته عاملاً مساعداً علي التأكيد أو الخدش في الخبر، كقرينةٍ وشاهدٍ إضافيّ لا أكثر.

وقد وجدنا الكثير من المؤرّخين المعاصرين يعتمدون نصوصاً ابتُلِيَت

ص: 304

بالإرسال ووالتفرّد و إعراض العلماء والمؤرّخين القـدامي، كنصّ وصـيّة الإمام سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) لأخيه ابن الحنفيّة، الّتي انفرد بنقلهـا ابن أعثم (ت 314 ه‍-)، وقـد رواها مرسـلةً إرسالاً ليس فيه إشارة حتّي إلي الراوي المباشـر الناقل للخبر، ولا نريـد هنا الـدخول في تفصيل ذلك، فله موضعٌ آخر، وقد تناولناه في هذا الكتاب.

النقطة الثانية: النقض بالآثار

اشارة

قالوا ـ بعـد المناقشة السـنديّة ـ: فضـلاً عن هذا، فإنّ هذا الأمر لو كانقد حصل فعلاً، لكان سُـبّةً وسوءةً يُعيَّر بها ابن الحنفيّة وأبناؤه، ولكان لهـذا الحدث آثار ممتدّة يُعرف من خلالها، كأن يُعاتَب ابن الحنفيّة أو أبناؤه من قِبل واحدٍ من أهل البيت (عليهم السـلام) أو أكثر مثلاً، أو من قِبـل أحـد الهاشـميّين، أو من قِبـل بعض النـاس، فيردّ محمّـد ـ أو أبنـاؤه ـ مـدافعاً عن موقفه في منع أولاده من الالتحاق بالإمام (عليه السلام) .

ولا شكّ أنّ جميع هذه الآثار ـ أو بعضها ـ سوف تنطبع علي صفحة التاريخ، فنقرأها في المطبوع منه أو في المخطوط.

لكنّنا لا نجد شـيئاً من هذا علي صفحة التاريخ، ولا في المأثور عن أهل البيت (عليهم السلام) بصدد نهضة الإمام الحسين (عليه السلام) ، أو بصدد محمّد ابن الحنفيّة نفسه، بل ولا نجد له أثراً في المأثور عن ابن الحنفيّة وعن أبنائه((1)).

1- مع الركب الحسيني: 2 / 265.

ويمكن أن يتوقّف في قبول هذا الكلام:

التوقّف الأوّل: كرم أهل البيت (عليهم السلام) وسموّ أخلاقهم

إنّ من نافلة القوم أن يتحدّث الإنسان عن كرم أهل البيت (عليهم السلام) وسموّ أخلاقهم وتعاليهم عن العتب واللوم مع أرحامهم، وهذا ما لا يحتاج إلي إثباتٍ وذكر شواهد، وكثر ما سمعنا مبادرات أهل البيت (عليهم السلام) مع أرحامهم الّذين أساؤوا إليهم، بل واعتذارهم منهم وهم أصحاب الحقّ، والشواهد علي ذلك كثيرة جدّاً لا تخفي علي مَن راجعكتب السيَر والتاريخ علي عجل.

ولنا في نفس المورد الّذي نحن فيه شاهدٌ قويّ، ذكرناه أكثر من موضع في هذا البحث، وهو رواية ابن حمران، وسمعنا كيف منع الإمامُ الصادق (عليه السلام) عن التمادي في مناقشة موقف المولي محمّد ابن الحنفيّة بعد أن ذكر له كتاب سيّد الشهداء (عليه السلام) ، ثمّ أمره أن لا يعود إلي مثل هذا الحديث.

التوقّف الثاني: اعتذار القوم

لقد رُوي لنا أنّ مَن تخلّف عن ركب سيّد الشهداء (عليه السلام) من بني هاشم ـ كابن عبّاس والمولي المكرّم محمّد ابن الحنفيّة ـ كانوا يعتذرون بأنّ أصحاب الحسين (عليه السلام) مكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، وأنّهم لا يزيدون ولا ينقصون ((1))، فهم قد توجّه إليهم لومٌ أو افترضوا أنّ ثمّة لومٌ

1- المناقب لابن شهرآشوب: 10 / 27، بحار الأنوار: 44 / 185، مدينة المعاجز للبحراني: 3 / 503.

قـد يوجّه إليهـم، فاعتـذروا بهذا العذر، بغضّ النظر عن مناقشة ذلك، وهل يصحّ أن يكون ذلك عذراً أو لا يصحّ، فإنّ مناقشة ذلك لها محلّها الخاصّ، وإنّما ذكرنا ذلك لبيان أنّ اللوم قد توجّه إليهم أو إنّهم أحسّوا باللوم، فقدّموا له العذر حتّي رُوي إلينا.

التوقّف الثالث: كان لمحمّد أولاد

ولّد أبو القاسم محمّد ابن الحنفيّة أربعةً وعشرين ولداً، منهم أربعةعشر ذكراً ((1)).

وعقّب منهم اثنان: جعفر بن محمّد ابن الحنفيّة، قتيل الحَرّة، وعليّ ابن محمّد ابن الحنفيّة، وهو الأكبر ((2)).

وقد ذكرت قصّة استدعاء يزيد له الّتي ذكرناها قبل قليل أنّه استشار اثنين من أولاده، فيلزم أن يكون أولاده كباراً راشدين أيّام مقتل عمّهم سيّد الشهداء الحسين (عليه السلام) ، بحيث يستشيرهم أبوهم في الذهاب أو الإفلات من الدعوة.

ونحن قد رأينا وسمعنا آل أبي طالب قد سجّلوا بدفاعهم عن سيّدهم وشيخهم وإمامهم أروع مواقف التاريخ علي الإطلاق، وكان فيهم الفتيّ والغلام، فضلاً عن الشباب والكهول والرجال، وقد ألحق عبد الله بن جعفر أولاده بإمامهم، ولم يفعل ذلك ابن الحنفيّة.

1- أُنظر: عمدة الطالب لابن عنبة: 323.
2- أُنظر: عمدة الطالب لابن عنبة: 324.

التوقّف الرابع: الإشكال في المنع أو في الحضور

لا ندري إذا كان المقصود بتكذيب الخبر نفي حصول المنع من المولي المكرّم محمّد ابن الحنفيّة، أو نفي أصل عدم خروج أولاده مع الإمام (عليه السلام) ؟

فإن كان المقصود نفي الأوّل، فإنّ الأمر قد حصل علي كلّ حال، سواءً بفعل منع أبيهم أو باختيارهم وعدم إرادتهم الذاتيّة.

وإن كان المقصود نفي الثاني، فإنّ في ذلك مغالبةً للتاريخ، فقد ثبتتاريخيّاً أنّ المولي المكرّم ابن الحنفيّة لم يخرج مع سيّد الشهداء (عليه السلام) لأيّ سببٍ كان، سواءً ما ذكره هذا الخبر من تيقّنه أنّ الإمام يمضي إلي الموت الّذي لابدّ منه، أو بسبب أمر الإمام له أن يبقي في المدينة، أو لأيّ سببٍ آخر، ليس هذا يعنينا الآن، فالمهمّ أنّه لم يخرج.

وكذا ثبت أنّ أيّ واحد من أولاده لم يحضر كربلاء، ولم نسمع باسم أحدهم في عداد الشهداء ولا الأسري، فهم لم يخرجوا علي كلّ حال، سواءً منعهم أبوهم أو أنّهم امتنعوا بدوافعهم الذاتيّة.

وكيف كان فلا يبعد ممّن منع أخاه الأكبر منه وإمامه من الخروج إلي الموضع الذي يصاب فيه أن يمنع أولاده الذين تحت ولايته عن ذلك.

نكتفي بهذا القدر؛ لأنّنا لا نريد أن ندخل في بحث موقف المولي المكرّم محمّد ابن الحنفيّة، ولا نريد الإطالة في مناقشة المتون التاريخيّة الّتي ذكرها ابن سعد ومَن تلاه في هذا الموضوع، ولا نريد إثبات شيءٍ أو نفيه، وإنّما ذكرنا هذه المناقشة استطراداً لا بقصد تسجيل موقف ومتابعة المتون متابعةً دقيقة.

ص: 308

الخاتمة

اشارة

يبدو من سير الأحداث _ لمن راجع التاريخ ولو علي عجل _ أنّ القرد المترهّل العجوز معاوية قد أعدّ وهيّأ وعمل بجدّ لولاية نغله يزيد من بعده، فبذل الأموال واشتري الذمم ورغّب وأرهب، وذلك قبل هلاكه بسنين، وكان ذلك علي مرأي ومسمع من سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فلم تبدر من الإمام خامس أصحاب الكساء (عليهم السلام) بادرةٌ سوي إبائه عن البيعة حينما عُرضَت عليه قهراً أيّام معاوية، ولم يؤثّر عنه أنّه أعدّ واستعدّ وهيّأ وجمّع وحرّض وغيرها من النشاطات والفعّاليّات المعروفة، وإنّما أبي وامتنع ورفض وصبر!

وبعد هلاك الطاغية العجوز، لم يبادر الإمام سيّد شباب أهل الجنّة (عليه السلام) إلي أيّ مبادرة، رغم أنّ تهاوي الطاغوت كان قد اشتهر وذاع خبره قبل أن يهلك بفترةٍ غير قليلة، ربّما استمرّت بضع سنين، وكان الإمام (عليه السلام) يتوقّع ذلك _ بغضّ النظر عن علم الإمامة _، ويشهد له أنّ الوالي لمّا استحضرهم وأرسل إليهم في غير وقت أعرب الإمام (عليه السلام) عن هلاك الطاغية وأعلن ذلك لمن حوله.

مع ذلك كلّه لم يبادر الإمام (عليه السلام) إلي موقفٍ أو مبادرةٍ تكشف عن استعداداتٍ مسبقة كان الإمام (عليه السلام) قد خطّط لها وبيّتها وأعدّ واستعدّ

ص: 309

لهذه الساعة المنتظرة المتوقّعة، وهي هلاك الطاغية ونزو القرد الخليع المخمور علي أعواد المنبر.

وبعد أن دخل علي الوالي كلّمه وحاوره بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يكن منه سوي أنّه استمهله، وأخبره أنّه لن يبايع يزيد، ثمّ خرج منه وهو صابرٌ محتسب.

وبعد أن خرج من الوالي لم يبادر إلي أيّ مبادرةٍ يُستشفّ منها أنّ له موقفاً سوي إباء شخصه النفيس _ فداه العالمين _ عن البيعة، ثمّ لم يؤثَر عنه أنّه (عليه السلام) حرّض الناس علي الوالي أو علي يزيد الخمور أو علي أيّ شيءٍ آخر، فلم يخطب ولم يستنهض ولم يستنصر ولم يعلن موقفاً يدعو الناس للالتحاق به، وهو مجتمع يقولون عنه أنّه مجتمع أهل الحلّ والعقد، ومجتمع الصحابة والتابعين ومركز الإسلام وغيرها من العناوين.. إنّ القوم قد بايعوا وألزموا أنفسهم الطاعة، ودانوا بالتبعيّة للقرود، ولهثوا وراء دنياهم العفنة القذرة، فلم يسمعوا بعد ذلك سوي هتوف الشيطان، ولم ترَ أعينهم سوي بريق الصفراء والبيضاء وزخارف العيش الوبيل وزخارف الدنيا الرخيصة..

هذا، وقد أكّدت النصوص التاريخيّة بوضوحٍ أنّ القرد المخمور المسعور قد أمر بقتل سيّد الشهداء (عليه السلام) وطلب رأسه منذ اللحظة الأُولي الّتي تسلّق فيها علي أعواد المنبر وخلّف أباه، وقد سالت لذلك لعاب الذئاب والوحوش الأُمويّة الكاسرة والأقذار المتعلّقة بأذنابها في المدينة،فتعجّل مروان قتل سيّد الشهداء (عليه السلام) ، وكان الوالي علي استعدادٍ تامّ

ص: 310

لتنفيذ حكم القرد الراعي لهم، وما قاله من الحمد لله علي خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) علّله لئلّا يبتلي بدمه، وهذا نفسه شاهدٌ علي عدم امتناعه علي الإقدام علي ارتكاب الجناية العظمي.

فعزم _ روحي فداه _ علي الخروج من المدينة، غريباً مخذولاً مضيَّعاً، لم يلتفت إليه أحدٌ من العالمين، ولم ينصره أحدٌ من الصحابة والتابعين، ولم يعده أحدٌ الدفاع عنه.. فكان إن بقيَ في المدينة وهو لم ولا ولن يبايع يزيد، ولا يعطي بيده إعطاء الذليل، فلابدّ أن يقع في المدينة المحرّمة القتلُ والقتال، وكان يُقتَل الإمام ومَن معه حسب الحسابات الظاهريّة، لأنّ السيوف والمال والعدّة والعدد مع بني أُميّة، فتُهتَك حرمتُه وحرمة دمه الزاكي الّذي سكن الخلد،، وحرمة المدينة المنوّرة الّتي حرّمها النبي (صلي الله عليه و آله) ، وكان مجتمع الصحابة والتابعين وأهل الحلّ والعقد يقتلونه!! فكان لابدّ أن يخرج، فخرج صابراً محتسباً..

*****

ولا يبدو من التأمّل في النصوص التاريخيّة أنّ الإمام (عليه السلام) كان قد خطّط لخروجه من المدينة قبل أن يستدعيه الظالم ويخيّره بين البيعة الذليلة والقتل، أي :بين السلّة والذلّة، كما سمّاها سيّد الشهداء (عليه السلام) نفسه، والكلام دائماً حسب الحسابات الظاهريّة والنصوص التاريخيّة.

وما ورد في كتب أهل الكوفة بعد شهادة الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام) وأجوبة الإمام (عليه السلام) عليها لا ينهض لإثبات ذلك، لأدلّة وشواهد ليس هذا محلّ بحثها بالتفصيل، لما فيها من ملاحظات دلاليّة، وأجواء

تفرض لها فهماً خاصّاً، والناس كانوا في جياشات عاطفيّة، وكانوا موتورين من موقف سيّد شباب أهل الجنّة الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام) ، سيّما إذا لاحظنا أنّ الكتب الّتي وردَت علي سيّد الشهداء كانت موقّعةً بأسماء الّذين اعترضوا علي الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام) غالباً، وهم الّذين رفعوا الصراخ عالياً بعد هلاك معاوية، ثمّ خمدت أصواتهم فلا نسمع لهم ركزاً إلّا بعد شهادة الإمام الحسين (عليه السلام) ، من قبيل: سليمان بن صرد الخزاعيّ والمسيّب بن نجبة، فكانت فورةً عاطفيّةً وغلياناً كاذباً يحتاج إلي تسكينٍ وإدارةٍ وسيطرةٍ علي الأجواء!

*****

كما يبدو مِن تتبّع المتون التاريخيّة الّتي تحكي أحداث فترة هلاك الطاغية ونزو القرد الخليع المخمور علي مقاليد الأُمور، أي: خلال زهاء أُسبوعين أو أقلّ منذ أن بلغ خبره إلي المدينة إلي حين خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) منها.. يبدو منها أنّ المؤرّخ لم يسجّل أيّ نشاطٍ اجتماعيّ أو تحريضيّ أو الإعلان عن أيّ موقفٍ سوي العزم علي الخروج من المدينة.

وكانت الوجهة هي مكّة، ومكّة فقط! ولم يُسمَع أيُّ تصريحٍ من أيّ أحدٍ حتّي من سيّد الشهداء (عليه السلام) نفسه يفيد أو يشير إلي أنّ ثمّة وجهةأُخري يمكن أن يتوجّه إليها سيّد الشهداء (عليه السلام) سوي مكّة..

ولم نعثر علي نصٍّ يفيد أنّ الإمام (عليه السلام) قد أعلن «خروجاً بالمعني المصطلح» من المدينة علي يزيد، وغاية ما تفيده النصوص بصراحةٍ

واضـحةٍ أنّ الإمام (عليه السـلام) إنّما خرج من المدينة، لأنّ يزيد وأذنابه لاحقوا الإمام (عليه السلام) ملاحقةً جدّيّةً حقيقيّة، وقصدوا سفك دمه المقدّس، وطلبوا رأسه وطلبوه، فخرج!

*****

ولا يخفي أنّ الفترة الّتي هجم فيها العدوّ علي سـيّد الشـهداء (عليه السلام) في المدينة إلي خروجه منها لا تربو علي اليومين أو الثلاثة أيّام، لم يسجَّل فيها للإمام (عليه السلام) موقفٌ سوي العزم علي الخروج والتهيّؤ له، وقد صبر فترة إمامته، وهي زهاء عشر سنوات.

*****

ثمّ شكي الإمام (عليه السلام) إلي جدّه شكواه الأخيرة، وشكي إليه هذه الأُمّة المتعوسة المنحوسة الّتي خذلته وضيّعته.

وقبل خروجه سـجّل التاريـخ لقاءًا بينه وبين أخيه محمّد ابن الحنفيّة، وتفرّد ابن أعثم في نقل وصـيّةٍ مرسـلةٍ له، أعرض عنها العلماء الشـيعة المتقـدّمون والمؤرّخون، إلاّ القليـل القليـل منهم كمـا فصّـ لنا ذلك في غضون البحث، وقـد وُظِّفَت علي أساس فهمٍ خاصّ علي أنّها بيان لإعلان القيام بالمعني المصـطلح، وقد ناقشناها مناقشةً مستفيضة.وبغضّ النظر عن سندها وعلله، فإنّ الوصيّة لو قرأناها ككلٍّ مترابطٍ وأخذنا بهـا جميعـاً من دون اقتطـاع فقرةٍ والتمسّـك بها، فإنّها لا تفيـد ما ذهبوا إليه، فهي من حيث الدلالـة غير تامّـةٍ علي مراد مَن ذهب إلي ذلك بشواهد واضحة.

ثمّ إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب الإصلاح وغيرها جميعاً ممّا فعله الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) كما فعله آباؤه وأبناؤه المعصومون (عليهم السلام) جميعاً، ونحن نشهد لجميع الأنبياء والأوصياء أنّهم أحبّوا ذلك وفعلوه، ونخاطب كلّ واحدٍ منهم فنقول: «قد أقمتَ الصلاة، وآتيتَ الزكاة، وأمرتَ بالمعروف، ونهيتَ عن المنكر، وبذلتَ نفسك في مرضاة الله».. سواءً قاتلوا أم لم يقاتلوا!

وهل يُعدّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جرماً يستحقّ عليه القتل بتلك القتلة الفجيعة وسبي ودائع النبوّة وعقائل الوحي؟!

*****

وبتعبيرٍ آخر:

إنّ الإمام (عليه السلام) لم يبادر أيّ مبادرةٍ منذ أن هلك الطاغوت، وإنّما كانت المبادرة من الطاغوت نفسه، فأحضروا الإمام (عليه السلام) وهجموا عليه.

ويبدو من النصوص الّتي مضت في هذا البحث أنّ كتب يزيد الأُولي كانت تطالب برأس سيّد الشهداء (عليه السلام) علي كلّ حال، فلمّا هجموا علي الإمام (عليه السلام) اتّخذ الإمام موقفاً دفاعيّاً عن نفسه وأهله، فخرج عن المدينة مضطرّاً، إذ صرّح في أكثر من موضع أنّهم أخرجوه وأرعبوه وأزعجوه وأخافوه، والخوف هنا ليس في مقابل القتل كما هو واضح، وإنّما هو في مقابل الأمن، والإمام (عليه السلام) لا يخاف من القتل ولا من الموت _ حاشاه _، بيد أنّ القوم قد ضيّقوا عليه وتركوا المدينة بلداً غير آمن له ولأهله، لأنّهم أقدموا علي قتله لولا خروجه، فالخوف هنا مقابل الأمن من جهة،

ومقابل أن تهتك بدمه الزاكي حرمة المدينة، ولئلّا يقال إنّ مجتمع الصحابة قتلوه، مثلاً..

فخروج الإمام (عليه السلام) من المدينة كان تدبيراً علي أثر تدبير قتله من قبل الأعداء، وكانت حركته حركةً دفاعيّةً محضة، كما أفادت النصوص التاريخيّة وسيَر الحوادث المرويّة.

فالإمام لم يبدأ هجوماً، ولم ينطلق هو مبتدءاً، وإنّما هجموا عليه فخرج..

هجموا فدافع، وكان دفاعه الخروج، لأنّ أهل المدينة خذلوه وضيّعوه ولم ينصروه، واصطفّوا مع العدوّ الظالم علي ابن رسول الله وحبيبه.. فكان في خروجه إصلاحاً للأُمّة وفلاحاً ونجاحاً، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وحمايةً للأُمّة..

وما قيام سيّد الشهداء (عليه السلام) كلّه إلّا حركة دفاعيّة ليس إلّا، ويشهد لذلك بقيّة مواقفه وتصريحاته وبياناته طيلة فترة قيامه بأمر الله!

وقد ختم حياته المقدّسة برجزه المعروف:أنا الحسينُ بنُ علي

آليتُ أن لا

أنثني

أحمي عيالاتِ أبي

أمضي علي دينِ

النبيّ

ونودّ أن نختم هنا بإشارتين سريعتين، سيأتي تفصيل الكلام فيهما في محلّه إن شاء الله تعالي:

الإشارة الأُولي: الأخذ عن الإمام نفسه

أشرنا في أكثر من موضع أنّنا ينبغي أن نتابع بيانات الإمام (عليه السلام) منذ أن

خرج إلي أن استُشـهد، ونحاول فهم القيام المقـدّس من خلاله، ولا يهمّنا بعدئذٍ كلام غيره وبياناتهم، إلّا إذا كانت شارحةً وموضّحةً ومبيّنةً لكلماته (عليه السـلام) ، فليقل ابن عبّاس وابن عمر وغيرهما أنّ المدينـة كانت أمناً، وأنّ مكّة كانت أمناً، فلماذا يخرج، فليبق أو فليناول، فإنّه إن ناول لا يُقتَل.. فإنّنا لا نرتضـي ذلك ما دام الإمام (عليه السلام) بنفسه يؤكّد بصراحةٍ واضحةٍ أنّ المدينة ليست بأمن، وأنّه إن لم يعجّل في الخروج من مكّة فإنّه لا يأمنهم علي نفسه ولَأخذوه أخذاً، وأنّه إن بقي اغتالوه، وأنّهم سيقتلونه سواءً بايع أم لم يبايع، كما صرّح (عليه السلام) في أكثر من موضع وأخبر أنّهم لا يتركونه حتّي يستخرجوا العلقة المقدّسة من صدره، وأنّهم سيقضون فيه ما قضوا في أبيه وأخيه.. ولا حاجة لنا بتحليلاتنا وتعليلاتنا مع وجود كلامه (عليه السلام) الشريف في صفحات التاريخ نفسه!

ولا يهمّنا إن حاول العدوّ أن يصوّر ما فعله الإمام كخروج ضدّه، وأنّهظلمٌ للسـلطان وتجاوزٌ علي حدود ولايته وتسلّطه، فإنّ السلطان ينحت مسوّغاتٍ علي مقاسات هواه لينفّذ ما يريد ويقضي ما يصبو إليه.

ولا يهمّنا صـراخ الناس وضـجيجهم وعجيجهم ولغطهم، ولينشـروا من كلامهم ما ينشـرون، وليرفعوا من الشعارات ما يرفعون، وليقولوا ما يقولون.. فإنّه لا يصـحّ ولا يصـلح أن نفسّـر ونفهم قيام سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) من كلام الناس ومواقفهم ما دام سـيّد الشـهداء (عليه السلام) قد قال وأبان وفسّر!

الإشارة الثانية: دور الناس والأمّة

تحتاج هـذه الإشارة إلي دراسـةٍ وافية، بيد أنّنا نقتصـر هنا عليها كإشارة، ونحيل التفصـيل فيها إلي محلّه إن شاء الله تعالي، وخلاصة القول فيها:

قـد يُتصوَّر للوهلـة الأُولي أنّ الصـراع انحصـر في كربلاء، وأنّ أطراف الصـراع هم سـيّد شـباب أهل الجنّة (عليه السـلام) والقرد المسـعور المخمور، ومَن كان تبعاً للحقّ في قلّة عددهم وعُدّتهم ومَن كان تبعاً للشـيطان في عدّتهم وعديدهم الذي تشـكّل في صورة عسكر وجيش نظاميّ قاتل ريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) وقتله..

فيما يقع التغافل في طرفٍ ثالثٍ مؤثّرٍ غاية الأثر ـ ودائماً في الحسابات الظاهريّة ـ في الواقعة، وهم من يسمّونهم: الأُمّة! فإنّ هؤلاء قد عدَواا علي سـيّد الشـهداء (عليه السـلام) ، إمّا بتسـجيل مواقفهم في صفّ الظالم والمشاركة في قتاله، وإمّا بخذلانه واختيار الدنيّة تديّناً أو حبّاً في الدنيا،فإنّ الأُمّة الّتي اعتنقت دين العِجل والسامريّ، وأصـغت إلي هتوف الشـيطان، وقدّست إلي حدّ العبادة أعداء النبي (صـلي الله عليه و آله) ، أو مالت إلي الـدنيا وزخارفها وخافت علي أموالها وأولادها وأخلـدت إلي الدنيّـة، علي علمٍ منها، شاركت كلَّ المشاركة في ما جري علي سيّد الشهداء (عليه السلام) وما جري علي أهل بيته ومَن سبقه من أهل الكساء (عليهم السلام) ..

فهي سـكتت يوم هُتكت حرمـة النبيّ (صـلي الله عليه و آله) في مـدينته المقدّسـة الّتي حرّمهـا ما بين عير وثبير، وعلي مرأي ومسـمع من الصحابة، فجمعوا

ص: 317

الحطب علي بيت الوحي وأحرقوا الـدار، وفيهـا سـيّد الوصـيّين وسـيّدة نساء العالمين وسـيّدا شـباب أهل الجنّـة (عليهم السـلام) بإجماع المسلمين، فعَدَوا علي الصدّيقة فقتلوها علي مقربةٍ من تربة أبيها..

ثمّ عدَوا علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فملؤوا قلبه قيحاً، وجرّعوه الكمد، وحاربوه، ورموه بشقّ العصا، وغيرها من الكبائر الّتي ارتكبوها في حقّه، ثمّ قتلوه.. والأُمّة بين مباشرٍ وخاذل، طمعاً بما في أيدي القوم..

وعـدَوا علي السـبط الأكبر (عليه السـلام) ، حتّي صالـح الطاغية، ونكث الطاغية عهود الصـلح منذ اليوم الأوّل الّذي دخل فيه الكوفة، وهو يعلم أن ليس في القوم من سيكون في صفّ الإمام المجتبي (عليه السلام) ، ففعل ما فعل؛ لأنّه واثقٌ من رعيّته..

ثمّ عدَوا علي سـيّد الشـهداء (عليه السلام) ، فخذلوه في البلدان، وتركوه طُعمةً للسيوف والسنان، ووقفوا يتفرّجون علي عقائل الوحي وودائع النبوّة وهميطوفون بهم في البلـدان، فرضوا بذلك وسـكتوا، اعتقاداً منهم بدين السـلطان أو رضـيً منهم بدنياه وقيئه السائح عليهم من فضول الحطام.

إنّ هؤلاء هم العسـكر الّذي قاتل به عسـكر السـقيفة وعسـكر الكوفة أصحاب الكساء (عليهم السلام) وقتلوا سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فلماذا يبقون دائماً خارج دائرة التجريم والمحاسـبة؟! بل ربّما يُلتمَس لهم العـذر من خلال تحليل أوضاعهم النفسـيّة والاجتماعيّـة، فيُعتذَر لهم بالشـلل النفسـيّ وضـعف الإرادة وازدواجيّة الشخصيّة، وما شاكل من المبرّرات الّتي دعتهم إلي خذلان سيّد الشهداء (عليه السلام) !! شللهم النفسيّ كان نتيجة حبّ

الدنيا أو التديّن بدين الأعداء، وكذا ضعف إرادتهم وازدواجيّتهم، فهي حالاتٌ مبتنيةٌ علي أَسس الضلال والهوي الّذي نهي عنها الله والنبيّ والقرآن الكريم.

فلا ينبغي ــ والحال هذه ــ تجاهل دور الأُمّة والتدقيق في دراسة ردود أفعالها والإمعان في مواقفها.. ماذا فعل أهل المدينة وريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) يُهدَّد بالقتل بين أظهرهم؟ أوَليس قد ألّبوا أو خنسوا إرضاءاً للسلطان الّذي هم به يؤمنون؟ ولو خنسوا خوفاً وحبّاً في الحياة، أوَليس هم مدينون؟

وكذا في مكّة، أيخرج ريحانة النبيّ (صلي الله عليه و آله) وخامس أصحاب الكساء (عليهم السلام) والموسم علي حاله لم يتزحزح فيه أيّ شيءٍ ولم يثيره أيّ شيء؟!والكلام يطول، سنتركه هنا لنلتقي في مواكبة ظروف حركة الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) بين المدينة ومكّة، ثمّ في مكّة إلي حين الخروج منها.

*****

وأخيراً: أتقدّم بالشكر الجزيل الموصول إلي القارئ الكريم علي سعة صدره واستماعه إلي ما في الكتاب، والتأمّل والتدقيق فيه، سواءً اقتنع أو لم يقتنع.

أرجو من الله التوفيق والسداد، وأن يمدّ في عمري في خيرٍ وعافية، ويفتح علَيّ، ويصحّح نيّتي، فإنّي لا أرجو إلّا أن أَلتزم الحقّ وأأكتشف الحقيقة، وأعرف الإمام المظلوم (عليه السلام) ، وأحشر نفسي ووالدَيّ وأولادي وأزواجي في خدّامه وعبيده.

محتويات الكتاب

الديباجة. 3

المقدّمة. 13

الأول: القراءة بمعزلٍ عن السوابق.. 14

الثاني: اجتناب العجَلة. 15

الثالث: ليس هذا كلّ البحث... 15

الرابع: توثيقات الكتاب... 16

الخامس: هدف البحث... 16

السادس: إضافة بعض المطالب... 17

مقدّمات ضروريّة. 19

المقدّمة الأُولي: علم الإمام (عليه السلام) بعاقبة القيام. 21

الفرض الأوّل: علم الإمام (عليه السلام) . 22

الفرض الثاني: من خلال الإخبار الغيبيّ.. 22

الفرض الثالث: مُجريات الأحداث ووضوحها للجميع.. 23

المقدّمة الثانية: صفات المعصومين (عليهم السلام) وتكاليفهم الربّانيّة. 24

المقدّمة الثالثة: تعريف الثورة. 30

معني الثورة في اللغة العربيّة. 40

تعريف الشيخ شمس الدين (رحمة الله) . 44

موازين دراسة الثورات... 63

أهمّ الوسائل في الغزو الثقافيّ.. 66

مقوّمات الثورة. 69

دواعي خروج سيّد الشهداء (عليه السلام) من المدينة 71

القسم الأوّل: دواعي بعيدة المدي.. 71

المدي الأوّل: منذ صدر الإسلام. 71

المدي الثاني: قُبيل القيام. 76

القسم الثاني: الدواعي الآنيّة. 81

وصيّة سيّد الشهداء (عليه السلام) لأخيه محمّد ابن الحنفيّة 83

المستوي الأوّل: البحث في السند والاعتبار. 83

أوّل مَن حكي الوصيّة. 83

حكاية ابن شهرآشوب... 84

حكاية ابن أبي طالب ومَن بعده. 86

غريبةٌ جدّاً 87

إغفال السند.. 88

المستوي الثاني: حوار ابن الحنفيّة وسيّد الشهداء (عليه السلام) عند المؤرّخين.. 88

نموذج متقدّم: البلاذري (ت 279). 89

نموذج معاصر الطبري (ت 310). 89

نموذج متأخّر: المفيد، المجلسي، البحراني، وغيرهم.. 90

المستوي الثالث: البحث في الدلالات... 94

النكتة الأُولي: النصّ وصيّة. 94

النكتة الثانية: المخاطَب بالوصيّة. 98

النكتة الثالثة: مكان صدور الوصيّة. 100

النكتة الرابعة: زمان كتابة الوصيّة. 101

النكتة الخامسة: المطلوب في الوصيّة. 104

النكتة السادسة: ظروف صدور الوصيّة. 105

النكتة السابعة: سبب الخروج في تصريحات سيّد الشهداء (عليه السلام) . 126

النكتة الثامنة: سبب الخروج من المدينة في فهم المؤرّخين.. 134

النكتة التاسعة: تصوّرات الأقرباء والمقرّبين.. 137

النكتة العاشرة: فهم الشيعة في الكوفة. 138

النكتة الخاتمة: الاستنهاض والاستنصار! 141

نكات تتعلّق بالوصيّة مباشرة. 142

النكتة الأُولي: ملاحظة اتّحاد الصدر والذيل في النصّ..... 143

النكتة الثانية: أُحبّ المعروف وأُنكِر المنكر. 143

النكتة الثالثة: الوصيّة برواية أهل البيت (عليهم السلام) . 154

النص..... 159

الجزء الأوّل: الحوار. 159

فقرات الجزء الأول: 161

الجزء الثاني: متن الوصيّة. 242

البند الأوّل: إطلالة الوصيّة ومقدّمتها 244

البند الثاني: متن الوصيّة. 245

البند الثالث: خاتمة الوصيّة. 285

لماذا لم يوصِ الإمامُ لولده زين العابدين (عليهما السلام) ؟ 291

هل نفذ ابن الحنفيّة الوصيّة؟. 295

موقف ابن الحنفيّة مع يزيد المخمور حسب رواية ابن أعثم.. 296

ابن الحنفيّة لا يأذن لأبنائه بالخروج مع الإمام (عليه السلام) . 302

النقطة الأُولي: مَن هو أوّل مَن روي هذا المتن؟. 303

النقطة الثانية: النقض بالآثار. 305

الخاتمة. 309

الإشارة الأُولي: الأخذ عن الإمام نفسه. 315

الإشارة الثانية: دور الناس والأُمّة. 317

ص: 324

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز القائمية اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
وللايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩